عبد الونيس محمود ....

إبـاء الرّجـال و أعبـاء النضـال.

محمد عبد الله حنيش

عبد الونيس محمود...

(إبــاء الرجال و أعبـاء النضال)

قصة رجل لم تُقبِل عليه الدنيا بشيء من متاعـها،،،
منـذ يُتم الطفوله ، إلى اكتمال يُتمه في الشيخوخة ،
لكنـها ؛ عَمَّـدَتْه إنسانيًا بـأغنى تجـاربها...

****

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

دار الكتب الوطنية

بنغازي – ليبيا

التاريخ : ~~2007/02/09~~ ف
9-6-2018

الأخوة : محمد عبدالله أحنيش

بعد التحية ،،،

نشكركم على اخبارنا بأنكم ستنشرون :

عنوان الكتاب: عبد الونيس محمود .اباء الرجال وأعباء النضال

اسم المؤلف :محمد عبدالله أحنيش

سنة النشر : ~~09/02/2007~~
9-6-2018

و لقد قمنا بتخصيص الرقم الدولي الموحد التالي لهذا الكتاب :

ردمك **ISBN 978-9959-1-1903-2**

يجب طباعة ردمك مع وجود فراغات او شرطات بين الشرائح الأربعة كما هو موضح و ينبغي طبعه على ظهر صفحة العنوان الداخلية في الأسفل أو على ظهر سترة الغلاف إذا كان للمطبوع سترة أو على ظهر الغلاف و عند طباعة ردمك على ظهر صفحة العنوان نرجو اضافة العنوان التالي فوق ردمك

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

دار الكتب الوطنية

بنغازي – ليبيا

هاتف : 9097074 - 9096379- 9090509

بريد مصور : 9097073

البريد الإلكتروني : nat_lib_libya@hotmail.com

قسم التزويد و التبادل و الإهداء

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

رقم الإيداع القانوني 184 / دار الكتب الوطنية

0925300201

الفهــــرس

لصفحــة

1	مقــدمــة..	1
2	تمهيد لازم..	12
3	النشـأة : الحياة المدنية ،، و الحياة المهنيـة............	22
4	محنة «عبدالونيس» (المثقف ،، الجنـدي)...............	37
5	تحوّل إدارة البلاد تحت سلطة الانقلاب..................	58
6	كيفية المحاولة : أهدافها ، توقيتها ، ولماذا وقعت..........	80
7	المحـاكمـات العسكرية................................	94
8	الذّبول في الغياهب (في وحدة الزّنزانة)................	101
9	مذكرات «عبدالونيس» في سجن (الحصان الأسود).......	105
10	اللجوء السياسي،، وحياة الاغتراب.....................	151
11	صعوبات العيش وقت الإختفاء..........................	166
12	- محاولات التواصل معه في تيه الغربة.....................	187
13	الخـاتمـة..	198

الإهـــــداء

إلى روح الأرملة الصّابرة المحتسبة،،،

التي كافحت من أجل معيشة وتربية أنجالها وقت الشّدة والحاجة والعوز،

والتي قاست حرقة شوق الأم للقاء ابنها قبل الرّحيل ،،،

فوافتها المنيّة باستعجال قبل لقائه، ودُفن معها الشوق ...

إلى السّيدة الفاضلة : (عَلْجِيّه بنت محمد امْنَيْسي)

أهدي هذا الكتـــــاب.

عَهِدت الأيام أن تطال أحداثُها الرجال ،،،

فكان الإباء (الرفض بعزّة النفس) للصّامدين مُبتغى..

في المجتمعات التي بُنيت على قواعد عريضة من الطغيان، فإن الضحايا فيها هم حملة الأفكار الخلاقة التي تنشد الإصلاح.

إن فكرة التّصحيح واستعدال المُعوجّ يحوّلها الاستبداد المؤسّس من حَمَأِ القهر، من فكرة رائدةٍ إلى جسم جريمةٍ مجرّد .

الحرية في جوهرها، ليست محدّدة في الخلاص من الطغاة بإسقاط أنظمتهم فحسب، ولكن المنشود هو القضاء على مُركّب الطغيان في أعماق تركيبة المجتمع .

يقول سبارتاكوس: وراء كل قيصرٍ يموت ،، قيصرٌ جديد .

المؤلف

مقدمة

كم يُحزنك أن تلتقي بأحد المتقاعدين من مناضلين لفظتهم سلطات البطش، وقد هرِمَ في منفاه ،،، وما عاد أحد يذكره، والجيل الجديد لا يعرفه ولا يعرف نضاله... في غير الزمان يحيى، وفي غير المكان يعيش،،، ليصبح في النهاية محطّ الشَفقة إلى حدّ يفوق التّصور ...

من ثوابت هذه الدنيا، أن حياة البعض من الناس تُلخّص مجمل أحداث زمانهم... ويعكس الفرد في جزئيات عيشته بأوقاتها وأحداثها، صورةً طبق الأصل للمسار العام للحياة، وظروفها وتعاريج أحداثها في مجتمعه،،، كما تشكل سيرته الخاصة وتفاعله مع أمور الحياة، ومعالجة مفارقاتها، ومواجهة صعابها، كتابا ملخصا يصوّر ما كان، لحيث ما كان ، في بقعة تواجده في هذا الكون.

من ذلك التصوير لما كان، الحالة التي كانت عليها معظم الأسر الليبية، والتي تجسّدها حالة الأسرة التي نشأ بها صاحب السّيرة المعني بهذا الكتاب،« عبد الونيس محمود سعيد » من شظف العيش، وكفاح الأرملة من أجل معيشة الأيتام، وعبث الأطفال في لهوهم بهشيم مخلفات الحرب من بقايا الآليات والمعدات، وحتى القنابل الحيّة المنثورة في الخلاء، وسيرهم نحو مدارسهم الابتدائية حفاةً، يرتدون أسمالا بالية ، والسُكنى في خيم الخيوش أو في المغارات الرومانية و الإغريقية القديمة، ومعيشة الرّيف المتواضعة البسيطة التي تزينها المحبّة والترابط، ويرتقي بها بهاء الحياء إلى أعلى المراتب الإنسانية.

ثم الانتقال بعيدا عن الأهل للدراسة في الأقسام الداخلية، والتّفوق في الدراسة رغم كل الصعوبات، وحبّ القراءة والاطلاع ، والنّهل الواسع من كل معين يتيسر للثقافة، والتّفوق المهني في العمل، ومصارعة منغّصات الحياة، ومقارعة النظام الاستبدادي، عند مصادرة الحريات العامة في المجتمع، والاستعداد لتلقي الضربات الموجعة ، وتحمّل الظلم، وانتهاج السّمو نحو قبول التضحيات بصبر وتنسّكٍ في سبيل الوطن...

تلك وقائعٌ فارقة ومميزة،،، صاحبت خُطى ذاك الذي مرّ مساره مع هذه الدّروب... وقد تباينت في حلوها و مرّها، بين سعادة في أوقات قليلة متواضعة، وشقاء طويل ومرير في أغلب الأحيان،

كإنسان عاش أيامه بأحداث مثيرة جدا، متأرجحة بين رغبة قوية وتشبّثٍ فذّ بالحياة ، وبين دُنوٍّ من الهلاك كان في غالب أيام عمره محققا...

فما أُضمّنه هذا الكتاب،، وإن انحصر في سيرة « عبد الونيس محمود » الذاتية ذات النّسق المنفرد في أفق محدود لشخصه، سواء في نشأته بأسرة فقيرة معدمة، أو كأحد الذين صاروا ضحايا التّعاطي مع السياسة فيما بعد، إلا أنني أردته أن يشمل المجمل في المضمون من لمحات نختارها

للبيان في تجربة جيل كامل، وصفحات من قصة هذا الوطن، و رصدٍ لظاهرة النضال لمن عاصر أيام الكفاح للخلاص من الاستعمار وتبعياته في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث ارتفع شعار القوميات لدى معظم شباب الوطن العربي المتأثر بكل ما سمعه وقرأه من أمجاد الأسلاف، و المتعطش حينذاك لمشاهدة غدٍ أفضل، مع إشراقة صباح يوم جديد تنهض به الأمة.

ومن ناحية أخرى، فإن الكتابة عن شخصٍ مثقف، أديب ومناضل، ليست سهلة، لأن مجد الكتابة يكون فيما يعبّر به الكاتب عن صفات الآخرين، أو يتكلم بلسان حالهم عندما لا يقدرون على ذلك، أو لا يحسنون قوله، ولكن الشخصية التي نحن بصددها، غنيةٌ في الأساس عن أن يقدّمها أو يتكلم بلسانها أيّ كاتب، فمن أريد الكتابة عنه : مثقف وكاتب،،، وبامتياز..!.

أما فيما يخص مفاهيم الوطنية والقومية في ذلك الزمان، فقد استحوذ على جيلنا أفقٌ هُلاميّ عريض، هيمَن واستَفحل وسيطر بالتالي على كل المشاعر الغضّة الشابّة البكر، فتشكلت فهومٌ لا تقابلها بدائل ، ولم تُتح لها فرص المقارنة، حتى تتبيّن ،،، أو بالأصح لم تعرف كيف تنتهج صحيح البحث، لكي تستبين الحقائق المجردة....

و بالتالي، فإننا في ليبيا كجزء من الوطن العربي ـ حيث وقعت الأحداث التي تضمنها هذا الكتاب ـ لم نستطع أن نتبيّن حدود جدار المعقولية في الأماني والرؤى فيما كانت تتلقفه أفئدتنا العطشى، و المتحمسة برومانسية شبابية طاغية تعتمل في النفوس، وقد شحذتها عبارات رنّانة منتقاة في خُطبٍ تنقلها إلينا موجات (الراديو) بمناسبة أو حتى بدونها ، وصحافة موجهة مغرضة، و بشرائط سينمائية (مُفبركة) تبثّ عروضها في آفاق خيالٍ جامح، حتى غدا عالمنا (المحدود) يرزح تحت شبكة محترفة من الأكاذيب... ينسجها أساطين دعاة الأنظمة الدكتاتورية لتسويق الفشل وتلميعه، ودغدغة العواطف لإلهاء الناس عن معاناة المآسي ،،، وكأننا كنا إذ ذاك في سوق النّخاسين، حيث الرّنين يملأ سمع الآذان ولا صوت لسواه..! زد على ذلك، أنه لم يكن متاحا لنا من مصادر للاطلاع والقراءة المتجددة سوى ثلاث أو أربع مجلات، وعدد بسيط من الجرائد المتواضعة المستوى، وتأتينا كلها من مصدر واحد.

والغريب أن لا أحد في بلادنا من المفكرين، أو من المسئولين في وزارة الإعلام والثقافة، أو من رجال الدولة ـ الذين كانت مقاليد الأمور بأيديهم في ذلك الزمن ـ قد عمل على تشريح الأمر و (عَقْلَنَة) ذلك المَنْحى الجانح بهدف التّبصير الواجب ، والتصحيح اللازم قبل الوصول للحافة...

لقد عجزوا عن تقويم نشأة النّبتة ، إلى أن نمَت فيها أفرعٌ عوجاء، تقوّت مع الزمن واستغلظ عودها حتى تجذّرت نبتة السوء،،، ولا شك في أنهم تراخوا بتفريط، وأهملوا باستهزاء أو استعلاء عمّا كان يجب أن يُعالج... فذلك التّرك كان خطيئة اقترفوها بلا شك، وما كان عليهم أن يقعوا فيها.

وبالرغم من أن الجيل الناشئ حينذاك لم يكن يعرف التّطرف الذي يبيح المحظورات ، ولم يكن قد سدّ آذانه صَلف العِند الذي استشرى واستفحل في الأجيال اللاحقة ـ كما نرى اليوم ـ إذ لم تكن في

نظراتهم إلا الطيبة وفعل الخير... وأظن أن التّوجيه الهادف نحو المسار الصحيح كان ممكنا إلى حدّ كبير لو تداركتهم حكمةٌ بدراية، ولو وُضعت استراتيجية وطنية لإحياء روح المواطنة فيهم، وإشغال الفراغات الفكرية بمناهج تعبويّة تصدّ عن أفكارنا ذلك المدّ المشبوه في تتابع وصول تلك الموجات الخاطئة المغرضة إلى شواطئنا، حيث أُهمل الجيل،،، وتُرك يتخبّط فيها منفردا، ومتلوّثا في أوحالها...!.

(باستثناء مبادرة يتيمة تبنّاها رئيس الوزراء الأسبق المرحوم «عبدالحميد البكوش » بوضع برنامج يهدف لإحياء الشخصية الليبية لإنقاذها قبل أن تتلاشى وتنتهي وسط الأدخنة المكثفة في الدعاية لشعارات ادّعت حينذاك إحياء القومية العربية، تلك التي تبيّن فيما بعد أنها كانت بدون أية مصداقية للأسف... ولكن ولسبب ما، لم يطل المقام بوزارته، إذ سرعان ما استُبدلت بغيرها، وبالتالي ماتت المبادرة بإبعاد صاحبها عن دائرة المسئولية).

ولو كانت قد استُغلت طهارة المنشأ وبساطة ذلك الجيل الذي عاش في بيئة محدودة، والذي لم يكن قد تعرّف حينذاك على الاتجاهات السّلبية في البلدان الأخرى، خاصة وأنه قد تربىّ في أحضان آباءٍ وأسلاف زرعوا في نشئهم حبّ الفضائل، لربما كان شبابنا اليوم من أسعد شباب العرب وأوفرهم حظا، وخاصة عندما بدأ الحال ينفرج، والإمكانيات تتوفر مع جني مداخيل النفط في مواجهة قلة عدد السكان...

و باستنتاج إحصائي بسيط : فإنه لو كان عدد الشباب (افتراضا) يمثل نسبة 35% حينذاك، قياسا على معدلات النمو فى التركيبة السكانية، وفقا لإحصاء السكان سنة 1964، في ليبيا، والذي بلغ تعداده - 1،700،000 نسمة - لكان عددهم تقريبيا في حدود (600 ،000) فردا من إجمالي عدد السكان، ولا يشكل هذا العدد المتواضع صعوبة في احتوائه و تدبير أسباب حفظه ، ودرء سموم الأفكار الخاطئة عنه، تأسيسا على لين عودهم ، وطيب نشأتهم، وسلامة البيئة التي ترعرعوا فيها، خصوصا وأنه كان بالإمكان توفير كل ما يحتاجونه اعتمادا على تلك الثروة... ولكن الأمر قد أهمل للأسف، ولم يحظ الشأن باهتمامٍ كان إذ ذاك ضروريا،،، حتى استشرى الدّاء، وفات الأوان....؟!. كان التضليل الإعلامي ممّن حولنا، وتسميم الأفكار، والتشجيع على ممارسة العقوق ضد دولتنا، وتزيين ذلك في أنفس الشباب المُستغفَل بتأثير الاستهواء وتزيين الغواية، مصائبا وقعت علينا جهارا، وضربتنا في الصميم،،، عمّدها صمت الاعلام في بلادنا، وقد دخل المسئولون عنه في سُباتٍ عميق، أو كأنهم كانوا أمواتا.

وهكذا،،، طفقت مصابيح الحقيقة والواقعية تنطفئ واحدة تلو أخرى، والكلّ في المتاهة أعشَى، وفي العُتمة يهيم ..! حتى غشينا اليمّ، وأعلنّا العقوق الصريح في وجه بلادنا وسلطاتها الدستورية .

يقول « إيرك دي كاندول» المفوض البريطاني السابق في برقه * في كتابه (الملك إدريس ،، عاهل ليبيا ...حياته وعصره) عن حرب السويس سنة 1956 : (ليس ثمة أي بلد عربي تضرر من

آثار أزمة السويس بقدر ما تأثرت ليبيا حيث أضحت حكومتها هدفا مباشرا للسخط المصري بسبب تحالفها مع بريطانيا ، وانهال من إذاعة القاهرة سيل جارف من الشتائم والدعايات المغرضة التي زعمت أن القوات البريطانية هاجمت السويس انطلاقا من قواعد ليبية ، مما أدى إلى إثارة قلاقل في طرابلس وبنغازي لم يكن من السهل تهدئتها ، والحقيقة أن الحكومة الليبية قد بادرت إلى اتخاذ خطوات فورية لضمان عدم اشتراك القوات البريطانية بليبيا في حرب السويس، كما أن السفير المصري أحيط علما بتلك الإجراءات في حينها ، ولكن على غير جدوى لوقف الحملة الإعلامية المصرية. وكانت التصرفات الرّعناء التي قام بها بعض الرسميين المصريين العاملين في ليبيا آنذاك تمثل خرقا سافرا لكل القواعد المتعارف عليها في السلوك الدولي ، فهم فعلوا كل شيء عدا الغزو المسلح، لحمل السلطات الليبية على قطع العلاقات مع بريطانيا ومهاجمة القواعد البريطانية، وكان الملحق العسكري المصري [من مكتبه بسفارة مصر في طرابلس] يقوم بتوزيع الأسلحة والذخائر على بعض العناصر المخربة، غير أن رئيس الوزراء « بن حليم » عالج الأزمة بجراءة ومهارة، فحين علم بالموضوع، طلب من السفير المصري سحب الملحق العسكري وإعادته إلى مصر فورا. وتعلّل السفير بأن الملحق العسكري يتلقى أوامره من وزارة الدفاع المصرية رأسا، فطلب تقديم مذكرة احتجاج رسمية بالخصوص، وبعد فترة قصيرة من تسليم المذكرة تم استدعاء الملحق العسكري المصري إلى بلاده ، كما تقدم الرئيس « عبدالناصر » باعتذار رسمي إلى « الملك إدريس » ، ولكن سبق السيف العذل ، فقد ضُلّل الشاب إلى حد الاعتقاد بأن قادة بلادهم خانوا القضية العربية).

منقول من كتاب (الملك إدريس عاهل ليبيا،، حياته وعصره) المؤلف« إيرك دي كاندول» ترجمة: محمد حسين القزيري الصفحتان : (209 و 210)

لقد ساقتنا تلك (الرومانسية القومية) في سذاجة مطلقة ـ غير متبصرة ـ حتى صدّقنا ما كان يُذاع، وانكبَبْنا على ما كان يُكتب أو ينشر...وبالتالي استلقف الكثير من أفراد جيلنا، طرح الأحزاب السياسية التي وجدت في الفراغ الفسيح بأوطاننا بيئة مناسبة لإنبات أفكارها، وسرعة نموّها، فغطّت سحاباتها سماءنا الواسعة الخالية لنشر أية ثقافة ...

ولا شك، في أن « عبد الونيس » قد نال جرعة قومية قوية كباقي شباب جيله، في حيّز واسع للأماني يفوق المعطيات أحيانا، وما لبث أن دخل كالآخرين تحت إحدى العباءات الحزبية السياسية، والتي جلب أفكارها ومهّد لها البعض من الطلبة الدارسين بالخارج، أو من بعض المدرسين في البعثات التعليمية العاملة بليبيا، أو من بعض الأعضاء في الهيئات الدبلوماسية في بعض السفارات، ولقد عرفت تلك الحقبة انتشار ثلاثة أحزاب معينة، غطّى انتشارها بين الشباب في الغالب عما سواها وهي : حزب البعث و حزب القوميين العرب (الذ ي انضم إليه عبد الونيس) و جماعة الإخوان المسلمين .... و فيما عدا هذه الثلاثة، فلم تكن ثمة أحزاب ذات فاعلية تذكر سوى بعض الإرهاصات المحدودة والقليلة للأحزاب الشيوعية جاءنا بها بعض المدرسين والموظفين القادمين من الشام ، ولكنها كانت في إطار ضيق ومحدود ...

كل تلك الأحزاب، و على اختلاف ظروف نشأتها ومشارب قادتها وأماكن ظهورها، تعزِفُ على وترين حسّاسين في الأفئدة وهما: استرجاع فلسطين المنهوبة، وقيام الوحدة العربية ،،، ولكن المحصّلة الحقيقية التي اتضحت فيما بعد، أن تلك الأحزاب وأطروحاتها لم تستطع أن تحقق شيئا من تلك المعزوفة، فلا رجعت فلسطين السليبة، ولا تحققت الوحدة المنشودة،،، بل مُنيت تلك الأحزاب مع الزمن بفشل ذريع في أن تحقق شيئا للقومية العربية، أو أن تخدم قضاياها أو تحقق شيئا من أمانيها...

يقول الكاتب الدكتور « السيد ولد أباه»* في مقال بعنوان صراع الهويّات في العالم العربي: (لم تنجح القومية العربية في تأسيس مجتمع سياسي متساوٍ، وظلت المرجعية القومية مجرد واجهة ايدولوجية فاقدة لأي هندسة سياسية موضوعية، وأعادت المجتمعات إلى هويّتها الأهلية المتصادمة)

بل إن النتائج العكسية لعملها أدّى إلى تشظّيها وانقسامها على نفسها كما حصل لحزب القوميين العرب بالانقسام بين المعتدل واليساري، وكذلك حزب البعث (القطري والقومي)....الخ.

---

* مقال السيد ولد أباه (صراع الهويات في الوطن العربي) نشر في صحيفة (الاتحاد) الخليجية بتاريخ 2017/2/13

و قد ثبت مع الزمن و مستجداته، أنها كانت في المجمل، مجرد أفكار طوباوية لم تتطور، لقد نمّت كجنين غير مكتمل في رحم الخيال ، بينما كان للناس وواقعهم شأنا آخرا مختلفا،، وبالتالي لم تصمد قدرات وفاعلية ربابنتها في مجابهة العواصف الهوج فهوت بأمانيها،،، و لكن هذه النتائج لم تظهر إلا بعد اكتمال سيناريو الأحداث، وحيث بان الأمر جليًّا بعد ذلك بزمن طويل.

وعلى أية حال، فقد كان الانضمام للأحزاب - وفق مفهوم ذلك العصر و أحداثه - دليلا على النضوج الفكري والاتساع الثقافي، حسب ما كان يُظنّ بأن من كانت تضمّه دواوينها حينذاك، يعتبر من الواضعين لأساس قيَم الحداثة والتطور، ونشره في المجتمع ....

هكذا،،، كان الانطباع العام في ذلك الوقت، وهو ما وجدناه فيما بعد، مجرد بساطة أو سذاجة، استفتح بها جيلنا أولى الخطوات في مشوار السياسة.

وفي ذلك الزمان، - ولانعدام الاستخلاص من التجارب - شاب حيّزٌ رماديّ مفهوم الانقلاب العسكري ليُعَدّ بمنزلة « الثورة »، فحجبت تلك الرّمادية حقيقته ومثالب نتائجه على الأمة ومقدراتها وتطورها و مستقبل أجيالها ،، وقد غاب عن أذهان الجميع أن لا حرية للوطن ، ولا معنى لرفع شعار القومية ، ولن تتوحد الشعوب ولن تتحقق الأماني، قبل أن يكون المواطن نفسه حرا... وأنّى له أن يكون حرّا تحت حُكم وأحكام عسكرية....؟! و على العموم، فإن الوقت لم يطل حتى بانت ماهيّة الأمور، وما هي إلا أعوام قلائل حتى تجلّت شمس الحقائق، وشرب الكلّ من كأس سلسلة النّكبات المتوالية التي حلّت بأوطاننا للأسف ، لاحقة بما سبقها بضياع فلسطين، وما تبعها بعد ذلك من معارك خاسرة في سيناء، والجولان، والقدس والضفة، ثم احتلال جنوب لبنان، وفاجعة المذلّة في وادي الدّوم ... الخ مسلسل عنتريات قادة الخسران، وبطولات الزّيف والإعلام المضلل، عندما قفز المغامرون (أنصاف المتعلمين) إلى سُدد الحكم، ومعظمهم من عسكريين لا يفقهون حتى في العلوم العسكرية، ولا علاقة تربطهم بها سوى مظهر البدل الرسمية .

يقول « فاروق الشرع » وزير الخارجية السوري الأسبق في كتابه (الرواية المفقودة) * واصفا نتائج نكبة حرب 1967، أن إسرائيل قد أكملت احتلال مرتفعات الجولان السورية، والضفة الغربية، والقدس، و شبه جزيرة سيناء المصرية كلها في يومين أو ثلاثة فقط من بدء الحرب، ولكن الإسرائيليين مدّدوها في الإعلان بستة أيام، وسمّوها حرب الأيام الستة كرمزيّة عقائدية، تيمّنا بعقيدة اليهود المعروفة ..!.

---

* كتاب فاروق الشرع
الرواية المفقودة) الصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات سنة 2015.

وفي مواجهة الحال، فقد بدأ الفكر المُغيّب يستيقظ ، وسرعان ما اصطدمت أطياف الثقافة بطغيان تلك الأنظمة المُستحكمة في البلدان، وفي مقدراتها، وفي رقاب عبادها، واتضحت النتيجة التي لم نكن قد تحققنا منها قبلا، وهي أنّ تكوين رصيد ثقافي فاعل، يحقق التحوّل والتطور نحو الأفضل في بلداننا المتخلفة، لا يمكن له أن يتم قبل تصفية الرّاسب الثقافي السلبي، الذي يتجلّى في أوضح صوره عندما يفرض انقلابٌ عسكري نظامَ حكمٍ فوق إرادة المجتمع، وخارج وسائل الخيارات الديمقراطية، والأسس الدستورية ... و مهما ادّعت الأنظمة التي وُلدت خارج رحِم الشّرعية ، ومهما قدّمت نفسها على أنها خادمة للصالح العام، تبقى لها حساباتها الخاصة... ويصبح الهاجس الأكبر الذي يخافه من استولى على السلطة بالقوة، هو مشروع تحول الثورة إلى الدولة...؟! وبالتالي، فإن النوازع والأهواء تغلبُ إعمال العقل وانتهاج الحكمة، فيطغى شرّ الفرد المتحكّم، ويهيمن على الوطن ومقدراته، وما يلبث وهو مُنتشٍ بهوى الشّخصنة أن ينفكّ ارتباطه بالكثير من وشائج الإنسانية، حتى وإن احترقت الأرض وما عليها، و تصبح الديمقراطية بالتالي هي الخاسر الأكبر بالطبع... !! وفي هذا الشأن، تبرز المفارقة الواجب ذكرها، وتحليل مفهومها، وهي أنه لم تكن ثمة وسيلة في ذلك الأوان للتّخلص ممن استولى على الحكم بانقلاب عسكري، لإزاحة نظامه وإرجاع البلاد إلى الحياة الدستورية، إلا بانقلاب عسكري آخر .. فالتغيير في المطلق ، يقع - بديهيا - من خلال طريقتين فقط ولا ثالث لهما:

أ- إما بتناوب السلطة ديمقراطيا من خلال صناديق الاقتراع، (وهذا مطلب بعيد المنال في وجود النظام العسكري في الحكم).
ب-أو باللجوء للقوة لإزاحة من انفرد بالحكم ولا وسيلة تفيد معه سوى القوة، لأنه لا يقبل الحوار الديمقراطي، ولا يذعن لحق الآخرين في التناوب على السلطة...؟! .

فمن استلم الحكم عن غير الأساس الديمقراطي، لا يقبل ظهور المعارضة في وجهه كرمز من رموز الممارسة الديمقراطية، ولا يسمح بوجودها، ولا يتصورها إلا مخالفة لرأيه السّلطوي، وإن ظهرت،، فلن يتردد في أن يجتثّها من أساسها.

فالقوة التي هجمت جائرة على البناء المؤسسي للدولة، و أجرت التغيير خارج أطر الديمقراطية، وعطّلت النظم الدستورية بالقوة، لا تردعها إلا القوة،،، ولا بد أن يتمّ التدبير لذلك الرّدع سرّا بالطبع، إذ ليس أمام المعارضة من سبيل لإعداد محاولة التخلص من الاستبداد إلا بمباشرة نشاطها سرا ...هذه السّرية اللازمة لذلك العمل صارت تعرف بما يسمى: (محاولة).

وحيث أن العمل الذي كان يعتبر محظورا (محاولة الانقلاب)، قد وقع بالفعل بدايةً في تلك (المحاولة الناجحة التي لم تعد تسمى محاولة بعد نجاحها، بل سميت بالثورة)، وقد تجاوز مقترفه حدّ المُحرّم في دائرة حدوثه الأولى، فإنه يسهل تكرار ذات العمل للخلاص منه، باعتبار أن ليس هناك من وسيلة متاحة للتخلص من الوضع فيما يبدو، إلا بانقلاب عسكري آخر - رغم كل

المثالب ـ فلا يقتلع الشّر من جذوره إلا ردّ فعل مشابه، ومضاد له بالقوة، وعند الموازنة بينهما، فإن البادي أظلم بدون شك...؟!.

وهكذا، يصبح الأمر فارضا نفسه ـ منطقيا ـ لذات الغرض، ووفق ثقافة ذلك الزمان. ولكن المفارقة في أن من نجح في الاستيلاء على الحكم، كان قد قام في الأساس بمؤامرة للانقلاب في (محاولة) سرّية أيضا...!، وإنما الفارق في الأمرين : أن نجاح الأولى يسمى فيما بعد (بالثورة) ، يصفق لها الناس وتعترف بها الدول، بينما فشل الثانية يسمى: (مؤامرة بمحاولة انقلابية)، يستحق من خطّط لها وشارك فيها وأيّدها، كل أنواع التنكيل والتعذيب، و يُنعت بالخيانة والتآمر، مهما كان ميزان النّبل، والرغبة الحقيقية في الإصلاح لدى أصحاب تلك (المحاولة الفاشلة)...!.

ثقافة الانقلابات بهدف الاستيلاء على الحكم تلك، ومحاولات الانقلابات ضدها، تكررت في تلك الآونة في مسلسل سمج أفضى في النهاية إلى الاستبداد والتصادم والعنف.

و مما يزيد الأمر سوءا حال اكتشاف محاولة الانقلاب، أن يُعهد بالتصرّف في الشأن إلى جهات أمنية خاصة خارج المؤسسات الضّبطية أو الجهات القضائية، وكذلك الحال فيمن يدير المؤسسات العقابية بعد ذلك، والتي يفترض أن تكون كل اجراءاتها وفقا للقانون والدستور،،، تلك الجهات (الخاصة) لا تحدّ من تصرفاتها سلطة، ولا يحكم عملها وازع انساني ما... فتتعطل بالتالي مبادئ الحقوق العامة، ويضحى المتهم مذنبا، خاطئا وخائنا، بمجرد إن يقع في أيدي تلك الأجهزة، بل ويصبح ـ عمليا ـ في عداد المفقودين..!.

ذلك ، لأن هاجس الخوف الشديد لدى من سبق له أن استولى على الحكم بالقوة ـ عن طريق التآمر والتخطيط السرى ـ عالٍ جدا، و يزيده ذعر التّوجس خشية أن تشرق الشمس على يوم جديد يشهد انقلابا عليه، فيقع بالتالي فريسة لمرض الوهم الدائم من أن أحدا يتآمر عليه لانتزاع السلطة منه.

ولهذا سيقت أفواج المشتبه بهم ـ قبل أن يكونوا متهمين ـ إلى المعتقلات، و استعرت المحاكم الصّورية الخاصة،، ولم يربأ بعض « قضاتها » بأنفسهم من أن يتلوا نصوص أحكام جائرة، وقد صيغت في معظمها مسبقا...

و تلقّفت سراديب السجون المظلمة زهور أعمار الشباب وأمانيهم، و جدّت السّياط في أيدي جلادين لا يعرفون الرحمة، ولا يرقبون إلاً ولا ذمّة،، فما كان مثاليا وطهرانيا وواعدا بالفردوس، سرعان ما يصبح واقعا دمويا، وطريقا معبّدا للجحيم ...!.

وكان « عبد الونيس » ضمن القائمة (مُستضافا..!) بإحداها،،، بل وفي أكثرها بشاعة وهو (سجن الحصان الأسود)، وفي مقام (رفيع) ..لا يُحسد عليه!.

وبالإضافة إلى فظاعة ما لقيه ضحايا تلك السجون من أهوال، على أيدي زبانيةٍ أولي بأسٍ شديد، تم اختيارهم بعناية لتلك المهمة ، فإن رواجف الرّعب اخترقت الجدران أيضا لتطال من كانوا

خارجها، ففقد الناس الإحساس بالأمان في كل أرجاء الوطن، واستوطن الرّعب في الأفئدة،،، وللأسف سيظل ذلك الشعور بالخوف والمهانة ملازمين للإنسان في بلادنا وحتى حين...

ولن أجد قولا معبّرا جامعا وصائبا أقدّم به « عبد الونيس محمود » للقراء بأفضل مما قاله بنفسه عن نفسه في الوصفة السحرية التي استطاع بمفعولها أن يتسامى عن جراحه وآلامه، عندما كان قابعا في ظلمات سجن (الحصان الأسود) لمدة ثمانية عشر عاما ينتظر تنفيذ حكم الإعدام ، منها أحد عشر عاما في زنزانة سجن انفرادي في قبو تحت الأرض، لا يؤنسه فيها إلا الصبر وحب الوطن.

قال فيما كتبه مواسيا لزميله « المقدم موسى أحمد » القابع في زنزانة أخرى ، في رسالة سرية تمكن بشكل ما من تهريبها إليه رغم المراقبة والحذر الشديد، وقد استعار المضمون فيما كتب من الكاتب الأمريكي « ديل كارنيجي »* يقول فيها:

(إذا ألفيت نفسك في ظروف قاهرة سواء كان مرضا عضالا، أو احتمال فقدان عزيز عليك، أو مواجهة إفلاس قريب.. أو أية ضائقة أو كارثة أو مأساة .. إذا ما ادلهمّت عليك الأمور، وأطبقت عليك المحن و الشدائد، فتوقع أسوأ ما يمكن أن يحدث لك، ثم تصرف على أساسه، فإن كل ما يمكن أن يحصل بعد ذلك، ولو في أقصى مداه، سيكون دون ما توقعت، ولن يؤثر فيك على الاطلاق، بل سيمر عليك بردا وسلاما...) *

و يستعين في موضع آخر بمثل فرنسي يقول : (لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ..!)

«عبد الونيس» مخلصٌ لوطنه وأفكاره لدرجة تشبه التطرف ،، و عنيدٌ فيما يعقد العزم عليه، وقد تسرْبَل بإصرار قويّ تمادى فأخذ طابعا مصيريا لا يترك لك أقل ثغرة تلج معها لتُثنيه عن عزمه... لقد كتبتْ دماؤه التي نزفها تحت سياط الجلادين نصوص دستوره الخاص به فيما لا يزيد عن كلمتين اثنتين فقط، هما: الوطن و الكرامة ... وقد ارتوى عقله ظاهرا و باطنا بهذا المفهوم، وحجب عن نفسه كل شيء عداهما، واستغرقت حاضنة الوطن الكبرى كل ذاته الخاصة ، فاختار حاضنة الوطن ونبذ ما عداها، واستعلى عما سواها.. وذلك، معراجُ سُموٍّ تَرُمه أفئدةٌ قليلة جدا، و نادرة.

---

* ديل كارنيجي كاتب أمريكي، مؤلف كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) نشره في لندن سنة 1948 ، والكتاب مجزأ إلى ثلاثين فصلا ، والفقرة المقتبسة في رسالة عبدالونيس تقع في الفصل الثاني بعنوان (كيف تبدد القلق).

و بالتالي فقد بات حصورا ،، منقطعا لحبّ الوطن.

لقد فارق الأهل والصُحب، وحُرم ملذات الدنيا، وأظنه كذلك قد فارق الفرح أيضا، ونهائيا...؟! و قد نمّت بوجدانه بدائلٌ أخرى ذات نزوع وعواطف من نوع مختلف ... لا يشرحها بيان الوصف،،، كأحد المضحّين لأجل الوطن .

عندما التقيته بعد ستة وعشرين عاما قضاها في هجرة الهروب وحيدا ، وقبلها ثمانية عشر عاما في السجن، وجدتني أدقق النظر في ملامح وجهه مليّا وأتساءل مستغربا:

كيف يستطيع بعد كل هذا أن يبتسم ؟... وكيف احتفظ بسلامة ملكات عقله حتى اليوم؟، وكيف لا يزال يذكر عبارات الترحيب والمجاملة والشكر، بالكيفية والكياسة التي استقبلنا بها ؟، فقد ظننت قبل اللقاء أن تلك الاجتماعيات في مفرداتها ومعانيها قد باعدتها عنه الأحداث الجسام والسنوات العجاف...؟!

ولكنه، كان فوق المحن...!

حقا ،، إنّ من لم يشرب من بحر التجربة يموت عطِشاً في صحراء الحياة، فالحياة مدرسة أستاذها الزمان ودروسها التجارب والمعاناة.

يقول ونستون تشرشل:

(الوطن شجرة طيبة لا تنمو إلا في تربة التضحيات،، وتُسقى بالعرق والدَم).

ولا شك في أن ما أكتبه اليوم، لن يوفي الأمر حقه، ولن يُتقن وصف الأحداث كيف ما كانت، لأن سيرة «عبد الونيس » وزملائه الضحايا ـ أحياءاً وأمواتا ـ طويلة ومتشعبة، ومليئة بالإثارة والإعجاب والإشفاق، بل وبالأسى بكل معانيه.

ورغم كل استفسار أو بحثٍ أجريته في السّيرة، فلم أستطع الإلمام إلا بالشيء القليل من وقائعها، مقارنة بحقيقة تفاصيلها، و صعوبة مفاجآتها، وتقادم زمن حدوثها، وتباين مناسباتها.

لقد تنبّه أولئك الرجال (عبد الونيس وزملاؤه) مبكّرا لجنوح الرّاحلة عن المسار السّوي، وتأكد لهم بأن صنّاع القرار قد أخفقوا على الأرض، فكان التّبكير في استنتاجهم سابقا بنأي بعيد عن إدراك مجتمعهم الذي خذلهم ـ للأسف ـ عندما حاولوا تغيير الواقع... ولأن الاتهامات الظالمة أوغرت الصدور الغافلة، فقد صُدّقت ضدهم كل النّعوت بالخيانة والتآمر....؟! في بلدٍ عجزت حواسّه عن الشعور بهم،، وعن التفكير فيما أقدموا عليه من عمل كان إذ ذاك ضروريا، و ذا أهمية بالغة لإنقاذ الوطن قبل أن يُجرّ إلى السّرداب المظلم .. وللأسف لم يُسمع رأيهم، وتُركوا عاجزين عن الخلاص بين أيدي جلاّدين عتاة،،، حتى تواروا وغابوا عن الميدان، أو بالأحرى عن المشاركة بأي نشاط لاحق في صنع المستقبل...! لقد حُشروا تحت (سقف منخفض) ،، أجهدهم و

استهلكهم، فتآكلت أعمارهم،، و حرموا بالتالي، من عيشة سويّة، ومن مشاركة المواطنة في بلادهم.

إن محاولة التغيير (الانقلابية) تلك، كانت صحوة مبكّرة لدى أولئك الرجال، لكن ثمنها كان غاليا جدا، ومن ثم، فقد كان التعذيب والقهر والظلم والوعيد بالموت، شغبا و عبثا بضحايا عجزت أيديهم عن الانفكاك والخلاص،،، وخذلهم الضمير الإنساني في أن يدرأ عنهم ذلك الويل...!

و بالرغم من أن ما أصابهم قد وقع وانتهى، لكن المصيبة ستكون أعظم إن لم يُدوّن في صحائف تاريخ الوطن - إنسانيا على الأقل - ما كان يجري مع أولئك الضحايا في تلك الأقبية المظلمة من السجون،، طوال عقود زمنية عابسة، أو أن تُطمس قصصهم ولن تُروى..!! بل ولن تغفر الإنسانية لمن أشاح بوجهه عن ذاك الواقع، وتناسى تلك الحقبة المريعة....؟!.

نعم،، إن من سنّة الحياة أن يذود البعض بالأرواح قربانا في سبيل الوطن، وهو ديدنها باستمرار وعلى مدى التاريخ،، وكم من رجال ضحّوا في بلادنا خلال ذلك العهد، وأبى أهل الشّيَم أن يكونوا إمّعات أو يستكينوا تُبّعا، فنُصبت المشانق، وعُلقت الأجساد، واغتيل الشرفاء في الظلام سحلاً في السجون ،،،

و لكن العيب؛ هو أن ينسى من يتنعّم بالحرية والاستقرار من بعدهم، فضل تلك التضحيات الجسام، في ذلك القربان الثمين لأجل الوطن...

واليوم،، عندما أدعو القارئ للاطلاع على ما أمكنني أن أحصل عليه وأجمعه وأكتبه، من سيرة « عبد الونيس محمود » في كل تقلبات حياته،،

في محنته ،،

وهجرته ،،

و تضحياته ،،

من خلال وقائع ذلك المنعطف التاريخي، فإنما أصحبه للتعرف على هذا الصّرح المهيب... لكي نرى ما يُسبغه حب الوطن على رجاله الأفذاذ.

لقد قدّم هو ومن معه من رجال ذلك الرّعيل، ومن ارتسموا طريق النضال من بعدهم من رجال حاولوا أيضا كمحاولتهم، ضريبة الانتماء الوطني كاملة...

فهؤلاء كلهم ،،،

قدّموا حياتهم، وأرواحهم ، ومستقبل أُسَرهم فداءاً للوطن.

تمهيد لازم

في مستهل عمر الشباب (فترة الستينات من القرن الماضي)، ومن صديقي وزميل الدراسة الإعدادية « مبارك محمد الأربد » ، سمعت ولأول مرة عن الشاب المثقف ، و الوطني الغيور، المدعو « عبد الونيس محمود سعيد الحاسي»..

و هذه الصفة وحدها، ـ الوطني الغيور ـ كانت كفيلة حينذاك بأن تستأثر على كل ما عداها من محاسن، باعتبار أن الجيل قد تأثّر بقوة في تلك الأيام، بثقافة تحرير الشعوب والانتصار على الاستعمار، والتعطش (الزائد أحيانا) لتحقيق حلم معظم الشباب العربي الموعود المنتظر وهو (الوحدة العربية)،،، و قد استقوى ذلك الشعور الجارف فينا بسبب : سيطرة ما نقرأ ،، واستهواء ما نسمع،، و رومانسية خيال المراهقة.

وقبل أن ألتقيه شخصيا، فإن معرفتي الوصفيّة به عبر الصديق المشترك، قد عزّزت مكانته عندي، واعتبرتُه إنسانا يستحق أن أسعى من جانبي لكي أجتمع به، وأسمع منه، واعتبرت وقتذاك أن اللقاء سيقع حتما، وأن الأمر لا يزيد عن كونه مسألة وقت لا غير ، ثم ستحين الفرصة في مناسبتها، وسنجتمع ويتحقق اللقاء عيانا.

ورسمت الأقدار مسار الاتجاه لكل منا قبل أن نلتقي، فقد دخل «عبد الونيس» الكلية الحربية الملكية، ضمن منتسبي الفوج السادس بها، وأبدى تفوقا ملحوظا في الدراسة، وتخرج بالترتيب الثاني على دفعته، وبالتالي فقد عيّن ضابطا وآمر فصيل بها لتدريس بعض المواد العسكرية، وانشغل كل منا بحياته، ولم يكن قد تيسّر اللقاء بيننا بعد.

وكان أن تعددت التنظيمات السّرية داخل الجيش الليبي تمشيا مع ثقافة ذلك الزمان الذي استشرى فيه خروج العسكر من دائرة التّخصص إلى تعاطي السياسة تأهبا للاستيلاء على الحكم بمسلسلات الانقلابات الشهيرة التي انتشرت في دول العالم الثالث، وكان لدول الشرق الأوسط النصيب الأوفر منها.

وشاءت الأقدار أن يستغل ملازم مغمور (من خريجي الفوج السابع من الكلية العسكرية)، صغير السن ومحدود التعليم ، ولا مقارنة له ولا لتنظيمه مع بقية التنظيمات السرية الأخرى التي تشكلت بالجيش من رتب عسكرية أكبر وأقدم في تكوينها من تنظيمه،، استغل الفرصة عندما لاحت له فجوة فاصلة من بين تلك التنظيمات في ساعة غفلةٍ، وكان توقيتها مناسبا في لحظة هيئتها الأقدار بنسقٍ عجيب،، فوقع الانقلاب في الأول من شهر سبتمبر سنة 1969 م. فكان أن تحقّق ـ بتلك السهولة ـ ما يمكن وصفه بالتعبير البلاغي: بحدوث السهل الممتنع)... كما يقال.

ومبكرا جدا،، لاحظ « عبد الونيس » و نفرٌ قليل معه، حجم الأخطاء والتّخبط الذي أظهرته ممارسة الجسم القيادي الجديد (مجلس قيادة الثورة)، وأن تشكيل المجلس نفسه قد استبعد من كانوا هم المنفذين الفعليين للانقلاب وأساس نجاحه ، إذ لولا إقدام وشجاعة المقدم « موسى أحمد» لما تحقق النجاح الفعلي علي أرض ليبيا في الداخل، ولا أمكن أن يعترف به العالم الخارجي لولا التقديم الذي ظهرت به شخصية المقدم « آدم الحواز»، والذي كان معروفا لدى أهم سفارتين في ليبيا لدولتي: أمريكا وبريطانيا.

كان من الطبيعي أن تُرصد تلك الممارسات الخاطئة، وخاصة تفريغ الجيش من الضباط الأكفاء، والكوادر المتخصصة الذين تمّ تسريحهم وإقصاؤهم عن المشهد، بسبب أن تنظيم (الضباط الأحرار، الذي انبثق منه مجلس قيادة الانقلاب) كان في الإجمال من ذوي الرّتب الصغيرة، وقد دأبوا بالتالي على إبعاد من يعلوهم في الرتب بهدف أن لايوجد بالجيش من يعلوهم رتبا، وتصدّر العمل السياسي في البلاد، وقيادة وإدارة شئونها ضباط صغار في السّن، تنقصهم أهم أربع مقومات لنجاح ثورتهم وهي: المؤهلات العلمية، والحنكة السياسية، والخبرة العملية، والخطة المسبقة لإدارة البلاد بعد نجاح الانقلاب...

وبالتالي، فإن «عبد الونيس » لم يسكت عما كان يراه، وصار نقده لمجريات الأمور علنا،،، وكان لابد - في تلك البيئة التي تحيط به - أن يكون للجدران آذانٌ كما يقولون، علاوة على أن شخصيته العسكرية المميزة، ومستوى ثقافته، يفرضان أن يجعل له الآخر حسابا، سواء الماسك بالسلطة في وقته، أو البديل الذي ينازعه عليها، ذلك المتربّص بانتظار اللحظة المناسبة لقلب النظام،، فكان أن انطبق عليه المثل العربي الشهير في بيئتنا الذي يقول (الجَمل قتلهُ حِسّه... !)

ووفقا لهذا الوضع ، فقد كان المتوقع - الحتمي - لعبد الونيس : إما أن يختلق له الأول سببا للخلاص منه بسبب تميّزه، أو أن يستقطبه الثاني للاشتراك في محاولته ضد الأول، (وهذا ما حصل بالفعل كما ستأتي تفاصيله فيما بعد)، وبالتالي سيعتبره الأول متآمرا عليه،،، وكلا الاتجاهين لا محالة مُهلك... !، و كلاهما يضعانه أمام ما يُعرّفه المناطقة بمصطلح (قياس الإحراج) أي إقحام المرء للاختيار بين أمرين كلاهما لا يسرّه!.

و كان من الطبيعي إذاً، أن يتصدّر اسمه قائمة المقبوض عليهم في مدينة بنغازي صبيحة يوم السابع من ديسمبر 1969 في المحاولة الانقلابية الأولى من ذلك المسلسل لمحاولات الانقلاب العديدة، والتي ما انفكّت تقع بعد ذلك من حين إلى آخر، و راح ضحيتها الكثيرون من أبناء الوطن.

يذكر الكاتب الدكتور فتحي الفاضلي في كتابه : (أوسمة على صدر الوطن ، من ضحايا الإرهاب في ليبيا) ترجمة دار الفرجاني في صفحة 321 : أنه قد (اعتُقل على خلفية هذه المحاولة، خيرة ضباط القوات المسلحة الليبية، نذكر منهم المقدم «آدم الحواز» والمقدم «موسى أحمد» ، والرائد «الهادي بالقاسم الرابطي»، والنقيب « عمر محمد الواحدي»، والنقيب « عبدالونيس محمود

الحاسي» والعميد «سليم الحجاجي»، والرائد« محمد فرج التومي»، والرائد «آدم الحاسي»، والرائد«محمد علي الفيتوري»، والملازم «خليفة عبدالله الدرسي »، والنقيب « مفتاح أحمد الشارف » وأسماء عديدة أخرى).

ومن اشتباهٍ،،، إلى تهمةٍ،،، إلى تعذيب شنيع كي يعترف مُرغما بما نُسب إليه،،، إلى نقلٍ لسجن الحصاد الأسود في طرابلس،،، إلى حكمٍ أوليّ بالحبس لمدة ثلاثة عشر عاما،، ثم إلى نقض الحكم واستبداله بحكم الإعدام بالرصاص،،،

و هكذا فُتحت عليه النيران من كل جانب...!

وبالتالي، تم أيداعه في السجن الانفرادي في انتظار تنفيذ حكم الإعدام لمدة أحد عشر عاما بمفرده وفي عزلة تامة عن أي بشر آخر، و فوقها سبع سنوات أخر، قضاها مع محكومين بالإعدام مثله، وبأعجوبة نجا من الموت، وأطلق سراحه في 1988/3/3 بعد ثمانية عشر عاما وثلاثة أشهر من تاريخ اعتقاله.

وقبيل الخروج من السجن جرى إعداد فبركة إعلامية على عجل، مؤداها أن تُجرى مقابلة تليفزيونية مع بعضٍ ممن تم اختيارهم من بين المفرج عنهم، وقد كان من بين المختارين من تلك المجموعة « عبد الونيس »، لكن طابع الأسئلة التي صاغها المذيع «الهادي امبيرش » كانت تستهدف أن تكون إجاباتها مديحا للنظام،،، وبالطبع فإن تلك الصيغة قد استفزّت «عبد الونيس » فلم يشأ أن يجيب عنها ، وجرت مشادّة بهذا الخصوص، فرفض المشاركة في المقابلة ، الأمر الذي أقدم معه « خليفه أحنيش » - رئيس لجنة خروج السجناء - بإلغاء فكرة المقابلة نهائيا.

أثناء خروج السجناء بعد مسرحية هدم السور الخارجي للسجن، وعند اقتراب «عبد الونيس» من تخطي انقاض السور المهدوم نحو الخارج، كان «معمر القذافي » يعتلي مقدمة الجاروف (البلدوزر) ويقول للسجناء: (قد ظلمتم أنفسكم و ظلمتمونا معكم)،،،

فرد عليه عبد الونيس قائلا: لا ،،، بل أنتم الذين ظلمتمونا، أما نحن فلم نظلم أحدا...!

وكانت فرصتي أن أراه عيانا واختلط به لأول مرة في حياتي بمناسبة التهنئة على خروجه من السجن، فاتصلت بالصديق المشترك « مبارك محمد الأربد » الذي كان قد عرّفني قديما باسم «عبد الونيس » منذ زمن طويل مضى،،، ليرتب لنا اللقاء المنتظر وليقدمني له مباشرة،،، وقد رافقني يومها شقيقي (صالح) من محل إقامتنا في مدينة (درنه) حيث التقينا به في محل سكنى عائلته بمنطقة الصفصاف، إحدى قرى الجبل الأخضر.

وقد فوجئت بمنظره في الوهلة الأولى،، عندما رأيت هيكل جسم نحيف يغطيه اصفرارٌ غالب، و يرسم الجفاف على الجلد شحوبا عامّا يظهر من خلاله توزيع عروق اليدين بوضوح وكأنهما لم

يتكوّنا إلا من عظم وجلد وشبكة عروق فقط، ولا شيء ينمّ عن حيوية ظاهرة في جسمه، سوى عينين لامعتين يترجمان قوة إدراك ملحوظ، رغم إنهاك الجسم وجفافه.

لقد كان الوقت محدودا، والجلسة تضمّ آخرين من مستويات مختلفة، فلم يكن الوضع مناسبا للبحث في أي موضوع، فكان أن انحصر الكلام في عبارات التهنئة والترحيب....الخ، لكنني أحسست أن لديه ما كان يودّ أن يقوله لي، ومن ناحيتي فقد كنت تواقا أيضا للحديث معه في أمور كثيرة،،، لكن المقام حجب المقال .

وعندما نهضنا للخروج، صاحبنا إلى خارج البيت للتوديع، فسألته عن صحته... ؟ فاقترب مني ليقول: الحال كما ترى، وأضاف مُسِرًّا إليّ،، و باستغراب :

(تصور أن أخوتي يطلبون مني أن أوافق على فكرة زواجي ،، وهم لا يعلمون أن السجن قد عوّدني على بؤس الوحدة، وسلبني التطلع إلى أي بهجة !).

و كنا قبل الوداع ؛ قد اتفقنا على أن نرتّب موعدا آخرا قريبا ـ توقعنا أن سيكون في حدود أسبوعين أو ثلاثة من ذلك اليوم ـ لكي نتكلم فيه وحدنا بحرية، ولكن شاء الله أن يتأجل ذلك الموعد الذي كان مزمعا أن يكون قريبا في تلك الآونة، من أواخر شهر مارس 1988 ، إلى يوم الأربعاء الموافق 2015/10/28 ، أي بعد سبع وعشرين سنة وسبعة أشهر كاملة...!

فالواقع أن «عبد الونيس » قد اكتشف أنه خرج من سجنه الخاص إلى سجن أكبر، وأن الوطن قد تحوّل من بعده إلى سجن عام للأمة بحالها،،، وأن من بين أهل منطقته ـ كما حذّره «خليفه احتيش» رئيس لجنة الإفراج عن المساجين قبيل مغادرته السجن ـ من سيكون مُخبرا عنه بعد إطلاق سراحه فيتتبعه، و يتنصّت أقواله ويرصد خطاه أينما حلّ،، ومن المؤكد أنه قد أدرك بداهة، أن ذلك النظام الأهوج سيبقى له بالمرصاد مرة أخرى للنيل منه في اتهام مشابه، كما حصل معه في المرّة الأولى، مالم يقبل أن يتعاطى مع ممارساته برضى النفاق، فيسقط كما سقط الآخرون بما ظهروا به كما رأيناهم بعد ذلك في المؤتمرات، وفي مسيرات التأييد، وتقديم ولاءات المبايعة... وبالتالي فلم يكن أمامه من خيار يريح ضميره، ويحافظ على الطهارة الوطنية، إلا أن يركب الصّعب، ويضحي بباقي أيامه كما ضحّى بباكورة شبابه، خاصة وأنه قد عاهد نفسه على ألا يلتقي النّفاقي، ولا يصالحه ، ولا يمدّ يده إلى نظامه للحصول على شيء منه ،،، فمثله لا يُشترى..!

يقول الكاتب المفكر «صادق النيهوم» :

(إنا كنت تنام على الرصيف، فالثّراء في الداخل في عالمك المتعالي الذى لا مجد مثله، ولا قوة مثله، ولا بساطة مثله .. أنت جزء من الأصل المتناهي الكمال،، أنت لا تخسر شيئا لأنك غير قابل للخسارة، وغير قابل للهزيمة)، و يقول :

(إن لم يكن في داخلك الله فسوف ترى أنك رخيص.. وأن السلطان يستطيع أن يشتريك بملء منخرك فضة،،، ولكن إذا كان الله حقا في داخلك فمن يستطيع أن يشتريك ... لذا مات الحلاّج لأنه كان باهظ الثمن إلى حدّ لا يصدق) *.

وعندما أدرك «عبد الونيس» أن البلاد في وجود هذا النظام لن يتحقق فيها نماء، ولا تطور في الأفكار أوالثقافة ، وأن الفكر الأُحاديّ وحده قد تصدّر واستعلى وبالغ في معاداة معارضيه، حتى أصبح الخلاف مع من يعارضه (خلافا وجوديًا، وليس سياسيا)، وأن النظام الدكتاتوري قد استلّ نداوة الحياة من عروق المجتمع....هناك قرر أن يرحل، و أن يتوارى عن الأنظار تماما.

لترادف هذه المعطيات في ذهنه، بالإضافة إلى ما سبقها من وقائع مريرة في سجنه، فقد أجرى مع نفسه معادلة حاسمة فيما أظن، وكان لا بد وأن يُعمل عقله بدقة واجتهاد، وأتخيّله في النهاية قد استخلص مع ذاته نتيجة التحليل فوجدها كالآتي:

- بالسجن كان الموت قريبا جدا منه، و كان الخلاص مستحيلا، لكنه نجا بأعجوبة،، ووهبت له الحياة من جديد على أية حال.

- بعد خروجه من السجن كان شبح الموت أبعد، ولكن العيش مع وجود النظام بالبلاد سيوجهه إجبارا مع أحد اتجاهين لا ثالث لهما: فإما أن يُلوّث تاريخه بالانجرار في مهاوي الممارسات الآثمة ـ مسيرات التأييد ، وصحائف المبايعة، وتحالفات المصالح.....الخ ـ أو أن يستمر في معاداته للنظام وهو داخل البلاد، وسيكون النّيل منه عند ذاك سهلا، وسيرجع بالتالي إلى المربع الأول، ولكن... في هذه المرة سيكون الموت مؤكدا، والخلاص منه أكثر استحالة.

- أما الخطوة الثالثة ـ وهي النتيجة الوحيدة الحاسمة في المعادلة ـ فهي القفز خارج إطار ذلك الحيّز ذي الخيارات الإجبارية، وعليه إذاً أن يهاجر... ويبتعد إلى حيّز آخر، فتصبح فرصة النجاة أكثر إمكانا ، والابتعاد عن السقوط في مستنقعات النظام أقرب ضمانا.

---

* فقرات مختارة من كتابات المفكر صادق النيهوم نشرت من قبل الأستاذ « سعيد العريبي» على الموقع الكتروني (ليبيا المستقبل) بعنوان (الصادق النيهوم إنسانا وأديبا ومفكرا كبيرا) بتاريخ 2015/12/16.

راودته فكرة الخروج أول مرة، في ليلةٍ قرر فيها أن يبيت خارج منزل أخيه مستمتعا بليل صيفٍ رائق ،، وجاء انفراده في تلك الليلة بولادة قراره الحاسم بأن يترك البلاد ويفارق ما حوله، ويضع رجله في مسار الغربة إلى جهة لم تُبيّن، وإلى أمدٍ لم يُحدّد. توصّل إلى قرار الهجرة وقتذاك وحيدا، كما كانت معظم وقائع حياته منفردا بها وحيدا.

وقد روى الأمر فيما كتب عن وحدته في تلك الليلة الصيفية، وكأنه يتكلم عن شخص آخر يتحدث عنه بقلمه، في أسلوب وتصوير وثراء لغة راقٍ، ويُعتبر ما كتبه في ذلك الشأن من أجمل ما يُقرأ فعلا ،،، يقول فيما كتب:

(وهناك وسط السكون المغلف بالظلام ، راح يجتسّ بعينيه نجمة تائهة في أبعاد السّديم الخرافية.. ثم طفق يحدث نفسه:

حين تتعقد الألسنة من الخوف، ويهمس الناطق بالحق ، وتنطفئ الحروف المتوهجة في أقلام المبدعين، وتذوي أزاهير الفن الفوّاحة بالعبير في انكسار ووجوم، وتتوقف السنابل السّخية عن العطاء من سنوات القحط الجاف.. وتُنصب المشانق الوحشية للواعدين بالمطر والبيادر والمدن الدافئة، وتُضرم المحارق الهمجية للكلمات المبهجة في بطون الكتب، وتهاجر النوارس الناصعة البياض من قسوة الصقيع، وتموت القبرات المدهشة من شدة القيظ، وتجفّ الجداول الخضراء في غياب مواسم الهطول، وتتلاشى أماني الأطفال المجنّحة في سيل الدموع.. ويختفي عشاق الشمس والضوء في أقبية الجحيم، ويضيع الحب في طوفان الأحقاد.. و يتساوى الحزن والفرح في النفوس المعذبة، وتنكسف الشمس.. وينمحق القمر.. ويزحف الليل .. وينصاع الجميع لأمر السلطان.. إذ ذاك بالضبط يصبح الوطن مجرد منفى ، ويغدو الانسان فيه غريبا إلى حد فاجع..!

وحين صمت صار حزنه بحجم مدينة أسطورية، وظل ساهرا عبر سواد الليل الحالك، وقبل أن يغالبه النوم كان الرجل قد اتخذ قراره الحاسم، وبعد ثلاثة أيام ليس غير، ودون أن يعلم بقراره أحد.. طار الرجل في سماء الله الواسعة مثل نورس يتيم تعود على الرحيل وحيدا في مواسم الهجرة الأبدية). *

وهكذا،،، عقد العزم على الخروج من وطن يحكمه نظام كان هكذا حاله... غير أنه أسرّ الفكرة في نفسه ولم يبدها لأي مخلوق، وقد اختلق عذرا للسفر خارج البلاد بنيّة العلاج.

و في ساعة مبكرة من صبيحة يوم 1988/9/14، ارتفعت به الطائرة عن الأرض، مفارقا الوطن والأهل، نحو مستقبل مجهول، وإلى أجل غير معلوم...

---

* من مذكرات «عبدالونيس» الخاصة.

وما إن حطّ رجله بأرض الاغتراب حتى اختفى وتوارى عن كل ما له علاقة بالبلاد وأهلها، وانفصل كلية حتى عن أسرته، لكي لا يكون سببا في مساءلة النظام لأفرادها عندما يُكتشف مكانه، لقد أصرّ على الفكرة وطبقها محتملا وصابرا، بل وعنيدا أيضا، واحتمل الغربة بوحدته وآلامه، وفي اعتلال صحته ومعاناة عيشة الكفاف طيلة هذه المدة، ، فلم يضعف يوما ولم يسمح للعواطف أن تخذله ...

يقول المرحوم «عبدالحميد البكوش » * رئيس وزراء ليبيا الأسبق في رسالة وجهها إلى رئيس مجلس الأمن بعنوان « حال ليبيا » : (لقد شوّه القذافي كل شيء جميل فينا، فقدنا لمسة الحسّ فينا بعد أن هدم الإنسان في داخلنا، وستروننا إذا بحثتم عنا في داخل ليبيا أوخارجها بشرا يفتقرون للأمن وطيب العيش، وستجدوننا على سلالم الطائرات وفي مطارات العالم وترونا على الدوام نلتفت حولنا، بعضنا يلتفت خوفا من الاغتيال والبعض الآخر يلتفت بحثا عمّن يغتال).

وقد يتسرّع من يظن؛ أن «عبد الونيس» قد ابتعد عن الخطر بهروبه من الوطن ، وأمِن على نفسه من شرّ السلطة وارتاح ، لكن الواقع يعكس الأمر بأسوأ مما كان عليه الحال في السجن ، ففي السجن ومن مكانه المقيّد والمحدد، كان ينتظر الموت طيلة الثمانية عشر عاما من خلال باب واحد، يدخل منه سجّان معروف لديه، يستدعيه حينما تزف الساعة و يقتاده لتنفيذ حكم الإعدام،،، لكن الأمر على النقيض من ذلك في ساحات الهروب الواسعة ، إذ يتوقع في أي وقت أن تصطاده فرق التّصفيات الجسدية التي بثّها النظام في كل الأرجاء لاغتيال معارضيه، فالقاتل قد يكون متربّصا في زقاق أمامه أو من خلفه، أو جالسا بجانبه وهو لا يدري، وبالتالي فإن عيش الانسان مع هواجس الشك وظنون التوقّعات في مساحات واسعة كلما اجتاز واحدة بسلام ظن السوء بالثانية، أصعب وأمرّ عليه من أن يكون في حيّز مغلق وقد استسلم للواقع ، وارتاح من ثقل الظنون ومن توقع المجهول.

وانتقلت والدته إلى رحمة الله سنة 1994 من بعده ولم يكن يعلم بذلك، وللأسف فإن عبارة فالتة مني أنا دون قصد هي التي علم من خلالها بنبأ وفاتها ضمن مضمون رسالة مطوّلة بعثتها له سنة 2012، عندما استهديتُ إلى مكانه بعدما أعلن عن ظهوره عقب ثورة 17 فبراير، أي أن مدة ثمانية عشر عاما مضت بعد وفاة أمه، ولم يكن يعلم بذلك نتيجة احتجابه الكامل عن كل من يعرفه، ومكوثه بعيدا عن وطنه وأسرته وعدم اتصاله بهم حتى اندلعت الثورة، وانهار النظام ، وزالت أيامه....

رسالة المرحوم الأستاذ عبدالحميد البكوش عن (حال ليبيا) وجهها إلى رئيس مجلس الأمن بتاريخ 4 يوليه سنة 1992 ، وعمّمها عربيا ودوليا.

لقد تبدّلت الأوضاع ، وغيّرت الأحداث المشهد ،، ورجع المهاجر..

غادر الوطن بتاريخ 1988/9/14 ورجع إليه بتاريخ 2014/2/24 م... رجع بعد أن انصرم من العمر ما يربو على الأربعة وأربعين عاما، حرم خلالها من رؤية أهله، ومن العيش معهم،،، (خمس وعشرون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام) تائها ومختبئاً في الغربة.. ومن قبلها،، (ثمانية عشر عاما وثلاثة أشهر بسجن الحصان الأسود).

ولكن الفارق بين الأمرين : أنه قد خرج من قبو الزنزانة الانفرادية، ومن سجن الحصان الأسود، واستكمل بعدهما سنوات الغربة في الهجرة ، ثم رجع في الأخير إلى أحضان الوطن سالما بعد انتظار الموت في أية لحظة في بلاده وخارجها ، طيلة هذا الزمن ..! أما قائد ذلك النظام فقد أخرج من الماسورة الضيّقة التي اختبأ فيها بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ثم شهد العالم كله ما قد لحق به من إهانات قبل أن يقتل، وكيف عُرضت جثته عارية للناظرين، ومن ثم فقد ردم جثمانه في مجهول جزء من الصحراء.

ولا شك أن الابتلاء بحب السلطة كثيرا ما يوهم الإنسان بالزخرف غرورا،،

فيا خيبة المرء إن ساقه الوهمُ ...!.

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

إذا الظالمّ استحسن الظلم مذهباً	و لجَّ عُتـوًّا في قبيح اكتسـابِه
فَكِلْهُ إلى صرفِ الليـــالي فإنهـا	ستدعي له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينـــا ظالمـــا متمــرّدا	يرى النّجم تيهاً تحت ظلِّ ركابه
فعما قليلٍ ،، وهو في غفـلاتِه	أناختْ صروفُ العاتياتِ ببابه
فأصبح لا مالَ ولا جـاهَ يرْتجـي	ولا حسنـات تلتقي في كتـابه
و جُوزيَ بالأمـرِ الذي كان فاعلا	وصبّ عليه الله سـوطَ عذابِه.

فالتاريخ الناصع يُكتب بفعل الأبيّ المنتصر، ولا ينصع بأفعال من طغى وتجبّر.

لقد انتصر «عبد الونيس» مرتين: في الأولى لم يذهب السجن بعقله ولم يختل توازنه، ولم يقبل أن يوقّع على صكوك إعلان التوبة، أو أن يستجدي منهم العفو رغم ويلات السجن،، وفي الثانية ـ بعد إطلاق سراحه ـ لم يضعف أمام العتاة ، ولم يطمع فيما يلوّحون به من الطّعم ، لقد آثر الاغتراب بعفّةٍ من بعد سجن مرير، والتحم صبره في الأولى، مع كماله بالأخرى، لتظل هامته مرفوعة... ولم تكن ثمة طريقة أخرى يخرج بها حيا من جديد، سوى أن يمرّ مع مضيق الوحدة، واليتم

الإجباري، والعزلة، وضنك العيش في الغربة لأكثر من ربع قرن من الزمان... وقد اجتاز كل ذاك الصعب فعلا بثبات و بامتياز،،، لقد انتزع الابتهاج من رحم البكاء كما يقولون... !.

وهكذا،، وبعد ستٍّ وعشرين سنة أمكنني أن ألتقيه للمرة الثانية في حياتنا كلها، ولكن هذه المرة لم تتحقق إلا بعد أن تجاوزنا « هو، وأنا » أعتاب السبعين من العمر....!!

و بعد هذا الزمن الطويل،، جلسنا مرة أخرى في بيت العائلة.

لقد عاد إلى نفس المكان،،، ولكن في غير الزمان.

و ألفيتني أرى في شخصه رمزا للوطنية وعشيقا مخلصا لها، ماثلا أمامي في صورة إنسانٍ قد ضعُف جسده، وقلّ نظره، لكن حضور الذاكرة، وحسن اختيار الكلمة ودقة التعبير، والكياسة والمودّة، لا زالت كلها حاضرة لديه، وبقوة... يقول الشاعر:

وما المصائب إذ يُرمى الرجال بها بقاتلاتٍ إذا الأخلاق لم تُصَبِ..!

قصدتُ أن أخصص ذلك اللقاء لأن أسمع منه، وأن أحرص على ألا أنسى شيئا مما يقول، و تراءت لي ساعتها كل عذاباته وسجنه وغربته، و تضحيته بحياته الشخصية والصحية والأسرية وانعزاله القهري عن مجتمعه، و قد مرّ بخاطري شيئا مما قرأته سابقا من كتابته عن نفسه في الغربة وهو يقول :

(إذا عرفتم أن المدة الطويلة في السجن، التهمت الصحة وحطّمت القوة والقدرة، وعصفت بكل ما كنت أملك في حياتي من أمل وطموح... إذا عرفتم هذا كله أدركتكم مدى الضرر الذي أصابني وحجم ما لحق بي من خسارة وضياع وفقدان، كما سيكون بوسعكم أن تتصوروا حجم المعاناة النفسية التي أعيشها في المنفى باليونان بعيدا عن وطني ووحيدا بلا عائلة ولا أقارب ولا أصدقاء، وكذلك بلا ماض ولا مستقبل، فإذا نظرت ورائي رأيت أشلاء شبابي ممزقة.. وإذا نظرت أمامي رأيت شبح الشيخوخة المخيف القادم،، حيث الهرم والمرض والعجز، وقد أكون وقتها ما زلت بلا وطن ولامأوى... خاصة وأنا لا أملك شيئا أواجه به المستقبل الغامض الذي ينتظرني،،، إن مثلي اليوم كرجل غريب رمته الأقدار في طريق مجهول، ثم راح ينتظر على قارعة الطريق، لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد، فلا الذاهبون أصدقاؤه كي يمضي معهم، ولا القادمون أعداؤه كي يهرب منهم، لكنه ينتظر و ينتظر، ولا ينتظر إلا المجهول نفسه... أشعر بالحزن والأسى إلى حد يفوق التصور).

كل هذا، مرّ بخاطري وأنا أستمع إليه وأراه أمامي مباشرة...

فبعد كل هذا الاغتراب والعذاب، أراه اليوم أمامي مباشرة يجسد نموذجا حيّا و فاعلا، لكمال الضمائر المترعة بالإخلاص للأوطان، والرّاسخة في عُلاها عندما تصارع الطغيان، وتأبى الخضوع مهما لاقت، ومهما كان حجم التضحية، وطول الأمد ...

لقد شدّني استرساله في الحديث إليّ شدا كثيرا، بينما كان يحدد مجمل استخلاصه من تجربة كفاحه وغربته ومقارنته للأزمان والأحداث والأشخاص.

استمعت إليه باستغراق كامل،، وقد استنفرت كل قدراتي الذهنية لكي أتابع وأركز على ما يقول،، لأعرف ما ألمّ بهذا الرجل، وكيف كان حجم معاناته وما قاساه ... و اجتاح خاطري الكثير من الأسى عندما تصورت كل الأهوال التي عاشها، ووجدتني أنفعل بشدة ،،، وهناك، تغلب ضعفي على الثبات،،، وبدون رغبة مني وخارج تحكّم السيطرة، أرسلت عيناي الدموع...

لقد انسابت مترجمة لامتزاج ما في الوجدان مما تصوّرته في معاناته ومأساة عمره، مع إجلالٍ شديد لحبّ هذا الرجل لبلاده و إخلاصه لها.

ساعتها،، راودتني فكرة الكتابة عنه، وتمنّيتها بشراهة...

و لكني - رغم حماستي الجارفة - لم أفاتحه في تلك الجلسة بشأن رغبتي في الكتابة عنه لعدة اعتبارات منها:

1- حتى ذلك اللقاء، فإن الرجل لم يكن قد تعرّف عليّ بدرجة كافية لكي يفتح صدره، ويسمح لي بمعرفة ما عنده.

2- لعله أراد أن ينفرد بالكتابة عن تجربته نفسه ، أو ربما كان قد عهد إلى شخص آخر بالكتابة عنه قبل أن ألقاه.

3- زخم الأحداث التي عاشها، وتنوع المواضيع وطول المدة في الحرمان والبؤس سواء داخل البلاد أو خارجها ربما تكون قد تركت آثارا وجروحا لا يودّ إن ينكأها من جديد.

وبعد لقاءين آخرين ، أحسست بأنني أصبحت قريبا من فؤاده، وقد أينعت ثمار التواصل بيننا بكيمياء التفاهم التام ،، فتجاسرتُ حينذاك ،، وأبحتُ له برغبتي في إصدار كتاب عنه،،،

وفي أقل وقت توقعته، وبأيسر ما كنت أنتظره من إيجابية لديه في الأمر، فقد احترم رغبتي وأذِنَ لي بذلك، دون أن يشترط شيئا، أو يبدي تحفظا تجاه أي شيء...

وبذلك أثبت الرجل أن ميزان ما يكنّه لي من محبة وتقدير - وقد ترجمته مودة لا توصف - أكثر رجحانا مما حملته له في بُعده طيلة حياتي.

و هاأنذا أشرع في ذلك بإذن الله، آملا أن تعبّر الحروف عن ما يجب أن يُقال فيه،،،

وأن تعبّر كلماتي عما يستحقه ،، وبجدارة .

النشأة .. الحياة المدنية الأولى .. و الحياة المهنية.

وسط أزيز الرصاص وهدير الدبابات والمركبات، وضجيج أصوات الجيوش المتحاربة خلال الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد في سنة 1942 خرجت للوجود صيحة الطفل المولود الجديد « عبد الونيس محمود سعيد الحاسي » بإقليم برقة، و بالقرب من عين مياه عذبة بمنطقة تسمى (لالي)، مجاورة لقرية (القيقب) بالجبل الأخضر، بالجزء الشرقي من ليبيا.

مع أترابه،،، يلعب لاهيا في براءة طفولته في بقايا آليات الحرب المهشّمة جرّاء المعارك الطاحنة بين الجيوش، حيث تنتشر هياكل المركبات والدبابات، بل وحتى الذخائر والقنابل الحيّة، وبمعجزة إلهية كُتبت له ولأقرانه اللاّهين معه النجاة، بعدما كانوا يدقّون إحدى القنابل الحيةً بالحجارة، وفي لحظة مقدّرة تفرقوا من حولها بحثا عن حجرٍ أكبر ذي مفعول أقوى، فانفجرت القنبلة من خلفهم، لتكتب لهم النجاة منها بمعجزة.

في أسرة فقيرة معدمة تنتقل ما بين (القيقب) و (قرناده) و (الفايدية)، كان ربُّ الأسرة لا يملك من حطام الدنيا سوى قلّة من شياه الماعز وناقة واحدة يستعين بها في عملية الحراثة في موسمها، أو بما تدرّه من الحليب لغذاء الأطفال، وفي الإجمال فإن الحال بين الغالبية العظمى من المواطنين كان حينذاك يتدنّى إلى أسفل معدلات الفقر والعوز الشديد في الغذاء والسكن واللباس..

و تطل سنة 1945 ، حاملة في طياتها مفاجأة مباغتة للأسرة...قوية،، وصعبة، وأليمة جدا، و منفذة لأقدارها برحيل الوالد، إذ توفى إثر مرض لم يمهله طويلا، تاركا أرملته في شبابها، وأربعة أطفال قصّر، في ظروف قاهرة وعصيبة، موغلة في الفقر والعوز... ولا غرابة إذاً - والحال هكذا - أن لا يمتلك «عبد الونيس » حذاءً ، فيمشي حافيا طيلة الوقت كإخوته، و كمعظم الصّبية والفتيان في ذلك الوقت.

ترمّلت الزوجة السيدة « علجية بنت محمد امنيسي » مبكرا لتعيل الأيتام في الأسرة المكونة من خمسة أفراد: (هي نفسها، وثلاثة أبناء ذكور، وأختهم)، وكانت أعمارهم حين وفاة والدهم:

1- عبدالحفيظ : عشر سنوات. 2- عبدالعزيز : سبع سنوات.

3- عبد الونيس : ثلاث سنوات، وهو المعني هنا « صاحب السيرة ».

4- شقيقتـهـم : سنة واحدة.

ولم تكن الأم في الأساس وقبل زواجها في سعادة كاملة، فقد فقدت أحبّتها قبل أن تترمّل بوفاة زوجها، إذ توفى والدها ووالدتها قبل زواجها، ومات أحد أخويها نتيجة التعذيب في معتقل (سوسه) بتهمة مساندة المجاهدين ضد الطليان، ولحق به الأخ الباقي الوحيد لها كذلك بعد زواجها بقليل... وفوق ذلك، زادتها الأيام كارثة فقد زوجها ... لتصبح كاملة اليُتم من كل ذي قرباها، وفي مواجهةٍ مع قدرها الصعب، ومع تقلبات الزمن الغادر، مصحوبة بأربعة أيتام قصّر في صراع مرير جدا مع الحياة ... ولا شك في أن تلك الحقبة كانت من أصعب مراحل العيش في ليبيا، وأن الرجال الكادحين والقادرين على الكسب كانوا يعانون مع أسرهم مرارة العيش، وغير قادرين على جلب الرزق، نظرا لقلة الموارد وانعدام فرص العمل، فما بالك بامرأة مع إيتامها لا حيلة لها، ولا تملك شيئا ذا قيمة تجابه به الحال، وقد وضعتها الأقدار مع إيتامها في ذلك الوضع الصعب، وفي الوقت الصعب .

وقد كانت البلاد في حينها تجرجر بقاياها من محنتين ألمّتا بها، ولم يتركاها إلا كهيكل عظمي مجرّدٍ من كل ما يكسوه ،، الأولى : بسبب الاستعمار الإيطالي للبلاد، والثانية بتطاحن القوى المتصارعة لجيوش الحلفاء والمحور على أرضها طيلة السنوات الستّ للحرب العالمية الثانية.. ولم يبق من ليبيا وقت خروجهما منها إلا الأساس الجغرافي للإقليم، وأما معظم ما على الأرض فقد انهار أو تردّى من ويلات المعارك، وأما السكان فقد ضاع أكثر من ثلث تعدادهم إما بالإعدامات، أو في معسكرات الإبادة الجماعية وفقا لسياسة المستعمر الإيطالي، أو كضحايا لأدوات الحرب فوق أرضهم، أو بالفرار إلى شتات المهاجر.

لقد كان الحصول على لقمة العيش في تلك الظروف مستحيلا لانعدام مصادره، وانعدام فرص العمل، فما بالك بامرأة يُناط بها أن تعيل أيتاماً وسط ذلك الويل وفي تلك الأحوال..؟ لقد كانت مقارعة تلك الظروف ملحمة فريدة لكل أرملة مصحوبة بأيتام ، كما كانت السيدة «علجية » والدة هؤلاء الأيتام.

يقول «عبد الونيس » فيما يصفه عن الحال في تلك الطفولة البائسة:

(لا أذكر شيئا من وقت وفاة الوالد والمأتم أو أية تأثيرات وتداعيات قريبة، أما أبعادها اللاحقة وتأثيراتها البعيدة المدى، حين صرت صبيا يتيما فذلك مما حفرته الأيام في الذاكرة، ومن المستحيل أن أنساه ما حييت،،، لقد استقر الكثير في شعوري كصبي يتيم وهو يشاهد ما حوله وسط فقر مدقع إلى حدود المجاعة... ولعله من المذهل أن أتذكر الآن بأنني وفق حدود إدراكي حينذاك بأن ذلك كان أمرا عاديا ووضعا طبيعيا لا غبار عليه، رغم ما كنت أرى وأسمع من دعوات الوالدة المتضرعة لله وهي دامعة العينين من حين لآخر، وهي تدعوه بأن يفرج كربتنا، وأن يرزقنا من فضله ويشملنا بعطفه ،،

لقد كافحت والدتنا الأرملة كفاحا مريرا من أجل توفير لقمة العيش لأولادها الأربعة وهي ما تزال شابة في ريعان شبابها، وقد كان الشيء الذي يحزّ في نفسي كثيرا عندما أعقد مقارنة بيني وبين الصبيان من أترابي الذين كنت ألعب معهم، هو أنني لا أستطيع الحديث مثلهم عن « أبي» كما كانوا يفعلون، وأنه لا توجد في قاموس حياتي مثلهم كلمة (باتي أو يا باتي) على الإطلاق، وينتابني شعور حادّ وقاس بالحزن والفقد وغياب الأب، ولكن المدهش حقا في الأمر، هو أن ذلك الشعور القاسي والمحزن والمؤلم، لا يلبث أن ينقشع ويتلاشى بمجرد دخولي البيت (سواء بيت الشعر أو الحقفة أي الكهف)، وذلك بمجرد أن أرى وجه أمي... ولو سألني أحد عن معنى اليُتم الحقيقي من خلال تجربتي،، لقلت دون تردّد بأن فقدان الأم هو أصعب بكثير من فقدان الأب...فما من انسان آخر في هذه الدنيا يملك مددا هائلا من الحب والحنان يشمل جميع الأبناء بفيض دافئ وغامر لا يعرف النضوب كما تملك الأم،،، فهي وحدها من يفعل ذلك بشغاف قلبها تضحية وفداءً،، إنها كالشمعة تحترق تماما وتفنى لكي تنير دروب الحياة لفلذات كبدها، ولا يخالجني اليوم أدنى شك بأن والدتنا قد قامت بدور الأم والأب معا في آن واحد ،، وأنها قامت بذلك الدور الكبير في تربيتنا على نحوٍ بالغ السّمو والاقتدار رغم كل الظروف الصعبة التي كانت تمرّ بها بلادنا في تلك الأعوام وسط حطام معارك شمال أفريقيا والصحراء الليبية، وكذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ويوم قرأت سيرة الشاعر العراقي بدر شاكر السّياب، وقفت طويلا أمام رسالة قصيرة يبعثها شعرا إلى زوجته « إقبال » بمدينة البصرة قبل وفاته بوقت قليل، يبعثها إليها وهو على سرير المرض بأحد مستشفيات الكويت، لكي يوصيها بابنهما الوحيد «غيلان» عندما أدرك قرب منيّته يقول فيها:

إقبـــال .... يا زوجتي الحبيبـــة

كوني لغيـلان رضى و طيبة

كوني له أبا وأما ،، وارحمي نحيبـــه.

وقفت أتأمل قوله (كوني له أباً وأمّا)،،، فهو يطالبها منذ الآن أن تقوم بدور الأب أيضا، لأنه يعرف جيدا أنه إنما يخاطب نبعاً لا ينضب من الحنان، ويملك القدرة على تعويض ابنه ما سوف يفقده من غياب أبيه ورحيله الأبدي... وهكذا كان يتعيّن على « إقبال» الأم العراقية أن تقوم بنفس الدور الكبير الذي قامت به «علجيه» الأم الليبية قبل ذلك بنحو عشرين عاما، مع فارق الزمن، وعدد الأيتام، والمستوى الاقتصادي...).

لقد توفى والدهم (محمود سعيد أمهدي ابراهيم) مبكرا في حوالي الأربعين من عمره، فكان أن انتقلت الوالدة بأطفالها القصّر إلى مقر الأجداد في الأرض المتاخمة لمنطقة (قرناده) بعلوة (أم احنيّه) تحديدا، حيث آوى الأطفال وأمهم إلى كهف (حقفة) متهالكة قديمة منذ أيام الرومان فاغرة فاها صيفا وشتاء،،، كان ذلك الكهف هو الملجأ الآمن والمتيسر للأسرة، أما عن الطعام فلم يكن

هناك من وسيلة سوى استنجاد الأم بأهل المروءة ليقوموا في موسم الحراثة تبرّعا بحرث رقعة صغيرة للأيتام بطريقة العمل الخيري الجماعي، وتعرف مناداة تلك النّخوة في المفهوم الشعبي بمسمى (الرّغّاطه) أي التطوع بالمساهمة في العمل الجماعي الخيري، وكذلك الحال عند حصاد المحصول.

وفي شهر أكتوبر من نفس السنة (1950) دخل «عبد الونيس » مدرسة (الفايدية) الابتدائية، وقد كانت تبعد عن مقر سكناهم بمسافة خمسة كيلو مترات، فكان لزاما عليه أن يسير حافيا لمسافة عشرة كيلومترات ذهابا وإيابا يوميا، ويصف تلك المرحلة قائلا:

(دخلتُ مدرسة الفايدية الابتدائية حافي القدمين، ومرتديا أسمالا بالية، مع رغبة مجهولة وغامضة في معرفة لغز القراءة والكتابة،، كنت مدفوعا بهذه الرغبة الشديدة، ومتحمّسا لكي أعرف وأتعلم، رغم أن الخجل كان يراودني كلما نظرت إلى ملابس الآخرين وأحذيتهم، مقارنة بأقدامي الحافية وملابسي الرّثّة... كما كان يلازمني أحيانا شعور حادّ بالغبن والحرمان عندما لا أجد شيئا لكي أتناوله خلال فترة الفطور أو الاستراحة مثل بقية التلاميذ الآخرين، ولا يخفّف هذا الشعور ويمنحني بعض العزاء إلا عندما أرى بأن هناك كذلك بعض التلاميذ الفقراء إلى حدّ مدقع مثلي... وباستثناء السنة الأولى، فقد تحصّلت على الترتيب الأول في بقية السنوات اللاحقة حتى إتمام السنة الرابعة الابتدائية والأخيرة بمدرسة الفايدية ومن ثم التحقت بالقسم الداخلي بمدرسة النهضة المسماة حينذاك باسم إيطالي « توريللي» بمدينة بنغازي..).

نظرا لقلة المباني المناسبة لكي تقام فيها المدارس، مع النقص الهائل في أعداد المدرسين المؤهلين، علاوة على انتشار الغالبية العظمى من السكان في منتجعات أو قرى صغيرة قزمية متناثرة، فلم يكن أمام السلطات المحلية من خيار أمامها كي توفر به تعليم الجيل الجديد، سوى اعتماد سياسة إنشاء الأقسام الداخلية في بعض المدن، والتعاقد مع بعض الدول العربية المجاورة على تزويد وزارة التعليم بالمدرسين، مقابل مرتبات كانت إذ ذاك مجزية وكفيلة بقبول المهمة.

ومن الطريف أن نعرف أن مرتب المدرس الوافد كان يفوق مرتب مدير المدرسة، الذي لم يكن يجد في ذلك غضاضة ولا تحسّسا !...

فالهدف الوطني المنشود: هو تعليم الأجيال الناشئة ، بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى!.

لقد انتهجت تلك السياسة الرشيدة تجميع أبناء البادية من المنتجعات والقرى، حيث تتوفر بعض المباني المتبقية من منشآت معسكرات الجيوش الأجنبية عندما غادرت البلاد، وحيث يمكن تجميع الطلبة للاستفادة من القليل من المدرسين سواء من المتعاقد معهم من خارج البلاد، أو من القليل النادر من المواطنين القادرين على التدريس... و بالتالي، قد كان من الطبيعي - حسب تلك الظروف - أن تتحمل ميزانية التعليم مصاريف الإعاشة والإقامة لأولئك التلاميذ في الأقسام الداخلية، رغم انعدام الإمكانيات المادّية للدولة في الأساس.

ووفقا لهذا الأمر، فقد غادر « عبد الونيس» قريته مع سبعة طلبة آخرين بعد انقضاء العام الدراسي الرابع، ليلتحق بالقسم الداخلي بمدرسة النهضة في مدينة بنغازي كما أوضحنا سابقا.

يقول فيما كتبه عن انتقاله للتعليم في مدينة نائية عن أسرته:

(كنت أسمع عن مدينة بنغازي كمدينة بعيدة وكبيرة الحجم، وفيها الكثير من الخير والكثير من الشّر،،، وعليك أن تأخذ منها الخير وتترك الشر... معلومات مبهمة وغامضة تدعوك للشك والريبة والحذر، كان الشعور الذي راودني وأنا في طريقي إليها، كما لوكنت مسافرا للدراسات العليا بالخارج، وأنّ عليّ أن أجتهد لكي أنجح.

بدأت الدراسة في شهر ديسمبر، بعد أن تأخرنا شهرين عن موعد بدء العام الدراسي في شهر أكتوبر،،، ولم يكن يسمح لنا بالخروج إلى المدينة إلا في العطلات ... حيث بدت لي مدينة بنغازي يومذاك عالما جديدا وعجيبا وغريبا في آن واحد... كنت لا أعرف شيئا عن السياسة ولا عن متاهاتها ودسائسها ومؤامراتها... مجرد صبي غرّ وبدوي، رماه الله فجأة في مدينة كبيرة فبدا تائها ومبهورا،،، وكان خبر اغتيال ناظر الخاصة الملكية « إبراهيم الشلحي » في شهر أكتوبر من ذلك العام 1954 لا يزال جديدا،، وكنت أستمع إلى زملائي الطلبة من حولي وهم يتهامسون عن مقتله، من قبل أحد أفراد العائلة المالكة، ثم يضيفون من عندهم قصصا أخرى خرافية، فأزداد دهشة وتعجبا واستغرابا ...).

اقتضت سياسة التعليم حينذاك فتح المعاهد المتخصصة بتخريج المعلمين، وذلك في خطوة استعدادية لاستقبال الأجيال الجديدة من التلاميذ، فكان أن التحق « عبد الونيس» بعد إتمام الدراسة الابتدائية سنة 1957 في مدرسة النهضة (توريللي)، بمعهد إعداد المعلمين في بنغازي، وقد كان ترتيبه الأول خلال مدة سنوات الدراسة الأربعة التي أمضاها بالمعهد، ولما كان قد تخرّج بذلك التفوّق، فقد تم تعيينه مدرّسا لمادة اللغة العربية بنفس المدرسة التي كان يدرس بها سابقا (مدرسة النهضة الابتدائية)...وكان خلال دراسته بالمعهد قد تحصّل ايضاعلى شهادة إتمام المرحلة الإعدادية من ضمن المتسبين من منازلهم، وكذلك استمر بعد تعيينه مدرسا بالدراسة الليلية بالمرحلة الثانوية حتى أتم السنة الثانية بالنجاح، ومن ثم فقد تقدم للكلية العسكرية بالشهادتين: دبلوم معهد المعلمين، وشهادة الانتقال للسنة الثالثة الثانوية.

ولربما كانت مجريات الأقدار ألطف به في مخرجاتها، لو استمر بالعمل في سلك التدريس، ولربما كانت الفرص متاحة أمامه من أوسع أبوابها للمزيد من الدراسات العليا والتحصيل العلمي، ومن ثم للاستقرار المهني والأسري، خاصة في تلك الأيام التي شهدت حرص الدولة على إيفاد أي طالب يتميز في دراسته الأولى، إلى الجامعات الكبرى في العالم في كل التخصصات،،، وبلغ بها الحرص والتشجيع أن كانت تتكفل بكل تكاليف الدراسة والمعيشة بالخارج للدارسين ، مع حفظ حق الموفد في صرف مرتبه الذي كان يتقاضاه كاملا داخل البلاد إن كان في الأصل موظفا.

لكن سماعه للإعلان الصادر من الكلية الملكية العسكرية التي أعلنت للشباب المؤهل عن حاجتها لمنتسبين جدد، ـ لقبول الفوج السادس للكلية منذ إنشائها، للخدمة كضباط بالجيش الليبي ـ قد جذبه بشكل ما نحو تقديم أوراقه للالتحاق بها، (رغم معارضة البعض من أفراد أسرته، ممن كانوا يفضلون أن يستمر عمله بالتدريس، وكانوا بشكل أو بآخر، لا يفضلون أن يتوجه نحو العمل العسكري)، بالرغم من أن سمعة الجيش الليبي حينذاك كانت طيبة جدا، وكانت نظرة المجتمع لرجال الجيش نظرة إكبار واحترام، إذ لم تقع أية أحداث تنمّ عن خطر كبير يهدد المجتمع تستدعي الاستعانة برجال القوات المسلحة إلا في حالة واحدة تقريبا وهي زلزال مدينة المرج سنة 1963 التي شارك فيها الجيش في متطلبات الإنقاذ، أما فيما عدا ذلك، فقد حافظ رجال الأمن والبوليس على مهامهم المعتادة، وبقي رجال الجيش خلف أسوار ثكناتهم، محتفظين باحترام ومحبة المواطنين (كل هذا كان قبل حلول سبتمبر 1969 بتحولاته المعروفة).

والكلية العسكرية الملكية الليبية أنشئت بموجب المرسوم الملكي الصادر في 1957/6/22، في عهد حكومة السيد عبدالمجيد كعبار، بعد أن كانت بعثات طلبة الكليات العسكرية ترسل في الغالب إما إلى العراق أو إلى مصر ، ومن المعروف أن معظم جيل الضباط برتب العقداء بالجيش الليبي ينتمون إلى خريجي الكيات العسكرية من تلك الدولتين، باستثناء المجموعة الأولى التي رتبت لها دورة على عجل ولمدة ستة شهور فقط في مدينة الزاوية ـ نظرا لاحتياج نواة الجيش الجديد لضباط ـ في بدايات وقت الاستقلال.

اتخذت الكلية العسكرية الجديدة مقرها في (قصر الغدير في بنغازي الذي كان مسكنا للملك إدريس، ونظرا لانعدام المكان المناسب للكلية فقد تبرع به ليكون مقرا لها)، وتولى التدريس بها ضباط عراقيون في البداية، ثم ما لبثت بعد ذلك أن اعتمدت واكتفت بالخريجين من دفعاتها، للتدريس على المنتسبين الجدد... وكانت مدة الدراسة سنتان وفقا للمنهج المحدد بقانون إنشائها، وتنتهي باجتياز الامتحان النهائي بالنجاح للخريجين منها كضباط بالجيش الليبي ، وكان عدد الخريجين من كل فوج يتراوح عادة ما بين : 30- 50 ضابطا.

تخرجت الأفواج الخمسة الأولى من الكلية الجديدة، وكان التحاق «عبدالونيس » بالفوج السادس منها، ومن ذاك الفوج تمكّن سبعة عشر منتسب فقط من اجتياز الامتحان النهائي في امتحان التخرج منه بعد سنتين، برتبة ملازم ثان حسب المرسوم الملكي الصادر في 8 أغسطس 1964 بتعيين ضباط بالجيش الليبي...

وقد يكون ترك « عبد الونيس» للتدريس والتحاقه بالكلية العسكرية راجعا لاعتبار أن الخدمة في الجيش شرف لا يريد أن يفوته، أو أن حزب القوميين العرب الذي كان ينتمي إليه قد طلب منه ذلك،،، وأيا كانت الأسباب، فإنه سار في الطريق المقدّر على أية حال.

امتعضت الوالدة من ترك ابنها لمهنة التدريس واتجاهه نحو الخدمة بالجيش، وإن كانت لم تصرح له بمعارضتها جهرا، لكنها لم تكن ترغب في ذلك التحوّل - حسب ما لاحظ ابنها - و قد يكون قلب الأم في استشرافه قد شعر بشيئ لا يسرّ في ذلك المسار، أو أنها أحسّت بشيئ من الخوف على سلامته الشخصية انعكاسا لما لا حظته وعايشته من ويلات الحروب التي كانت رحاها تدور على الأرض الليبية منذ وقت قريب في الحرب العالمية الثانية ...

وأيا كان الأمر، فإنها وبالرغم من عدم قبولها للأمر، إلا أنها اكتفت بأن دعت له بالتوفيق ،،، أما أخوه الأكبر « عبدالحفيظ» باعتباره هو ولي أمره، فقد عارض تلك الفكرة بشدة، بل وحاول أن يقنع الجهات المختصة في الكلية بعدم قبول أخيه، والسماح له بالانفكاك، ولكن الموضوع كان قد تمّ وانتهى، ولم يلتفت المسئولون في ذلك الوقت لاحتجاجه.

ومهما كان من أمر، فقد جرت الأمور حينذاك بمقاديرها...؟!.

ومن المعروف أن من بين منتسبي الفوجين السابع والثامن، ومن بعض الفرادى من الأفواج الأخرى من خريجي الكلية العسكرية، قد تشكلت مجموعة الضباط الصغار الذين فجروا انقلاب سنة 1969، وكان لمجرى الأحداث بعد ذلك في ليبيا مسارا آخرا طويلا ومريرا وفيه من المستجدات الفارقة على المجتمع الليبي ما لم يكن يخطر على بال أحد...!

وفيما يلي نستعرض صورة المرسوم الملكي الصادر بتعيين الناجحين من منتسبي الفوج السادس بالكلية العسكرية الملكية كضباط بالجيش الليبي.

KINGDOM OF LIBYA
COUNCIL OF MINISTERS
OFFICE OF THE UNDERSECRETARY
OF STATE

المملكة الليبية
مجلس الوزراء
مكتب الوكيل

٢٧٧٩

س ع/ م/ ٢/
س ع/ هـ/ ٢/ ١٠

البيضاء في ٢ ربيع الثاني ١٣٨٤ هـ.
الموافق ١٠ اغسطس ١٩٦٤ م.

حضرة المحترم السيد
السكرتير الخاص لحضرة مولانا الملك المعظم
/ طبرق

بعد التحية ،

اشير الى رسالتكم رقم ٦٤/١٧/١ المؤرخة في ٨ اغسطس ١٩٦٤ ، المتعلقة باحالة بعض المراسيم .

وان اعيد اليكم طيه نسخة من كل من المراسيم التالية :

١) مرسوم ملكي كريم بترقية ضباط في الجيش الليبي .
٢) مرسوم ملكي كريم بتعيين ضباط بالجيش الليبي بعد تخرجهم من الكلية العسكرية الملكية .
٣) مرسوم ملكي كريم بنقل بعض الموظفين الى السلك العسكري بقوة الامن .

وذلك بعد ان تم التوقيع عليها منا ومن السادة الوزراء المختصين .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

(محمود المنتصر)
رئيس مجلس الوزراء

نسخة الى الديوان الملكي العامر — البيضاء
نسخة الى الديوان الملكي العامر — طرابلس
نسخة الى الديوان الملكي العامر — بنغازي
نسخة الى الملف رقم : و ك

المملكة الليبية

مرسوم ملكي

بتعيين ضباط بالجيش الليبي

نحن ادريس الاول ملك المملكة الليبية

بعد الاطلاع على المادة ٦٨ من الدستور ،
وعلى المادتين ١٢ و ١٨ من قانون الجيش الليبي لسنة ١٩٦١ ،
وعلى المادة ١٣ من المرسوم الملكي الخاص بالكلية العسكرية الملكية لعام ١٩٥٧ المعدلة بالمرسوم الملكي الصادر في ٣ يوليه سنة ١٩٦١
وبناء على ما عرضه علينا وزير الدفاع وموافقة رأي مجلس الوزراء ،

رسمنا بما هو آت

المادة (١)

يعين ضابطا في الجيش الليبي ويمنح رتبة ملازم ثان كل من :

١ ـ عمران طهة اللبة
٢ ـ عبد الونيس محمود
٣ ـ عمر محمد الواحدي
٤ ـ نوح فرج هيبة
٥ ـ محمد احمد هديبة
٦ ـ حسين زائد الكاديكي
٧ ـ زائد عبد الله المجدوب
٨ ـ رمضان حميدة الجلاح
٩ ـ امبيته محمد القمودي
١٠ ـ بالعيد محمد الخنجاري
١١ ـ محمد علي القصبي
١٢ ـ محمد احمد سون
١٣ ـ ابراهيم احميدة ابيبيح
١٤ ـ سليمان محمد الرفادي
١٥ ـ عبد الجليل الشريف
١٦ ـ عبد الرحمن محمد حويو
١٧ ـ عبيد عبد العاطي

٢/٠٠٠

المادة (٢)

على وزير الدفاع تنفيذ هذا المرسوم ، ويعمل به اعتبارا من ٩ اغسطس ١٩٦٤ .

التوقيع الملكي : ادريس

صدر بقصر دار السلام العامرة في ٣٠ ربيع الاول ١٣٨٤ هـ .
الموافق ٨ اغسطس ١٩٦٤ م .

بامر الملك

التوقيع
(محمود المنتصر)
رئيس مجلس الوزراء

التوقيع
(سالم لطفي القاضي)
وزير الدفاع بالنيابة

صورة طبق الاصل

(ولد عجوز) وفقا لمسمّى المثل الشعبي

(لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل) «عنترة »

في الأزمنة الماضية، في أوقات التعايش مع بقايا موروثات ثقافة العصور الغابرة،، أثناء غلبة القوي واستعلاء فريق على آخر، وانتشار غزوات السّلب بين السكان، فإن اليتيم والضعيف أو من كان من الأقليات الاجتماعية، لا يستطيع الذّود عن الحياض ومجابهة المعتدي، و صدّ ذاك المستقوي بالإمكانيات والعدد، فإذا مات رب الأسرة وهو العائل المسئول عن الإعاشة والرعاية، خاصة إن ترك وراءه أنجالا قصّرا، فسيصبح البؤس رفيق حياتهم من بعده، إما بصعوبة العيش، أو بما ينالهم من أذى وتطاول من الأقوياء المقتدرين في بعض المجتمعات البدائية... وتجدهم وقد انحصر مكانهم على أطراف النجوع، أو خوالف المدن كشريحة ضعيفة لا يُقدّموا إن حضروا، ولا يُفتقدوا إن غابوا،،، ! و تستمر مكانتهم على هذا التصنيف الهامشي، إلى أن يبلغوا سن الرشد التي تؤهلهم للعمل، فيثبتون بالتالي وجودهم وسط الآخرين.

تلك أسباب قوية تجعل الأم الأرملة تسعى بكل السّبل لكي تعوّض ابناءها عن فقد الأب المربّي والحامي للأسرة، فتحرص أشدّ الحرص على تربية ابنها أو أبنائها الأيتام على الاعتناء الشديد بأنفسهم، والانتباه والفطنة لكل شيء حتى لا ينخدعوا بسهولة، وأن يحسبوا كل أمر بدقة سواء في جلوسهم أو نومهم، وأن يحسنوا اختيار من يرافقون، مع توخّي الحذر والاستعداد في كل الأوقات، وبكل ما يمكن أن يجابهوا به المواقف الصعبة، والتسلح بالجرأة والإقدام لمجابهة الحياة باعتمادهم على أنفسهم.

وبالتالي فإن من تربيه الأرملة، تحاول أن تزرع فيه أساس الاعتماد على نفسه بتكرار النصائح والتوجيه ليتعلم جيدا أن نصيره الوحيد هو اعتماده على شجاعته وصموده،

وينشأ على تحمل المسئولية والفطنة، وأن لا يكون هروبه إلا إلى الأمام، وبالتالي فهو ذاك الذي يوصف في مفهوم لغتنا المحلية بأنه (ولد عجوز) نعتاً بأنه مؤهل برصيد وافرٍ من الثبات والقوة والتحمل من وصايا أمه.

ونتيجة لهذا الإعداد المركز ربما في حالة « عبد الونيس » ، فإن فطنته وذكاءه لم يدعا أي دليل وراءه لإثبات أنه كان ضالعا في محاولة الانقلاب فيما بعد ، ولم تُضفِ التحقيقات في جميع مراحلها ، سواء أثناء التحقيق العادي، أو خلال الاعترافات المنزوعة بالقوة تحت التعذيب، أنه قد تورّط في المحاولة، ولم يظهر في التحقيق أي أثر يدينه... بالرغم من أن النّية كانت - كما نعلم - مبيّته ضده ، وأن الأمر كان مقضيا، سواء بإثبات أو بدونه، وقد تعرض للضرب والتعذيب الشديدين لانتزاع الاعتراف بمشاركته في المحاولة الانقلابية، أو للإفصاح عن أسماء من كانوا مشتركين معه، أو أسماء من دعاهم للاشتراك في المحاولة و وافقوا على ذلك، كما سيتبين فيما بعد في تفاصيل أخرى، ولكنه احتمل بقدرة فائقة كل أصناف التعذيب، ولم يعترف أو يبوح باسم أحد على الإطلاق، في الوقت الذي كان يرى الآخرين يموتون بجانبه جراء الإفراط في تعذيبهم .

ومن المضحك المبكي أن (مجلس قيادة الثورة) الذي مورست باسمه ، وتحت سمعه وبصره كل أنواع التعذيب ، بل كان من بين أعضائه من أشرف على ممارسات التعذيب كما حصل مع « عبد الونيس» شخصيا في شهر ديسمبر 1969 وما بعده، حسب ما بيّن في تفاصيل مذكرته المُضمنّة في هذا الكتاب، هذا المجلس أصدر(في نفس الآونة) بتاريخ 11 ديسمبر 1969، الإعلان الدستوري الصادر عن مجلس قيادة الثورة ، والذي تنص المادة (31) منه على ما يلي:

أ- لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون.
ب- العقوبة شخصية.

ج- المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وتؤمّن له كافة الضمانات الضرورية لممارسة حق الدفاع، ويحظر إيذاء المتهم أو المسجون جسمانيا أو نفسانيا.

كانت الإذاعة حينذاك تعيد تلاوة بنود الإعلان الدستوري عقب نشراتها، والجرائد تنشر مواده في ابتهاج جاذب لبسطاء القوم، في نفس الوقت الذي كانت تتعالى فيه صرخات المتّهمين من فرط لهيب سياط التعذيب داخل الأقبية المظلمة...!!!.

وما يهمنا أن نشير إليه هنا، هو ذلك المفهوم الاجتماعي (ولد عجوز)، أنه قد انطبق تماما على المعني في هذا الشأن، وقد أثبت بجدارة أنه كان كذلك، و بحق ،،،

لقد أحسنت الأم تلقينه، فأصبح كيفما رأيناه خلال كل المراحل:

وعندما احتواه سكون الزنزانة الموحش لسنوات طويلة، كان احتماله و حُسن ثباته يقارعان وحشة تلك الحوائط الصلدة، فلم تستطع أن ترسل اليأس أو الانهيار إلى فؤاده،،، لقد ألبسته تربية (العجوز) فيما يبدو عازلا قويا تجاوز به كل انهيار..!

احتمل بعد ذلك الفقر الشديد ومرارة الحاجة ووحشة العزلة خلال سني اغترابه في المهجر طيلة ما يزيد عن ربع قرن، فلم يلن ولم يضعف، ولا جذبته وسائل الإغراء التي أفلحت مع من (جذبتهم الجزِرة)،،، فلم يتخلى عن الرسالة، ولا تطامنت فيه المبادئ.

ذلك التّلقين التربوي، من تلك (العجوز)، أمدّه بصبر و ثبات و إباءٍ في تلك الأوقات الحالكة، والظروف العسيرة التي لا تُحتمل، فكان حقيقة عند حسن ظن أمه بالفعل !.

يقول المناضل الاسكتلندي الشهير « وليام والاس »* في شأن الأم التي تصنع الأبطال: (إن اليد التي تهزّ السرير هي التي تحكم العالم !)،،، كناية على أن هدهدة الأم على وليدها في المهد أساس لما قد يجعله بطلا في المستقبل...

رجوعا إلى عموم السّرد،، فقد أتمّ الدراسة العسكرية متخرجا برتبة ملازم ثان سنة 1964 – وبالرغم من تفوقه في الدراسة بالكلية تفوقا مميزا ، حيث كان ترتيبه الثاني على الفوج – إلا أنه كان يتجه من حيث لا يدري، نحو المسار الصعب المرير في بقية حياته...؟!.

تم تعيينه بداية بكتيبة المشاة الأولى بمدينة درنه، وما لبث أن تم اختياره في سنة 1966 كآمر فصيل بالكلية العسكرية ،ومدرسا للأسلحة الخفيفة ومهنة الميدان، حتى تاريخ انقلاب سبتمبر سنة 1969، حيث بدأت محنته بذلك الحدث كما نعرف.

و قد يتساءل المرء اليوم باستغراب وتعجّب،،،؟؟! : أكان لنا نحن القراء أن نطّلع على تفاصيل أحداث هذه السّيرة المثيرة ؟، أو أن تزخر التجربة الإنسانية بخلاصة ما قد وقع لهذا الرجل، وبما مرّ به من أحداث ومواقف فارقة ومميزة،،، في تجربة حياةٍ على هذا القدر من الإثارة، لو لم ينضمّ حينذاك للكلية العسكرية، و لو بقي على حاله مدرسا لمادة اللغة العربية....؟!.

ويبقى عجز التمييز الغيبيّ في الفكر الإنساني محيّرا، كالحيّز المحدود اللآمرئي، ذاك الذي يفصل بركة الغرق عن خطوة النجاة...؟!.

---

*وليام ولاس : فارس اسكتلندي شهير قاد المعارك ضد انجلترا حتى مقتله سنة 1305، حيث يروى أن جسده قد تمزّق جراء شد الخيول له في اتجاهات متعاكسة ... لأنه رفض أن يطلب العفو أويستجدي أعداءه.

و لم يتضح في أقواله أو كتاباته، أي إحساس بالندم لتركه التدريس، وانخراطه بالخدمة العسكرية... بل تحسّن عند مخالطته، أن الأمر على العكس من ذلك تماما، إذ لا زالت بعض التحليلات في حديثه، والتدليل على عناصر ما يطرحه من أفكار، تسوقها انضباطية النّزوع العسكري وتحديداته المصاغة بدقة، كتحديد ما يعرف بالإحداثيات في المجال المهني،،، بالرغم من المفارقة العجيبة في شخصية الرجل، ذلك أنه أديب ومثقف في الأساس، ويصوغ ما يكتب أو ما يقول بصياغة من يحترم قواعد اللغة، ويراعي حرمة تصاريف النحو...!

من اللافت للنظر، أن طريقة نقاشه وأسلوب تفكيره، يشكلهما مزجٌ غريب التجانس، ومن بُعدين متناقضين، يفترض أن يكون التوفيق بينهما مستحيلا، وهما: (تحديد العسكرية الجازم،،، وفضاءات الأدب الواسعة)، إذ كلمّا جالسته، تحسّن وكأنك تقرأ كتابا آخرا تتجدد وتتنوع صفحاته... فما بين تحديد العسكري المحترف، وطرح وبيان المدرس المؤهل ـ أستاذ اللغة العربية ـ والمثقف بأسلوب وسلوك المُتمَدين المهذب، وأحد دعاة الديمقراطية.. ما يميزه بتفرد في إمكانيّة توصيل الفكرة التي يريدها، في ذلك المزج الذي لا يحمل في أساسه ـ منطقيا ـ وفقا لهاذين البُعدين، أية إمكانية تسمح بالتجانس فيهما، أو تحيا مع تناقضهما...!.

تجاذبنا الحديث في مساء يوم الأحد 2016/7/17، في الشأن الليبي الراهن، وإذا به يفصح عن قناعة قوية في حديثه ، مردّها الالتزام الاحترافي لرجل عسكري، وفي مواجهة الأمر بصرامة، فقد أبدى فيما قاله تصميما بضرورة أن يحظى ذلك الأمر بأولوية مطلقة قبل أي شيء آخر، وأسّس رأيه على إحدى مسلّمات العلم العسكري القائلة بضرورة التعامل مع (شوكة الجنب) للتخلص منها قبل غيرها،،، ومضى في ذلك السياق بلغة المتخصص بما أقنعني باحترام رأي الرجل الاحترافي.

ثم ما لبث، ونحن في نفس الجلسة، ولازلنا لم نختم حديثنا في ذلك الشأن بعد، أن عبّر عن نقده لعجز الناس في مجتمعنا عن تشغيل عقولهم كما يجب، لأنهم لا يريدون التعلم ولا يسعون لتطوير أفكارهم، بل يبررون جهلهم بإيعاز كل شيء إلى القدَريّة الغيبية تغطية على عجزهم واتكالهم،،، ووجدتني أخوض معه في مسلمات القدر، والقَدرية، وجرّنا الحديث إلى آفاق علم الكلام وأصوله ونشأته .

فاستغربت ساعتها من ذاك المزج في منهج التفكير بين قطبين مختلفين تماما ،،، فالرجل الذي كان يقف قبل قليل عند ثوابتٍ لا تقبل الجدل في علومه العسكرية، ها هو ذا يحلّق في أفكار احتوتها أمور غيبية عميقة شغلت الفكر الانساني ومدارسه المختلفة،،، وكلا البعدين مختلفين و متعلقين بأمر واحد ، وخرجا من مشكاة الفكر لدى إنسان واحد.!

و الميزة الأخرى في حديثه ، أنك عندما تراقب ردود فعله في النقاش، سواء معك مباشرة، أو عندما يتحدث مع الآخرين، أنّ صبره يعطي المتحدث الآخر فرصته في الطرح كاملا دون

مقاطعة، حتى وإن كان لديه احتجاج وملاحظة عما يبديه الطرف الثاني، وعندما ينتهى محدثه م
يقول، فإنه يسوغ ردّه بقدرة عجيبة عندما يريد تفنيد ما سمع، و بطريقة سلسة تتلخص في أمرين:

الأول : أنه لا يمتعض ولا يثور مما يقال، ولا يقاطع صاحب القول حتى يتم حديثه.

والثاني : لا يُسمع محدثه كلمة (لا) مباشرة، وعوضا عن رفض كلام الطرف الأخر، فإنه يبد
رأيه مستهلا الحديث بنظرية أو واقعة تاريخية معينة، تخلص نهايتها - استفادة من ذلك الاستدلا
- إلى التعبير عن عدم التوافق في الرأي الذي طُرح أمامه ، فتظهر وجهة نظره مؤسسة على وقائ
رصدتها التجارب الانسانية، لكي تعبّر عن معارضته لرأي الآخر بطريقة هادئة ومرضية دو
إملاء أو تسفيه .

******

محنـــــة عبد الونيس :

المثقف ،، الجندي

(كلما ازدادت ثقافة المرء ازداد بؤسه)..!. ذلك قول، أو حكمة تنسب للكاتب المسرحي والطبيب الروسي (أنطون تشيخوف). *

والمثقفون نوعان :

نوع يعمل لصالح المؤسسة... (النظام) وآخر : يعمل لصالح الناس.

أما عن المحدّدين في الصنف الأول، فقد استطاع (النظام في ليبيا) عقب انقلاب سبتمبر ، أن يستحوذ عليهم بذكاء وحِنكة لا ننكرها ، بل وأتقنها بمهارة، كي يُدجّنهم لينجرّوا وراءه في براح خالٍ تماما من المقاومة الفكرية ،،، فارتضى هذا النوع من (المثقفين) أن يخدم النظام إما باختياره، أو تحت ضغوط وقعت بشكل ما ، فانقاد طوعا، أو مسايرةً، وانضوى تحت مظلة السلطة، وهذا ما يجعلنا نرى في الإجمال أن العالم - رغم الحضارة - ما زال إعلامه يرزح تحت شبكة محترفة من الأكاذيب والتضليل.

أما النوع الثاني، وهو صاحب مبادئ لا يتزحزح عنها ولا يحيد، و منهجه شفاف ذو وجه ولون واحد، لا يتلون ولا يتغير،،، ولا يقبل دخول حلقة مديح المؤسسة، لأنه يبصر ما لا يراه الأعلى منه في السلطة ، واعتقاده راسخ بأنه لا يجب أن يكون أحد أعلى شأنا من الحقيقة في المجتمع الانساني المتكامل ، فهو لا يحاذي ركب المنافقين، ولا يبيع نفسه لكي يبرر سلوكا شائنا ضارّا بالإنسان وبمحيطه قِيَما ووجودا.

وقد ترجم المفهوم الدّلالي للثقافة، ارتباطه بقيم ومبادئ الديمقراطية وحقوق الانسان، فأصبحت في جوهرها إيمانا بقدسية الحرية والكرامة، كإحدى السّمات البارزة للفكر المتحرر في عالم اليوم.

وعلى هذا الأساس، تصبح الثقافة ذات المضمون (المُؤسَّس على المبادئ) عدوّا حقيقيا للسلطة، وهي مدرسة معارضيها، كما يراها (أفرام نعوم تشومسكي) ** أستاذ الفلسفة التحليلية الأمريكي،، ومؤلف كتاب (صناعة الإذعان) معارضا فيه حرب فيتنام ، وتوجهات السياسة الأمريكية عموما.

---

* طبيب وكاتب مسرحي ومؤلف قصص روسي (1860-1904) يوصف بأنه أفضل كتاب القصة القصيرة .

** فيلسوف ومؤرخ وناشط سياسي ، أمريكي الجنسية، و تم تصنيفه عام 2005 بأنه أكثر الشخصيات الثقافية البارزة بالعالم.

وقد عُرّف المثقف (الملتزم) بأنه حامي قيَم العدل والحرية، المدافع عن المظلومين وعن حقهم بحياة كريمة، والذي لا يمكن ان يصبح يوما في جوقة الظلم، ومواكب المنافقين .

تقول الناقدة المصرية الدكتورة « أماني فؤاد » في مشاركتها في ندوة ثقافية عنوانها: (تعددت المقولات والإشكالية واحدة،، كيف تكون الثقافة في قبضة سلطة ما) نظمها معرض الكتاب في الشارقة في نوفمبر 2013 تقول :

(الثقافة لا يمكن أن تكون في قبضة سلطة ما، بل ينتجها مثقف حقيقي قادر على قول الحقيقة في وجه السلطة مدافعا عن الناس، خاصة الذين لا يجدون من يدافع عنهم،،، وأن المثقف الحقيقي انشقاقيّ بطبعه).

المثقف (الذي لا يعمل للسلطة) هو نقطة ضعف أي دكتاتور ومثار جنونه، بل وانفلات أعصابه أحيانا، كما نشاهد عليه الرؤساء الدكتاتوريين في كثير من الندوات والنقاشات التي يبدى فيها البعض رأيا مخالفا لآرائهم.

فالثقافة الملتزمة، والدكتاتورية غريمان لا يعيشان في وطن واحد أبدا. لأن مسعى كل ديكتاتورية هو أن تنزع لسان الآخر لتزرع مكانه لسانها الخاص، فتُدجّنه كي ينقاد بالكيفية التي تروق لها، ونحو الوجهة التي تريد.

كما أن الأسلوب المُشخصَن الذي تمت صياغته منذ خطاب (زواره) في أبريل سنة 1973 بإعلان ما عُرف بالثورة الثقافية، ليصبح مساقا وحيدا (منهاجا) لـ (سياسة إدارة الدولة)، قد أدى إلى نتيجتين حملتا سلبياتٍ ضرّت بمجتمعنا بتدميرٍ تعمّق فيه بقوة حتى طال البنية الإدارية والاجتماعية والثقافية،، وتعنّتت في نفس الوقت مع المثقفين بقسوة بالغة، واعتُبرت بمثابة إعلان حرب على الناشطين السياسيين وعلى المفكرين والمثقفين على السواء، إذ اتُّبعت سياسة إقصاء الفرد بطريقة شيطانية إلى أقصى حد،،، وفي التعاطي مع الأمر بهاذين الأسلوبين: (التعنّت مع المثقفين بالعزل والإبعاد بل والتصفية الجسدية، شبيها بالنّهج « الماوي » في الصين عند إعلان ثورته الثقافية لتمكين طبقة «البروليتاريا» من جهة ، ومطابقا في نفس الوقت لنهج « ستالين» في روسيا بسحق الأعداء من جهة أخرى)، ما يشكل خلطا بين استيعاب المنهجين: منهج «ستالين » في روسيا، و « ماو سي تونج » في الصين، ليُطبّقا بخلط مؤدلج جديد مشوّه ،،، مارست بموجبه اللجان الشعبية غوغائية شنيعة، و ولغت فيه اللجان الثورية في دم الليبيين، و اختطّت نهج الفوضوية العارمة، التي طالت الإدارة والنظام والتعليم، وكافة الأسس، بل وضربت صميم الأخلاق، ومعها القيم الاجتماعية في مقتل... وبسبب حداثة التجربة، وانعدام الوعي العام في المجتمع، فقد عجز الإدراك عن فهم خطورة ذلك الاتجاه، وبالتالي فإن المسلك (الإقصائي) قد مورس بدون أن يفطن إليه الناس، عندما تم استبعاد المميّزين من أهل الكفاءات الإدارية أو

التخصصية من دواوين الإدارة، فجرفهم سيل التغيير الإداري الذي طغى هائجا بزبد الغوغائيين، وبالفئات الفاشلة من الموظفين الذين كانوا قد باعدهم الأداء المتواضع في مهامهم من قبل عن الصّدارة، فاغتنموا الفرصة ولبسوا عباءة اللجان الشعبية وأصبحوا رموزا للتغيير، وبأيديهم مقاليد تصريف الأمور في إدارة البلاد، وإمعانا في سياسة إقصاء الفرد، فقد أصبح لزاما على من يوقّع الرسائل الرسمية أن تكتب صفته الوظيفية بدون ذكر اسمه....؟!.

بل وكان يُمنع على المعلق الرياضي أن يذكر أسماء اللاعبين أثناء نقل وصف المباراة، وإنما يكتفى بذكر مركز اللاعب فقط،،، بل واتخذ الأمر طابع الرّسمية الكاملة عندما كانت شرائح الألواح الخشبية المرقّمة في مؤتمر الشعب العام كافية ومُغنية عن مناداة الأعضاء بأسمائهم أثناء المداولة والنقاش، والفلسفة من وراء ذلك كله، هو إقصاء الفرد،،، وحجب الشخصيات عن الظهور، لأن التعرّف على الأسماء يبرز الشخصيات، وتصبح مميزة، وهذا محظور ولا يجوز في نظر من حدّثه زخرف الشيطان غرورا بأنه الوحيد الأوحد، والمنعم المتفضّل، والمفكر المتفرد...

و في الإجمال، فإن الدكتاتور لا يقبل ظهور غيره، ولا يسمع سوى صوته، ولا يقبل رأيا يخالف رؤيته، بل لا يدخل في حسبانه حق الآخرين في التعبير بأي رأي مغاير لأمره، فذلك في مفهومه من الكبائر المحرمة... فما بالك إن كان ذلك الدكتاتور عسكريا، لا يتضمن قاموس المفردات لديه تعبير (مثقف ذو رأي و رؤيا) ! ....

لقد اعتاد أن يأمر فلا يُسمع إلا ما يقول، ولا يتوقع من غيره سوى الطاعة العمياء.

يقول «جوبلز » مستشار هتلر النازي (كلما سمعت كلمة مثقف تحسست مسدسي).

فمن هذا المستخلص، دأب الطغاة على تغييب أصوات المثقفين الأحرار...

ولذلك، فأنه ما إن انتهت مراسم احتفال خطاب (زواره) الشهير،، حتى كانت كشوفات حصر المثقفين جاهزة...! فمن لم يكن منهم في قبضة اليد قابعا في السجون مسبقا مثل حالة «عبد الونيس »، فقد جرى تجميع الباقين على عجل ليتم حشرهم كالقطعان في المعتقلات.

يري المفكر والفيلسوف الجزائري « مالك بن نبي * » في كتابه (مشكلة الثقافة): أن الثقافة فلسفة وقيماً أخلاقية فردية واجتماعية تؤثر في تكوين وتنشأة الفرد منذ الطفولة، بحيث تصبح نمطاً لصيقا بحياته، ووشماً مميزاً لسلوكه يصنع بها كل دقائق حياته، مطابقة للنّمط الذي تشكّل فيه...

---

* كاتب ومثقف جزائري معروف ، أصدر كتابه (مشكلة الثقافة) بنسخته العربية فى القاهرة سنة 1959.

وهذا الوصف هو التشخيص الملائم لحالة الشخص الذي نكتب عنه،، ووفقا لهذا التحديد، فإن مفهوم « عبد الونيس» للثقافة ، قائم على أساس أنها : (فعل تغيير وليس فعل تغييب)،،، وهذا التخريج لا يناسب الإذعان المطلق لأمر الحاكم العسكري الواجب تنفيذه دون نقاش، ومن سوء الطالع أن يتزامن مفهوم هذا الطرح ويظهر عند صاحبنا في زمن حُكمِ ديكتاتوري في بلاده... ومن هنا حلّت به المحنة.

مكّنته القراءة من أن ينهل من الثقافة بوسعٍ فائض، فاتّخذ من هذا الوسع نهجاً خاصا قاده نحو السّمو عن سوءات صدمة المحنة عندما أحاطته وطاردته شرور غلوائها طيلة العمر.

يقول «أدولف هتلر» : (العبقرية تحتاج إلى صدمة كي تظهر، وتُبهر الأبصار).

ولقد نال «عبد الونيس » هذه الصّدمة ،،، بل و كانت من النّوع الثقيل فعلا ... !! لكنه استطاع أن يتجاوزها سليم العقل ونظيف المبادئ،،، فلا غرو إذاً أن تكون قوّة الصّدمة قد حفّزت عبقرية الثقافة، فسخّرتها مُكنةً طيّعة سهّلت له اجتياز سوءات زمانه !!

وكم هو مؤلم حقا أن يكون المثقف الذي نتكلم عنه في الأساس جندياً في جيش دولة على رأسها ضابط صغير، استغل الوهن العام والتّراخي وشيخوخة السلطة فيها، فتمكن في إحدى فلتات القدر، أن يقفز على المقدمة، و يمسك الرّسَن ليقودها للوجهة التي يريد، وأجبر الوطن كله ومن فيه على الاذعان، مع الصمت المطلق !.

والأدهى من ذلك، أن تختزن تراكمات العقل الباطن لدى معظم، مجموعة ضباط الانقلاب - الذين قد تَسمّى منهم فيما بعد ؛ أعضاء بمجلس قيادة الثورة، والضباط الأحرار - كلهم كانوا طلبة مستجدين بالكلية الحربية بالفوج السابع، في الوقت الذي كان فيه « عبد الونيس» متقدما عنهم في الأقدمية باعتباره من الفوج السادس، بالإضافة إلى ميزة تخرجه وهو الحائز على ترتيب متقدم (الثاني على دفعته) . تختزن لديهم شيئا من ردود الفعل، كطبيعة البشر تجاه من تفوّق في أمر لم يصله غيره ، أو نال قدرا يعلو به، ويميزه عن الآخرين، (وهذا الأمر مهمّ ومُراعى في ترتيب سلّم الأقدمية العسكرية).

علاوة على تميّزه بغزارة النشاط الأدبي في الكلية كطالب مثقف، بالإصدارات الشهرية والموسمية للمجلات الداخلية بالكلية، بالإضافة للمقالات والمحاضرات الثقافية، وكذلك بعد التخرج،، فقد كان مميزا بين زملائه كضابط مثقف أيضا ... ولا شك أن تخصصه في اللغة العربية عند إعداده لمهنة التدريس في دراسته السابقة، قد أفاده كثيرا في هذا المجال فيما بعد.

ولإعطاء صورة عن بعض من تلك الأنشطة، فإن صور المجلات و النشرات والمقالات التي نأتي بصور بعض النماذج منها فيما يلي، تدلل على ذلك، سواء في فترة دراسته كطالب بالكلية، أو في مهنته كضابط ومدرس بها.

(صـور المجلات والانشطة الأدبية في الكلية)

الى كل مناضل من اجل تحقيق هدفه السامى النبيل . .
الى كل من يثأر لدينه ووطنه . .
الى كل من اتخذ من ازيز الرصاص لحنا ومن البيداء منزلا
الى « يوسف » الصغير الذى اقسم واوفى بالقسم .

للطالب عبد الويس محمود

طلائع الظلام تتسابق لتلبس الكون رداءه الاسود الثقيل . . ومن الافق البعيد ، يبدا الليل فى زحفه الوئيد ليكتسح ذلك الوادى الذى يقبع بين سفوح الجبال . . واشجار البطوم والخروب تكسو تلك السفوح ومجرى ذلك الوادى الكبير . تحت احداها يجلس ذلك الشيخ . اقرب الى الضعف منه الى القوة . . عمره يزيد عن السبعين ، وتحت ثقل هذه السنين نهض ليقف بين يدى ربه ويؤدى صلاة المغرب . . . كان بيته الى الخلف بمسافة ، تكفى «لعائشة» زوجته المخلصة أن تسمع ترتيل القرآن من لسان زوجها المؤمن ، اثناء الصلاة . . . كانت تعد طعام العشاء . . بعض الاعشاب . . تحاول أن تجعل منها طعاما شهيا لابنها الوحيد . .

التفتت عائشة الى حيث يؤدى زوجها الصلاة . . لرات ! ! . . جمع من جنود الاعداء . . انهم طلابنه . . مدججون بالسلاح ، يوجهونه الى صدر ذلك الشيخ . . الواقف بين يدى الله . . الاعزل من السلاح الا من الايمان لتحول بينه وبين اولئك الطغاة . . ومن خلفها يجرى ذلك الصغير . . انه يوسف . . الذى لا يعى ما حل بابيه المسكين .

كان احدهم يهدد ذلك الشيخ ويساله عن المجاهدين الذين نزلوا بداره الليلة الماضية ؛ الذين اطعمهم ومدهم بالسلاح . . لم يجب ذلك الشيخ المتعبد ، واسترسل يرتل

تلك الآيات البينات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون » دون اكتراث الى افواه البنادق المصوبة اليه .

عرف يوسف بفطنته ما يدور بخلد اولئك الاشرار . . وفى لمحة البرق ، قفز على ذلك الغاصب الذى يهدد اباه ، وامسك به وصرخ فى وجهه . . « ماذا تريدون منا ؟ . . اتركونا وشأننا ايها الجبناء الانذال . . » . . . واراد أن يزيد لكنه لم يمهله وضربه بأخمص بندقيته . . . وسقط الصغير مغشيا عليه . .

اطلقت عائشة الام صرخة مع صرخة ابنها الصغير . . رددتها سفوح الجبال . . تنظر الى زوجها الحبيب . . وارتمت على يوسف الصغير ، لتنقذ روح ابنها الوحيد .

عاد الجندى الى التهديد . . . وجن جنونه من اصرار ذلك الشيخ على اتمام صلاته . . ضغط على الزناد لتنطلق اول الرصاصات مع كلمة « الله اكبر » . . . حاول الشيخ « عطية » ان يسجد سجدته الاخيرة ، لكنها الرصاصات التوالية دفعته الى الخلف ليسقط على جذع شجرة الخروب . . امتدت يده اليمنى ليمسك بالمصحف الشريف الذى لا يفارقه ابدا . . ويده اليسرى الى قلبه . . حيث استقرت اولى الرصاصات ، ومن حيث صدرت كلمة « الله اكبر » .

بكت عائشة وبكى يوسف الصغير وبكت الطبيعة معهم وصدر عن اوراق واغصان شجرة الخروب ومرور الرياح بها ، صفير كانه الناى يطلق انغامه الحزينة فى سكون الليل الرهيب .

ضم الشيخ ابنه الى صدره وقال . . . والكلمات تتعثر بين شفتيه . . . « لا مال ولا قصور اتركها لك . . انها يندفنونى تحت الشجرة بجوار البيت . . غدا ستكبر يا يوسف وتاخذ بثارى . . انها الحرية ، ثمنها غال . . وهو ارخص ما يكون على النفوس المؤمنة . . والقلوب المخلصة لله وللوطن . . اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . . ان الموت حق ، والحياة باطل . . وانا لله وانا اليه راجعون . . » وفارق « عطيه » الحياة .

ارتمت عائشة على صدر زوجها المخلص الوفى . . ابنها بين ذراعيها . . تبكى زوجها وتودعه الوداع الاخير . . . كما تملت الشمس عند الافق منذ قليل . . انه « عطيه » لن يعود . . . لكنها الشمس ستعود وتحيا ، لترسل نورها من جديد .

تمر الايام وتمضى السنون . . ويسدل الزمن على الحوادث ستار النسيان . . . نعم ؛ انها الايام التى تجعل من الحوادث المؤلمة ؛ خيوطا واهية ضعيفة ؛ لا تلبث ان تنقطع لتضيع فى زحام الحياة . .

كبر يوسف . . ونما معه ذلك الايمان الذى اورثه له ذلك الشيخ . . وكان كل مغرب ؛ يقف تحت تلك الشجرة . . . شجرة الخروب . . بين يدى ربه ليصلى ركعتين على روح والده الشهيد . . وكان يختم صلاته بالدعاء ، ويقول « لا لسن انساك ابى . . انه الثار . . الثار لتلك الدماء الزكية الثار لعرضى . . الثار لوطنى . . سأثار لاغسل ذلك العار . . انها الحرية ، ثمنها غالى . . وهو ارخص ما يكون على القلوب المخلصة والنفوس المؤمنة . . »

بزغت شمس ذلك اليوم . . وعم الكون الضياء . . وتقهقر الظلام الذى غمره عددا

من السنين . . ذهب يوسف الصغير وامه الى مقبرة المجاهدين . . حيث القبر الذى يرقد فيه الشيخ « عطيه » . . واستنشق يوسف عبير ذلك النسيم . . . نسيم الحرية . . الذى استنشقه الآباء والاجداد منذ ان كانت ارضهم مهدا للحب والسلام . . جلست امه بجوار القبر وعيناها تفرقهما الدموع . . مدت يدها ، وتناولت أعز ذكرى تركها زوجها المؤمن . . انه المصحف الشريف . . ورأى يوسف تلك البقع الحمراء : التى تركتها اصابع والده الشهيد .

خيل ليوسف ان « عطيه » يناديه من داخل القبر . . يوسف . . يوسف . . لقد كبرت يا يوسف . . خذ بثارى . . وثأر وطنك .

انتزع الصغير المصحف الشريف من يدى امه ورفعه الى السماء . . واقسم . . « اقسم بالله العظيم . . انى سأثأر يا ابى » . . ورددت تلك الجبال وسفوح ذلك الوادى الكبير . . جلجلة القسم العظيم . .

انحنى يوسف على امه ليعطيها قبلة الوداع . . وسلمت امرها لله . . وامتشق «الثائر الصغير» السلاح . . سلاح ابيه . . امتشقه فى عزم واصرار . . نعم ، عن عقيدة وايمان . . وذهب الى أين ؟ . . الى هناك . . الى الجبل الاخضر . . قلعة الاحرار ، ومعقل الثوار . .

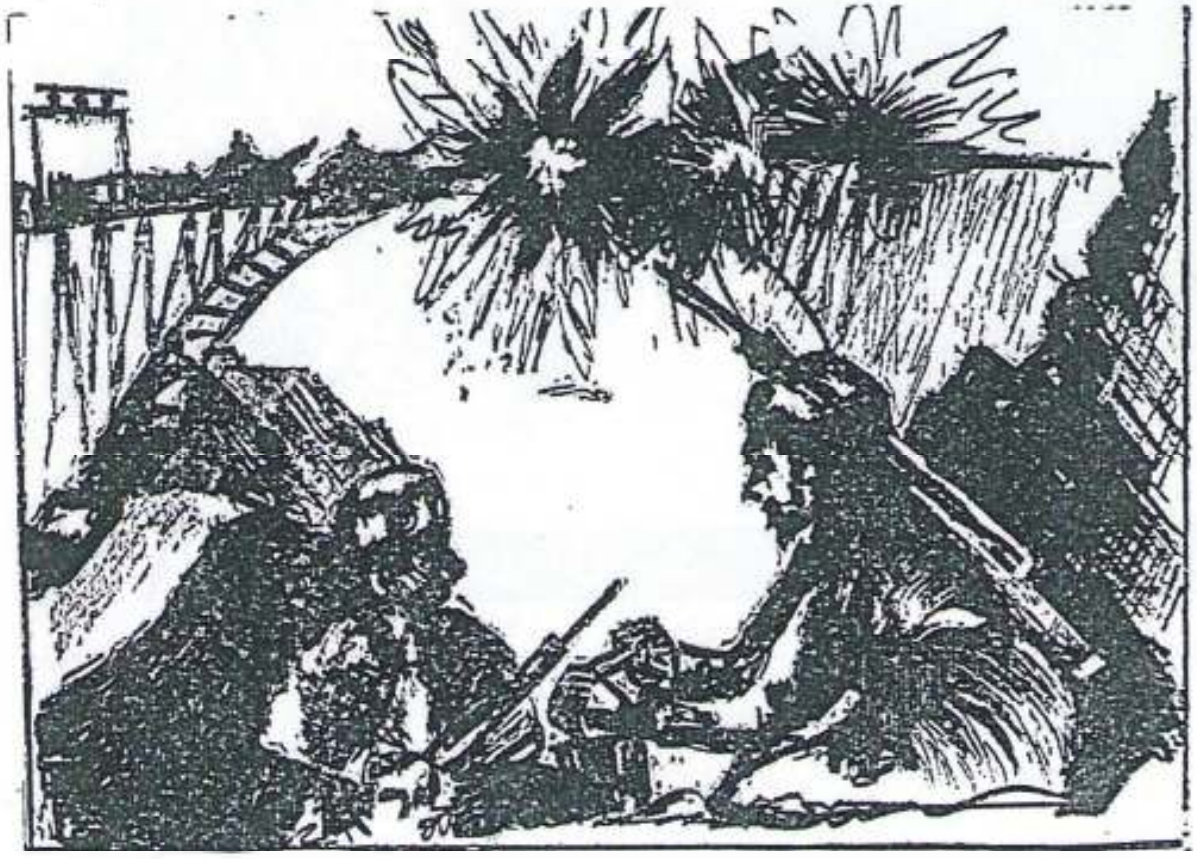

١٩٦٦ السنة الثامنة العدد الخامس

قصة العدد

وسام البطولة

بقلم : الملازم عبد الونيس محمود

« كان حسن مقداما يتحين الفرص للدفاع عن حياض وطنه . . ثم اتيحت له الفرصة المواتية فنعم استقلاله الحكيم »

الجو مكفهر يحمل فى اطوائه تباشير الشتاء . . ذلك الذى هبت بواكيره تنبهنا بقدومه رياح تصفر بين الاشجار وسماءعالية قلما تخلو من السحب . . تلك السحب المعتمة المنطلقة صوب الجنوب . . . . المسترسلة فى خشوع واذعان بعدما غلبت على امرها واخفقت فى المركة الحامية ضد الرياح القاسية .

على هذه الصورة المرسومة التى خطها قلم الله فى صفحة الوجود وعلى هذا المنظر بالذات استقرت عيناى ولم تزحزحها الاخواطر جارفة اجتاحتنى فى تلك الفترة حيث نقلتنى الخواطر والذكريات الى سنة العالم . . . الى تلك الحروب الطاحنة لم تمض على مرورها سوى سنوات قلائل واعترف اننى كنت مدفوعا عندما اخذت اقلب فى سجل التاريخ صفحة نضر ليبيا ـ بلدنا الحبيب ـ ان تكون من خطتنا وفوز عشورى عليها امسكت بشريط احمر قان صنعته دماء زكية طاهرة اريقت جميعها على مذبح الحرية وبينما كنت امسك ذلك الشريط . . لم اشعر الا وانا اقف على حين غرة على احد المشاهد الفظيعة . . بل احد المشاهد الهمجية الوحشية التى لم يتورع الاستعمار ـ ولن يتورع عن القيام بها مادامت اقدامه تدنس ارض الوطن وابت الظروف الا ان تكون تلك الوقعة هى انقطاع الشريط . . وحاولت قصارى جهدى ان ارجعه الى سيرته الاولى فلم افلح . . وكان الوقت ساعتئذ قرب الغيب وان كنت لا اتذكرجيدا وضقت ذرعا بالصمت الذى غرقت فيه وشعرت بالدقائق تمر بطيئة مملة . . ولم ادر الا وقد خلصت مما انتابنى من صمت وسكون من قبل بعض الاصحاب جاءوا الى لنذهب سويا الى شيخنا المعتاد وذلك الشيخ الذى طالما اثار فى نفوسنا الحمية واشعل فيها نار الحقد والكراهية على الـ اعداء الانسانية اعداء السلام والارض واعداء الحرية على المستعمرين اينما كانوا ـ وعلى الايطاليين بالذات وعهود ظلمهم وطغيانهم وذلك مما يقصه علينا من قصص الجهاد ، جهاد شعبنا الليبى وقتاله المستميت فى سبيل شرفه وعزته . . تلك القصص التى تفيض شهامة وجراة فلما قدمنا بادرنا اليه بالتحية ترددها وفى شىء من الرزانة والثقة ولم يسال عن الامر الذى دعانا الى المجىء اليه فهو بالطبع معتاد على ذلك وفى هذه المرة اجمع الاصحاب رايهم على ان نساله عن صديق حميم له فارقه بينما كان فى زهرة العمر وربيع الحياة . . وفى سرعة البرق التففنا حوله بشبه دائرة نساله عن . . . ونحن نردد اللعنة على الايام التى فرقت بينهما وعلى الاقدار التى شتتت شملهما . . نساله فى لهفة شديدة ـ وكلنا شوق لسماع قصته وكلنا عيون وآذان وقد اخذ كل منا يحجز لنفسه مكانا ليكون اقرب السامعين اليه . وكان الشيخ ابوحامد جالسا على كرسى فأزاحه جانبا وجلس متربعا على حصير مهلهل ثم سرح بنظره قليلا والقى نظرة خاطفة .

كانت الشمس آنذاك مسرعة فى خطوها لتأوى الى خدرها ولم يلبث ان لامس قرصها الاحمر خط الافق وترنحت قليلا قبل ان تغيب حيث واجهتها السحب من كل حدب وصوب ، وثبتت اظفارها فى عنقها لتخنقها فى غير رحمة أرشفقة ، ومدت الشمس خيوطها الواهنة الضعيفة لتتعلق قليلا رتما تطلب النجاة . . وكنت وقتذاك مشدوها شاخصا ببصرى الى ذلك الشعاع الباهت الذى لم يبق من نوره الا ظلالا خفية تملا السماء بعدها ذلك الهدوء الحالم . . الذى تخلد اليه اذا ترامت لها طلائع الظلام ثم . . ثم انفرجت شفتا « ابى حامد » بعد وجوم لم يستمر اكثر من ثوان معدودة فقولان . تعارفنا وصديقى منذ عهد الصبا الغض ونشات بيننا اواصر الصداقة والمحبة قوية كنا لا نكاد نفترق حتى فى ساعات النوم ودخلنا مدرسة تعليم القرآن فى زاوية « سيدي اسماعيل » بقرية القائدية منذ الصغر جنبا الى جنب نغدو ونروح معا ، كل ما نملك . . . امالنا واحدة . . وتفكيرنا واحد ترفرف علينا السعادة باجنحتها الهينة اللطيفة وتغمرنا الغبطة من كل جانب والامل ينير لنا طريقنا نتتبع خيوطه الفضية الخارقة لافق اليأس فتبدده وتزيحه عن طريقنا الآمنة المطمئنة وجعلت الايام تنساب فى هدوء كما ينساب الماء فى الجدول . . . ومرت السنين تلو السنين وجاءت الحوادث اثر الحوادث واخذنا نرتقى من فصل الى فصل ان كان هناك نظام الفصول ـ وهكذا قضينا شطرا من شبابنا الى ان قاربنا اجتياز اول مرحلة من مراحل تعليمنا او بالاحرى ختام اول جزء من اجزاء القرآن وهناك تخليت انا عن مواصلة الدراسة لسوء الحالة التى تتغلغل فى ربوع البلاد اما صديقى فكان يداعب فى نفسه حلما لذيذا لم يلبث ان اصبح املا تدفعه اليه ظروف الحياة نحقق امنيته الغالية التى ما فتىء يرنو اليها منذ سنوات خلت . . وهو ان يكون جنديا فى جيشنا الباسل اذ كان فى تلك الايام قد فتح ابوابه يستقبل ابناءه الابرار لخدمة بلادهم العزيزة وسرعان ما انخرط فيها راضى النفس مرتاح الضمير يكد ويعمل آناء الليل واطراف النهار . . دون ملل او سام جد دائب ونشاط متواصل ثم اعتدل « ابو حامد » فى جلسته بعدما تململ يمنه ويسره ومسح جبينه المتصبب بالعرق بمنديل اخرجه من جيبه . واتكا على الكرسى الذى بجانبه واستمر فى حديثه عن صديقه « حسن » فقال اتدرون ما الذى حدث بعد تخرج صديقى من الاشهر المفروضة على كل جندى . . . حيث يتدرب خلالها على الاعمال الحربية لكى يكون بعد ذلك اهلا لمواجهة الاعداء ولم ينتظر الاجابة من احد وبلهجة يشوبها شىء من الثاقة والحقد اجاب لقد اراد المستعمرون الطغاة احتلال بلادنا لقد ارادوا بنا كيدا كبيرا ولكن الله ابعد لهم اكثر من ذلك فلقد بداوا يمطرون بلادنا بوابل من نيران مدافعهم وظنوا اننا لن نقف فى وجوههم كالاسود الضارية لنردهم على اعقابهم خاسرين لقد خاب ظن الفجار لما ان وطئت اقدام الاعداء تدنس ارضنا الطاهرة وبدات جموعهم تعبث فى غطرسة واستبداد وحتى هب شعبنا الابى وجرى فى عروقه النابضة دم

العروبة الصادق وهب شبابا وكهولا واطفالا ونساء ليدافعوا عن بلادهم العزيزة فهي التي بها شب كل منهم وترعرع . . وفيها ذاق طعم الحياة عاش تحت سمائها وفوق ارضها وشرب ماءها واكل خيراتها اينتركها فريسة للمستعبد الظالم ! كلا والف كلا لن يتركها ولن يبرح مكانه حتى يرتوى ترابها من دمه لانه يؤمن بحقه فى الحياة الكريمة . . فهو الشعب الذى وضع نصب اعينه التصميم على الحياة الحرة الكريمة .

اذا الشعب يوما اراد الحياة
فلا بد ان يستجيب القدر

ولا بد لليل ان ينجلى
ولا بد للقيد ان ينكسر

هكذا حارب شعبنا وقاتل ولا تنسوا ان اول من لبى نداء الوطن ونداء قائده الفذى هو جيشنا الفتى . . فالجيش فى جميع البلدان هو العمود الفقرى الذى عليه يعتمد . . وعليه يعلق الامال . وبمقدار ما للجيش من قوة ــ اقصد قوة التسليح والعدد والعدة ــ نعم بمقدار ذلك تكون للمواطن هيبة او احتقار وللبلاد عزتها او ذلها وباختصار استطيع أن اقول فى هذه الايام بالذات ــ ان امة بلا جيش كجسم بلا روح وبالتالى فامة ذات جيش ضعيف كجسم مريض عليل فى طريقه الى الفناء .

وجيشنا آنذاك لم يخيب ظن بلاده فلقد كان دائما عند حسن الظن به لقد هب يذود عن كيان الوطن حيث كانت الافواج الاخيرة فى المقدمة اذا اثار الطغاة فور تخرج الفوج الذى صادف الحظ ان يكون صديقى من بين افراده ووقف الجميع للدفاع ولاول مرة فى حياته يخرج صديقى ليؤدى واجبه الناط به واجب الملقى على عاتقه ولاول مرة ايضا يقف ليخلص وطنه الحبيب من براثن الاستعمار ــ فلقد كان (حسن) مقداما يتحين الفرص للذود عن حياض وطنه . . لم اتيحت له الفرصة الواتية . . . فنعم استقلاله الحكيم . وظل صديقى يتفانى فى خدمة بلاده ويقوم بما يفرضه عليه الواجب المقدس لا شيء يمنعه ذلك ولا شيء يشغله عنه يذيق المستعمرين عذابه ويوجه اليهم ضرباته المتتالية ويلقنهم وزملائه دروسا تثبت لهم ان بلادنا لم تكن يوما لقمة سائغة لمصاص الدماء . . وان الليبيين البواسل ليس من عاداتهم طأطأة الرؤوس امام ضرب سياط المستعبد الدخيل . . وهم الذين لديهم الموت شرف وفضيلة . . اذا كان فى الحياة الذل والهوان ولو اغرقوا فى بحور من الذهب والفضة فالشريعة لديهم . . حياة يسودها الهناء او ممات يشرفه الاقدام والفداء .

لقد ابلى صديقى فى المقاومة بلاء حسنا . . حتى اشتهر بين الجميع . . وأصبح مضربا للامثال فى الاقدام والشجاعة عند ابناء وطنه . . موضع رعب وفزع عند المستعمرين . . واخذ صديقى يزداد ثباتا فى الوقوف امام خصومه يوما بعد يوم لم تهن له عزيمة ولم تخر له قوة ولم تلن له قناة . ثم وكل اليه امرة احدى الجماعات من الجند وكلت اليه قيادتها ورئاستها فازدادت رغبته واخذدمه يغلى بجسمه غليان الماء فى المرجل . . ودب فى جسده الحقد والكراهية للاعداء دبيب الكهرباء فى اسلاكها وظل يدبر الخطط . . ينصب الكمائن يشن الهجمات . . يذيقهم بذلك كله سعير نيرانه المنبعثة من بندقيته وبنادق انفار جماعته البواسلين فلما وصل (ابو حامد الى هذا الحد من كلامه تنهد . . . من اعماقه . . من قرارة نفسه وروحه . . ودون ان يقطع سيل حديثه المزوج بانفاسه اللاهثة اكمل قصته او قصة صديقه .

ولكن دون الاسف منى او منه او الندم على ذلك . . ثم سكت . . واردف بعدها يقول . . ولعلكم تسألون عمن انا آسف واجيبكم فى صوت واحد تدل نبراته الرنانة . . على الحرص الشديد الذى يملؤنا ان لا بد من الوقوف على نهاية الحديث . . . وكان جوابنا مدغوما فى شبه سؤال . . . على اى شيء تأسف يا سيدى ؟ فاستطرد حديثه (عندما ولى الاعداء فى احد المعارك الدامية هاربين امام تلك الجماعة القليلة فى عددها وعدتها وبينما كان صديقى يحتسل الفرحة كعادته دائما فى كل معركة يقودها اذا برصاصة طائشة تصيبه فى ذراعه . . وانتهى الامر . . نعم انتهى بقطعها وكتب له فى سجل الاقدار ان يعيش باقى ايام حياته بيد واحدة . . واراه الآن يحمل اشرف وسام . . واى وسام ذلك ! ان وسام البطولة . . حامله يفقد ذراعه التى ذهبت لنداء الوطن وتضحية من اجله وهو الآن فخور بنفسه وكلما تذكر الماضى ونظر . . ماذا يرى . . يرى علم الحرية يرفرف خفاقا عاليا فيهزه الاعتزاز وينظر الى يمينه . . الى ذراعه المقطوعة قائلا : نعم لم يرتفع ذلك العلم الا على بقايا هذه الاذرع وميلاتها .

وسكت شيخنا قليلا ريثما يستجمع انفاسه ثم اضاف قائلا :ــ

«يا ابنائى : ان اجدادكم وآباءكم سطروا فى الماضى من قصص الكفاح ضد المستعمر الدخيل ما كتب لهم الخلود . واليوم جاء دوركم . . كلكم شباب يتقد حماسه ووطنيه ويدرك عن ايمان صادق معنى نداء الواجب المقدس . . فى بلد فى امس الحاجة الى سواعد ابنائه . . ولا سيما انتم شببتم فى عزة وكرامة فلا غرو ان وقفتم لحماية ارضه . وامجاده . . واستقلاله . . ضعوا دائما نصب اعينكم حكمة القائد المحنك . ان احتفاظك باستقلالك اصعب من حصولك عليه . ولعل محاولات الاستعمار التى حدثت وتحدث كل يوم وما يستفاد منها من دروس وعبر كفيلة بان تجعلكم احرص من يكون على العمل من اجل الاحتفاظ بالاستقلال .

مجلة

الكلية العسكرية الملكية

مجلة عسكرية ثقافية

تصدر سنويا

السنة التاسعة	العدد السادس	اغسطس سنة ١٩٦٧

هيئة التحرير

المقدم الركن	جلال الدغيلي	رئيسا
الرائد	اسماعيل الصديق	عضوا
الرئيس	ادم احمد	عضوا
الرئيس	جمعة عوض	عضوا
الرئيس	مصطفى دريد	عضوا
الملازم اول	عبد الونيس محمود	عضوا
الملازم اول	علي نصر	امينا للصندوق

القيادة العسكرية دور الأبطال

بقلم : الملازم عبد الونيس محمود

(انظر الى جنودك نظرتك الى أطفالك ·· ستجدهم يسيرون خلفك الى أعمق الوديان دون اكتراث بالمخاطر والصعاب ·· واعطف عليهم تماما كما تعطف على ابنائك الاعزاء فسيقفون الى جانبك حتى الموت · على انك كلما كنت متساهلا فانك ستكون عاجزا على ان تجعل الاخرين يشعرون بسلطتك ·· وانك كلما كنت رقيق القلب ستعجز عن تنفيذ اوامرك وعن قمع الفوضى كذلك ·· واذا كان الامر كذلك فلا بد وان يصبح جنودك اطفالا فاشلين لا يصلحون للقيام بأى عمل مهما كان) ·

هكذا يجب ان ينظر كل قائد ــ باختلاف المستويات الى جنوده ، نظرة فيها من الاخلاص والصدق بقدر ما فيها من العدالة ·· والعطف ·· والحزم ، واضعين نصب اعيننا ان اساس القيادة ان ينال القائد ثقة الذين يقودهم ·· على ان يكون اخلاصه من ذلك النوع الذى ينبعث من القائد من تلقاء نفسه دون ان يحس أو يشعر به ·· فهو فيه جبلة طبيعة لا يملك غير ان يكون مخلصا ونعنى بالصدق فيه ذلك الولاء التام للقضية التى يخدمها دون ان يخالجه التفكير فى شىء اسمه الجزاء·

واذا كان العدل اساس الملك ··· فلا اقل من ان نجعله هنا شرطا اساسيا يستطيع القائد من خلاله ان يكتسب قلوب رجاله ·· بل وافكارهم ·

يضاف الى ذلك كله عطف فى غير ضعف ·· وحزم فى غير شدة · ويمكننا فى هذا المجال ان نقول لكل قائد عسكرى (لا تكن لينا فتعصر ·· ولا صلبا فتكسر)

ومما لا شك فيه انه لن ينجح اى قائد عسكرى نجاحا تاما بأى حال من الاحوال ، ما لم يكن محترما يعتمد على حكمته الشخصية وابداعه الذاتى ·· قادرا على ان يوحى بآرائه الى الذين يقودهم بل ويثير الحماسة فى قلوبهم فيكون موضوع اعتمادهم وثقتهم ·

واذا ما تطلب البحث منا فى موضوع القيادة العسكرية تحديد تعريف لها فاننا نجد قائدا من كبار قادة الحرب العالمية الثانية لازال حتى يومنا هذا على قيد الحياة يحدد تعريفها فى كلمات بسيطة مختصرة ، ولكنها دون شك اصابت من الحقيقة الشىء الكثير ·· ذلك هو قائد الجيش الثامن فى معركة العلمين ــ الفيلد مارشال مونتجمرى ــ يقول تعريفا لها : ــ

(القيادة هى الارادة والمقدرة على حشد الرجال والنساء فى سبيل غاية مشتركة ·· مع توفر السجية التى توحى بالثقة)

ولا ريب انه لا فائدة فى أن تتوفر لديك المقدرة كقائد فى وقت تفتقر فيه الى الارادة ·· وهذه الاخيرة هى الثبات عند الشدائد وهى السيطرة على الاحداث التى تواجهك والتغلب عليها ·· وهى ايضا الجرأة والاقدام لاقتحام المجهول · ويجب ان نتذكر دائما بأن المقدرة والارادة هما صنوان يصعب التفريق بينهما ·

ولكن ما السجية ؟ اذا اردنا التعبير عنها بايجاز فهى ان تعرف جيدا ما تنوى وتريد ، وان تملك العزم على عمله بطريقة توحى بالثقة التامة فى نفوس جنودك اقول الثقة مرة ثانية لانها ــ كما اسلفت القول ــ اساسا للقيادة ·· فهى هناك دليل قاطع يؤكد صحتها لا اجد حربا ضروسا اقرب الى اسماعنا من الحرب الكونية الثانية ·· تلك التى دار جزء من رحاها فى سمائنا وفوق ارضنا ·· ولا اجد قائدا رفعته حنكته العسكرية وكفاءته فى القيادة الى مصاف القادة العظام واصبح رمزا لحرب الصحراء لا بد ان يذكر اسمه كلما ذكرت ــ ليبيا ــ وما حدث فيها من معارك ومواقع تاريخية ·· ذلك هو ثعلب الصحراء المعروف (المارشال روميل) الذى قاد الجنود الالمان بفضل ما يتمتع به من ثقة الى النصر فى معارك كثيرة · واذا كان (هتلر) قد غرس فيهم ان (الجندى الالمانى لا يتراجع مطلقا) فان الذى جعل الفيلق الافريقى برمته يتسابق الى الفناء

ليفك حصار طبرق الشهير هو رومل القائد ٠٠ والجندى المقاتل ٠٠ والمفكر الصائب ٠٠ هو العبقرية الفذة التى أثرت فى نفوس جنوده تأثيرا عميقا ٠٠ فنفذت عمته العليا الى اعماق افئدتهم ووثقوا به وثوق المؤمن فى وجود الله ٠٠ بل كانت قدرته المبدعة وارادته الجبارة ٠٠ وانتصاراته المتوالية سببا فى وثوق جنود الاعداء به ، وفقدانهم الثقة بقادتهم ٠٠حتى اصبح اسطورة لديهم ٠٠ اصبحت كلمة (رومل قادم) تعنى القدر المحتوم ٠٠ ومن عجيب ما قيل عنه انه لم تخلق بعد الرصاصة التى يمكنها ان تصيبه وفى سنوات المصير يقطع الشك باليقين عندما نجد اغرب امر يصدر فى تاريخ الحروب من قائد الى جنده ٠٠ نعم انه (الجنرال اوكنلك) القائد العام لقوات الحلفاء فى الشرق الاوسط يعطينا فكرة واضحة عما نحن بصدده (الى القادة وجميع الضباط ٠

ان كل ما نخشاه ان يعتبر جنودنا (رومل) رجلا ساحرا ترتعب منه قواتنا ٠٠ لانهم يتكلمون ويتحدثون عن شخصه كثيرا ٠٠ انه ليس رجلا فوق البشر مطلقا بالرغم مما يتمتع به من همة وقدرة بالغة انه لمن المؤسف حقا ان يرى فيه رجالنا قوة خارقة فوق الطبيعة ٠٠ انني اطلب اليكم جميعا ان تعتمدوا كافة الوسائل الممكنة لازالة هذا التأثير ٠ ان رومل ليس شيئا اخر غير كونه قائدا المانيا عاديا ٠ ويتوجب قبل كل شيء منع ذكر اسم (رومل) دوما عندما يراد التحدث عن العدو فى ليبيا ، اذ يجب ان يقال : الالمان أو قوات المحور او بالاختصار العدو فقط دون ان يذكر اسمه فى مقدمة القول ٠ ٠

يرجى تنفيذ هذا الامر بصورة قطعية ، واعلام كافة قادة الوحدات ٠٠ ان الامر فى منتهى الاهمية والخطورة من الناحية السيكلوجية ٠

وينتهى امره ولكنه يذيله بعبارة : (لست غيورا من رومل) الامر الذى يستفحل خطورة على القائد نفسه ٠

ونحن وان كنا لسنا بصدد دراسة لشخصية رومل الا اننا اردنا منه مثالا حيا لشخصية القائد العسكرى الناجح الواثق بنفسه ٠٠لان القائد هو المثل الاعلى لجنوده وهو المرآة الصافية التى عليها تنعكس بكل صدق واخلاص وامانة أعمال مرؤوسيه ٠

لقد اكتسبوا الثقة من مقدرتهم على النظر فى كل قضية نظرة فاحصة لاكتشاف الاصول الجوهرية اللازمة والضرورية لحلها بنجاح ٠ ان ثقة هؤلاء القادة بانفسهم هى التى الهمت جنودهم القوة وجعلتهم يشعرون انهم اقوى من العدو ٠٠ بل هى التى ولدت فيهم الارادة القهاره والهبت حماسهم فجعلتهم يؤمنون بأن ما يطلب منهم يمكن تحقيقه ، ويذهب احد القادة فيقول (هذه الثقة لا يمكن ان تتولد ـ ولم تتولد ابدا ـ الا بنتيجة تماس القادة الشخصى بجنودهم)

كنت أرد بثلاث على ثلاث : ـ

من قال لا أقول قلت له حاول ٠٠ ومن قال لا اعرف قلت له تعلم ٠٠ ومن قال مستحيل قلت له جرب ٠ هذه اجابة لقائد محنك ٠٠ وصاحب عبقرية عسكرية جديرة بالبحث والدراسة ٠٠ اجابة لنابليون ـ عندما سئل : كيف استطعت ان تولد الثقة فى جنودك٠٠ وهو بهذه الاجابة يساند حقيقة القول السابق بانه من غير الممكن ان تتولد الثقة دون تماس القائد الشخصى بجنده وبالتالى لابد من توفرها لدى القائد كى يستطيع صبغها على جنوده والا فمن البديهى ان فاقد الشيء لا يعطيه ٠ على ان القيادة العسكرية كانت ولا تزال مشكلة كبيرة طالما اختلفت الاراء فى ايجاد حلول صحيحة لمعضلاتها والقيادة العسكرية اليوم تختلف عنها بالامس ومن غير المشكوك فيه ان نقول :

ان القيادة العسكرية فى هذه الايام ازدادت تعقيدا عندما اعترضت سبيلها السيطرة السياسية ٠٠ عندما اصبح الزعيم السياسى يوجه المعركة وهو جالس فوق كرسى زعامته دون ان يترك الامر للقائد بميدان المعركة والذى هو ادرى بشعابها ٠ واذا ما تطرقنا الى ايضاح الفرق بين القائد العسكرى والزعيم السياسى فاننا نجد ان الفرق كبير والبون شاسع ٠٠ ذلك ان القائد (يأمر) والزعيم (يقنع) القائد العسكرى يستطيع ان يقود الذين يراهم قيادة مباشرة ٠٠ فى حين ان الزعيم السياسى يستعمل اساليب الاستمالة والاقناع بطرق قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة لكسب الرأى العام على اتباع ارائه وافكاره ٠٠ وهذا ما يجعله احيانا يصدر أمرا الى القائد فى ميدان المعركة دون ان يعرف مقدار نصيبه من الصواب والخطأ من الوجهة التعبوية (التكتيكية) أو الاستراتيجية ٠٠ كل ما يهمه فيه ان يحتفظ له هذا القائد بالارض ٠٠ أو يستولى على مكان ما لمجرد اثارة للرأى العام دون ان يدرك انه بذلك اجبر قائده على اجراء مناورة هى فى غير صالحه ، ولترجح كفة النصر فى صالح اعدائه ٠٠ وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة :

لقد أمر (ويفل) بموجب ارسال قوات الى اليونان لصد غزو هجمات الالمان ٠٠ واطاع ويفل الاوامر وارسل القوات المطلوبة ٠٠ دون ان يرتفع صوته بالمعارضة وهو قائد القوات البريطانية فى الشرق الاوسط فى ذلك الحين ٠٠ وهو الوحيد الذى يعرف

مقدما ان التدخل البريطانى فى اليونان لم يكن له امل فى النجاح من الوجهة العسكرية ·· وحدث ما توقع·· بل نتيجة لاضعاف قوته فى برقة طردت حتى الحدود المصرية ·

وعندما يبرق (رومل) وهو العقل المدبر الذى لا يخيب الى زعيمه فى (برلين) بعد ان فشل فى معركة علم حلفا او (ستالينجراد الصحراء كما يسمونها) طالبا الامر بالانسحاب ·· ويأتيه الرد تهمنا فيه كلمات اخيرة تقول : (ليس امامكم سوى طريق واحد تشيرون بها الى جنودكم ·· وهى طريق الظفر ·· أو الموت) ·

وينفذ (رومل) الاوامر وتحدث معركة العلمين ·· المعركة التى غيرت مجرى التاريخ ·· وحولت انتصارات الالمان الى هزائم ·

على أنه انصافا للتاريخ يجب ان نقول : انه مع نفاذ الوقود وخيانة البحرية الايطالية من جهة ·· ومن جهة اخرى دبابات (شيرمان) التى اندفعت تزمجر حاملة فى ابراجها النصر هى التى انهت مرحلة من الحرب الافريقية ظهرت فيها شجاعة ودهاء واقدام قائد المانى وثق بنفسه ·· وبه وثق جنوده ·

نعود فنقول انه على القائد العسكرى فى ميدان القتال ان يحيد عن الهدف الاصلى الذى من اجله نشبت الحرب وعلى الزعيم السياسى ان يترك له مطلق الحرية فى سبيل تحقيق هذا الهدف ·

والذى لا شك فيه ان اصعب انواع القيادات هى تلك التى يتحتم على القائد فيها ان يواجه من يقودهم وجها لوجه ليتحدث اليهم ويخبرهم بنفسه ماذا سيفعل ·· وما هى خططه ·· وماهى دوره ودورهم فى الحركات المقبلة ·· على ان يكون واثقا من انه سينفذ كل كلمة يقولها ·· اذا كان كذلك فهو أهل لان يقود · والا فمآله الفشل · اقصد من هذا النوع القيادة العسكرية اصعب قيادة ظهرت منذ بدء التاريخ حتى اليوم ·· واذا ما استطاع القائد العسكرى ان ينجح فى ميدانه فهو كفيل بان ينجح فى اى ميدان اخر بجدارة وكفاءة وليس ادل على ذلك من نظرة نلقيها على حكام العالم اليوم لنجد جلهم ممن انضوى تحت لواء الجندية فخدم تحت رايتها بشرف بعد ان علمته معنى العزة والكرامة والتضحية والفداء فقاد جنودها فى ساحة الوغى الى النصر ·· وجاء بعد ان اصبح زعيما ليقود شعبا برمته الى قمة المجد وذروة الخلود · ولعل قانون التجنيد الاجبارى التى وضعت له كافة الامم النظم والقوانين وجعلته ضريبة على كل مواطن ليتقن معنى القيادة ·· ومعنى المسؤولية ·· ويعرف ان التهاون فى الواجب جريمة لا تغتفر ·· وانه ما من انسان تسول له نفسه ان يمديده طالبا حقوقه قبل ان يؤدى واجباته ·· لعل ذلك يرينا ان الجندية هى عبارة عن بوتقة يجب ان ينصهر فيها كل مواطن حر شريف يريد لوطنه · القوة والمنعه ولامته العزة والكرامة ·

واخيرا يمكننى ان اقول بصدق ودون تمشدق او نفاق ان الجندية بصمابها خضم زاخر بالامواج ·· والكفاح المتواصل هو طوق النجاة فيه ··والذى اعرفه دراسة لتجارب كبار القادة لا تجاربى· ان القيادة العسكرية بيداء مترامية الاطراف لا يمكن لاحد ان يصل الى الواحة الوارفة الظلال فيها·· لا عن طريق درب طويل ·· طويل وشاق ولكنه درب الابطال ·

حكم

الشجاعة فضيلة بين رذيلتين

* * *

ان المقياس الحقيقى لاخلاق الرجل هو عمله الذى يقوم به فى خلوته حين لا يكون عليه اى رقيب ·

* * *

لان تكون فردا فى جماعة الاسود خير لك من ان تقود النعاج ·

* * *

صوت الضعيف اعلى الاصوات ·

* * *

الذين يجعلون الرذيلة محبوبة خير من الذين يلوثون الفضيلة ·

* * *

عدو عاقل خير من صديق جاهل ·

* * *

الحق اقوى من الباطل ·· والعدل اقوى من الظلم والثوار اقوى من الجلادين

(الصور السابقة مجرد أمثلة من نماذج المجلات الداخلية التي كانت تصدر بالكلية، والتي شارك فيها سواء أثناء دراسته طالبا، أو بعد تخرجه حين أصبح ضابطا مدرسا بالكلية)

وبعد التخرج تم تنسيبه إلى حامية درنه بالكتيبة الخامسة في مدة خدمة قصيره، ثم ما لبث أن تم اختياره مدرسا في الكلية العسكرية كآمر فصيل لتدريس :

* مادة الأسلحة الخفيفة.
* مهنة الميدان.
* المشاة.

(الملازم أول : « عبد الونيس محمود » المدرس بالكلية العسكرية الملكية).

وهكذا إذاً،، فقد كان لا بد أن تستهدفه التُهم فيما بعد، للخلاص منه كضابط مرموق ،،، وكأن إبعاده عن المشهد كان لازما لغرضٍ في نفس يعقوب كما يقال...!.

لقد لاقى الحال الذي أضحى عليه فيما بعد نتيجة كونه مثقفا، مصداقية استخراج الكاتب المفكر صادق النيهوم في قوله : (للثقافة غير الناضجة في بلداننا نفاذ صبر شنيع نتيجة الحساسية المفرطة تجاه وخزات النقد ....!).

وفوق هذا، فإن أبعاد عقلية «عبد الونيس » لا تحصرها حدود الإذعان الإتباعي سواء في مغالاة الضبط والربط بالمفهوم العسكري، أو بمحاكاة التقليد الاجتماعي العام بمفهوم :(نسير كما نجد عليه الناس).

يقول الشاعر« محمد الشلطامي» :

لست نازيّـا ، ولم أحلم بمجد البندقيـة

حينمـا تصبح في مقبـرة الشـرق إلـهـا..!

فأساس محنته إذاً ، أنه عندما أضحى جنديا كان في الأساس مثقفا ،،، ولا شك أن المهنة لم تستطع أن تحاصر الصّفة،،، لقد استأثرت عليه الثانية فلم تتركه مُميّزا بقدر ما جعلته مُبتلى، رغم أنه من دقة حرصه وفطنته لم يثبت عليه أي دليل لاشتراكه بمحاولة الانقلاب تلك.

<u>يقول في مذكراته</u> (المنشورة في فصل لاحق في هذا الكتاب) :

(لم يجد المحامي صعوبة في إثبات براءتي، لعدم وجود أي دليل وإثبات في اشتراكي أو تورطي في قضية من نوع التآمر أو غيره وقد طالب في ختام مرافعته عني هيئة المحكمة بإخلاء سبيلي وإطلاق سراحي على الفور، ولكن الأمور جرت على نحو آخـــر.)! و يقول:

(رغم أنني لم أتوقع العدالة من جهة، ألا أنني لم أتوقع الإغراق في الظلم من جهة أخرى... وفي طريق العودة إلى السجن بدأت أعدّ نفسي لتقبل الواقع المرير رغم براءتي التي لا شبهة فيها).

ويفصح في مذكراته عن واقعة هامة وخطيرة، عندما ذكر أن قاضي المحكمة الأولى « الرائد محمد نجم عضو مجلس قيادة الانقلاب » رفض أن ينصاع للضغوط بإصدار أحكام قاسية وخاصة الإعدام ، مما تسبب في إبعاده ليس فقط من رئاسة المحكمة فحسب، بل وأدّت تداعياتها فيما بعد إلى إسقاط عضويته أيضا من مجلس قيادة (الثورة) ، ومن ثم، فقد تم تكليف رئيس آخر للمحكمة يقبل الانصياع للأمر وتنفيذ المطلوب بما يرضي طغيان الساديّة، ولا شك في أن «عبد الونيس » كان ممن يتصدّر قائمة المطلوب إعدامهم ،، وبالفعل ،، فقد صدر بذلك منطوق الحكم الجائر- المُعدّ مسبقا - قاضيا بإعدامه رميا بالرصاص.

وحتى عندما هاجر من البلاد بُعيد خروجه من السجن ، وآثر الاغتراب بعيدا عن الأنظار هروبا من متابعة أجهزة المخابرات وفرق الاغتيالات، ورغم كل الحذر من أن ينكشف مكانه أو يعُرف محله، إلا أن قلم المثقف في يده لم يسكن ! ... كان قلم «عبد الونيس» في مهجره مدراراً

بالبيان، و صوته من كهف اختبائه صادحاً بكل ما يجب أن يقال ، لقد قارع النظام حينما كتب قبيّن، وعندما توالت مسلسلات حديثه عبر إذاعة محطة (الأمل) فأوضح كل ما كان غامضا في شئون الجيش والأسرى والمعذبين بالسجون والمُغتالين،،، ولم يحجب حرصه على حياته بيان قلمه ولا الجهر بتصريحاته كمثقف، من أجل تبصير العالم بالقضية الليبية، ومأساة الممارسات غير الديمقراطية في شعبها، وقد نجح في توصيل رأيه علنا دون أن يتمكن أحدّ من اكتشاف مكانه !... يقول الكاتب د. فتحي الفاضلي في كتابه المشار إليه سابقا (أوسمة على صدر الوطن .. من ضحايا الإرهاب في ليبيا)) عن « عبدالونيس» في مهجره: (له مساهمات صوتية وكتابيّة، خصوصا فيما يتعلق بأمور القوات المسلحة في بداية الإنقلاب بالذات، وتعتبر مساهمته في هذا المجال ثروة من الناحية التوثيقية . فقد جاءت من شاهد عيان عاش الحدث ساعة بساعة. وفي مساهماته على المواقع الليبية مقالات هامة وعديدة). *

تجد في كتاباته سرد لغة الأديب، وعفوية منشأ البيئة، وشفافيّة المواطن المحبّ لبلاده...ولقد قرأنا كل الفصول في عقلية هذا المناضل، طاوياً كل المسافات والأوقات، نحو مخاطبة ضمير كل مثقفٍ محبٍّ للوطن وأهله.

وقد بلغ الأمر من خطورة ما كان يكتبه وما يصرح به وهو في المهجر ضد النظام، أن استُدعِي أخوه (عبدالعزيز ومعه ابنه عادل)، استدعاهما رأس النظام « العقيد القذافي » نفسه في أكتوبر 2007، مبينا امتعاضه من تصريحات أخيه، و من نشاطه بالخارج ضد النظام في ليبيا ، في محاولة للاستمالة من ناحية، وللتخويف والتنديد من ناحية أخرى، لكن ذلك لم يفلح مع أيٍّ من الأخوين في شيء،،، لقد احتمل المهاجر غربته، واحتمل أفراد أسرته مأساتهم من ورائه إلى أن قضى الله أمره بعد زمنٍ ناهز ربع قرن و نيّف ، منذ تاريخ خروجه من البلاد إلى يوم رجوعه بعد الإطاحة بالنظام.

يقول «عبد الونيس» في هذا الشأن : (في اعتقادي أن البؤس يكمن في الأزمة الحقيقية التي قد يواجهها المثقف العربي مع ضميره قبل أي شيء آخر... عندما يجد نفسه في ظرف قاهر أو في وضع لا يحسد عليه، ومخيّر وهو في مواجهة السلطة الظالمة بين أمرين أحلاهما علقم مرّ المذاق... مخيّر بين أن يدافع عن حرية ضميره فيتحوّل إلى ضحية تدعو للرثاء،، أو أن يتنازل عن تلك الحرية ويتحوّل إلى عبد ممسوخ).

---

* نفس المصدر السابق ، من الكتاب (أوسمة على صدر الوطن) صفحة (334).

وهكذا، رأينا كيف كانت نظرته لأزمة المثقف الواقف بين التقاطعات الصعبة: أي إما أن يكون الضحية، أو القبول بالتحول إلى العبد الممسوخ... ولكن المفارقة المؤلمة، أن الاتجاه صوب أحد الاتجاهين (ضحية أو عبدا) يأتي في صيغة إجبار المرء منقادا نحو أمرين أحلاهما مرّ....؟!.

فالتجمد الثقافي يؤدي إلى الاختناق الفكري، ويمنع حقّ التعبير، فتتكدّس وتحتقن مشاعر العداء والغبن، وهذا يقود بالطبع نحو التفكير بالقيام بالعمل السّري ضد النظام.

وقد جرّني هذا التحليل، لأقف أمام سؤال كبير تشعّبت أمامي عناصر إجابته وتباينت،،، ولم أحدد لأي منها تُنسب العلّة، وهو:

(لماذا كنا نخسر دائما، و لمـــاذا)..؟

وحاولتُ استذكار وتعديد كل السّلبيات المتوطّنة في مجتمعنا والتي تسبّبت في كل ذلك، وبالرغم من أنها واضحة لكل العيان، ولا يحتاج التعرّف عليها لكثرة عناء، إلا أن مهمة بحثي لم تكن سهلةً، فتارة أجدني قد نسيت عنصراً أثناء التّعديد، وتارة اكتشف أن ترتيب هذا العنصر في الحصر يجب أن يأتي سابقاً عن ذاك، وهكذا... اختلطت أمامي الأمور، حتى وجدت ضالتي في فحوى مقال شيّق وهادف للكاتب المرموق الأستاذ « سالم العوكلي »، بعنوان (أين خسرنا .. و لماذا؟) نشره بالموقع الالكتروني (بوابة الوسط) بتاريخ 2016/5/29، و أحسب أن المقال المذكور قد جمع الموضوع وأوجزه، بالإضافة إلى أنه أجاب عن سؤالي الحائر،، حيث يقول الأستاذ سالم:

(كنا نخسر مرارا، ويرجع جزء من خسائرنا التاريخية إلى خسائرنا الفادحة في حقل الفلسفة والتفكير النّاقد التي قُمعت في هذه المنطقة، والتي سرعان ما ذبلت براعمها لأنها مزروعة في أرض طاردةٍ، ولأنها اعتُبرت معرفة غازيةً تعارك على أرض ليست أرضها).

و بذلك، أهداني هذا الكاتب المفكر تشخيصا للعلّة واضحا، فأراحني في بحثي.

وهكذا إذاً،،، كانت ضريبة الثقافة لدى ذلك (المثقف الجندي عبد الونيس محمود) - كشأن الكثير من المثقفين من أفراد جيله - مضاعفة و مُجحفة، وقادت حياته مع مساراتٍ شاقّة، جعلت عُبوس أوقاتها مائدةً للمذاق المرّ ، و بعيش أكدارٍ لازمه وحيدا في قبو زنزانته،،، وطريدا في خفيّ مهجره، ووحيدا بلا أسرة في بقية عمره.

و الاستنتاج من كل ما سبق طرحه؛ يصل بنا إلى الخلاصة الآتية:-

إذا ظهر المثقف في مجتمع بسيطٍ وغير واعٍ، فإن الدّرب يقوده نحو منعطفات خطيرة، وسيكون محظوظا جدا إن استطاع الهروب بجلده،،، لأن كلامه شبه محرّم، و حقه في التعبير مُصادر في الأساس.!

فإذا لم يقبل أن يطويه الحاكم في بِركة الحشد السّلبي. فسيطاله الكثير من الأذى، ما لم يجد وسيلة لينفذ بنفسه .

وبعد هذا العرض،،، فلعلّها اتّضحت للقارئ الآن مصداقية التخريج الذي استهللنا به هذا الباب ، وهي أنه :

(كلما ازدادت ثقافة المرء ازداد بؤسه).

ويقول «سليمان الحكيم»: (كلما ازددتُ حكمة ، ازددتُ حزناً)...!.

*****

صورة تذكارية لطلاب الدفعة السادسة بالكلية العسكرية الملكية (أغسطس 1962 - أغسطس 1964) يتوسطهم أمر الفصيل : ملازم أول إبراهيم راشد .
ويبدو «عبدالونيس صاحب السيرة» في نهاية الصف الأول في أقصى اليسار.

صورة تذكارية أخرى لطلاب الدفعة السادسة،يتوسطهم جلوسا الرائد أحمد فوزي هلال آمر السرية، وعن يمينه ملازم أول ابراهيم راشد آمر الفصيل، وعن يساره ملازم أول المكي بوزيد الشطيطي أمر الفصيل المتقدم (الدفعة الخامسة). ويشاهد «عبدالونيس» ما قبل الأخير من اليسار في نهاية الصف الثاني وقوفا.

الدفعة السادسة من أصغر دفعات الكلية العسكرية، إذ لم يزد عدد طلابها عن ستة وعشرين طالبا، تخرج منهم في أغسطس 1964 (17 طالبا) فقط ، أما التسعة الباقون فقد تخرجوا تباعا فيما بعد مع الدفعات اللاحقة.

قائمة أسماء الخريجين السبعة عشر الذين شملهم المرسوم الملكي الصادر في 18 أغسطس 1964 القاضي بتعيينهم ضباطا بالجيش الليبي حسب ترتيب نجاحهم ، هم المحددين بالمادة الأولى في المرسوم، والسابق نشرة بصفحة (34) من هذا الكتاب.

تحوّل إدارة البلاد إلى سلطة الانقلاب

إن الروح الوثّابة لبناء دولة ليبيا لدى المسئولين الذين أحاطوا بالملك « إدريس السنوسي» غداة الاستقلال، وما تميّز به أولئك الرجال الأفذاذ من مصداقيةٍ وحرص و إيثار، ومن صفاتٍ ترادفت جميعها وقت الحاجة إليها، فتمكنوا من شقّ الطريق وسط العوائق، بل وكانوا يسبحون ضد التيار أحيانا في عصاميةٍ مدهشة ،، رائدهم الإخلاص للوطن والملك.

تلك الرّوح التي ألهمت أولئك الرجال فطوّعوا بها العواصف العاتية بانتزاع الاستقلال، وإرساء اللبنات الأولى لبناء الوطن ، سرعان ما اعتراها الفتور بل وخيبة الأمل أيضا عندما شاركهم الجيل الثاني مسئولية إدارة البلاد، خاصةً الجيل الذي تزامنت قيادته مع مرحلة ظهور البترول بمغريات مداخيله، وعروض شركات الامتياز، وشهوة الأنفس لبريق الثراء، والتّلذذ بالرفاهية وطيب الملذات... لقد استغل البعض من النّشء الجديد في حاشية القصر نفوذهم للضغط على الحكومات بقبول شركاتٍ بعينها للحصول على امتيازات التنقيب عن البترول، بل وبجراءةٍ مفضوحة أحيانا،،، حتى كان يشاع بين الناس في تلك الآونة أنه قد يتمّ إسقاط الحكومة عندما تماطل في إصدار الموافقة، ولم تنفذ المطلوب لشركات بعينها.

ونصفهم الآخر من نفس الجيل (الثاني) ممّن هم خارج القصر سواء كانوا من العاملين في دواوين الدولة أو من خارجها - أبناء العامّة - قد استغلّ الانتماء لشخصيات كانت ذات تأثير قوي ودورٍ فاعل خلال مراحل الجهاد ضد المستعمر، أو خلال مرحلة النضال لنيل الاستقلال، استغل بعضهم ذلك الرصيد المعنوي لتسخيره في خدمة توجهات الطّمع والغواية الظاهرة، وقد شاركهم نفس هذا الاتجاه بعض رؤساء القبائل ووجهاء المكوّنات الاجتماعية وأبناؤهم، وبدت ملامح الفساد تطفو على المشهد، وذلك ما كان يخالف العهود وأساسيّات التربية في معتقد الطريقة السنوسية التي التفّوا جميعا بعباءتها وقت الجهاد المسلح، أوخلال المباحثات في الأروقة السياسية والمحافل الدولية في شأن استقلال البلاد ، وما لبثت هذه المثالب أن ظهرت بوضوح وازدادت شيئا فشيئا حتى بدأت جدران هيبة الدولة الديمقراطية الناشئة تتآكل رويدا رويدا، بل و تغوّل الطمع ليرفع أستار الحياء من وجوه الكثيرين، فكثُر الحديث بين الناس جهارا عن تحالفات المصالح وعن الصفقات المشبوهة.. مما حدا بالملك أن ينشر بيانه المعروف ضد المحسوبية والرشوة والواسطة، والذي استهله بالعبارة المشهورة (لقد بلغ السّيل الزّبى)... ولا شك أن الأمور قد انجرفت نحو الاتجاه العكسي الهادم بسبب انتشار تلك الآفات وسط ذلك المجتمع المحافظ ، فأصيبت الأنفس بحبّ المادة، وتلوثت بعض الأيادي بعد ظهور البترول من باطن الأرض التي كان ظاهرها ساخنا بوطيس معارك الجهاد برجالٍ أنقياء وأتقياء من جيل السابقين، وقد بنوها بطهر وتنزّه ...!

و للأسف،،، فقد كان ذلك الانجراف المعيب على حساب أسس القيَم في مجتمعنا.

يُنسب إلى «كارل ماركس» القول بأنه: (كلما ارتفعت قيمة الأشياء هبطت قيمة الإنسان). ويتضح مما أورده كتاب الدكتور «محمد يوسف المقريف» (ليبيا بين الماضي والحاضر .. دولة الاستقلال - المجلد الثاني وما بعده من باقي المجلدات) في فحوى مجموعة الرسائل السّرية للسفارات الأجنبية وخاصة البريطانية والأمريكية في تلك الحقبة، أن البعض من رؤساء الوزارات والوزراء، وحتى من بعض النواب تتسّرب منهم معلومات تفصيلية إلى أعضاء السفارات الأجنبية عما كان يدور من صراعات بين المسئولين حول المصالح المتعارضة، وحول نظرتهم وتوقعهم لحكم البلاد ومستقبلها ،، !!!. وكان كل ذلك جريا وراء نيل المكاسب بدون شك، وسعياً لتبييض الوجوه من أجل المصالح على حساب البلاد وأهلها، حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الرهيب في التّدني.

وفي الفصل الثالث من كتابه " انقلاب بقيادة مخبر " يقول نفس المؤلف:

(من الثابت أن رموزاً عديدة من هذه القوى الوطنية والحزبية كانت على اتصالٍ سرّي برجال السفارات الأجنبية في ليبيا " وفي مقدمتها السفارة الأمريكية " تنهش لديهم في عرض النظام الملكي وتستحثهم على مساعدتها في التخلص منه وإقامة حكم بديل له، ومن الثابت أيضا أن عددا من رموز هذه القوى كانوا " على صلة ما " بالأشقاء الجيران المتربصين بالنظام الملكي).

وفي موضع آخر من نفس الكتاب يقول: (انقسام النخبة الحاكمة - سواء منها من كان في الحكم أو خارجه - على نفسها وفق أسس جهويةٍ أو مصلحة أنانية ،، وكان هذا الانقسام يزداد تفاقماً، بل أن بعض رجال هذه النّخبة كان يعيش " حالة تآمر " غير معلن على النظام).

وعموما، فقد هيأت مجريات الأمور في أواخر عهد المملكة الليبية ظروفا عجيبة مهّدت السّبل إلى حدوث متغيرات ما كان يمكن أن تحدث، وكان يجب أن تكون تحت السيطرة لو تشجّع المعنيون - أهل الاختصاص من المسئولين - ودخلوا اليمّ لإنقاذ الموقف.

ويبدو أن الملك «إدريس السنوسي » قد تنبأ مبكرا لما قد يحدث وما ستلده الأيام، وأراد أن يسبقها بمشروع إحلال نظام جمهورى بديل ، وقد أفصح عن نيته لمن استدعاهم باجتماع عقد بتاريخ 15 يناير 1955، في عهد وزارة «بن حليم» * بل وطلب من المختصين إعداد مشروع دستور جديد يتعلق بذلك، لكن قصور الفهم لدى من عارض الفكرة - بحسن نية مفرطة - قد أجهضها في مهدها.

* المصدر كتاب مصطفى بن حليم (صفحات مطوية من تاريخ ليبيا) وكالة الأهرام للتوزيع القاهرة.

لقد تصدّي لمشروع تحّول نظام الحكم حينذاك، من لم يتسع أفقهم لاستظهار ما كان يحيط بالنظام والبلاد من مخاطر ، ولاشك أن الإخلاص لشخص الملك كان هو السبب وراء تصدّيهم للفكرة في ذلك الوقت، فاهتمّوا بشخص الملك وصونه، ولم يغوصوا في بحث الأسباب التي كانت وراء التوجّه، وكأنهم كانوا يفسحون الطريق للقادم الأسوأ وهم لا يعلمون...!.

ومن قبل ذلك، فقد أفصح الملك عقب اغتيال ناظر الخاصة الملكية، عن رغبته في الاستقالة والخروج من البلاد والذهاب للحجاز... يقول «مصطفى بن حليم » رئيس الوزراء الأسبق في مذكراته: (بعد يومين استدعاني الملك وطلب مني أن أحضر جوازات سفر له ولعائلته، فسألته: لماذا يريد الجوازات؟ فرد ببساطة لأني أريد أن أجاور في الحجاز، وقررت الإستقاله ومغادرة ليبيا في الأسبوع القادم..)

وفي سنة 1964 طلب الملك ان يُسمح له بالاستقالة متحجّجا بكبر السّن وعدم القدرة على إتمام مهامه، فسارت وفود القبائل والمكونات الشعبية إلى الديوان الملكي، رافضين مغادرة باحات القصر حتى يعدل عن رأيه، ونزولا عند رغبتهم فقد استجاب وعدل عن الإستقاله.

و استقراءً للحوادث، وما كان يحيط بالمملكة من أنظمة جمهوريه مجاورة، مع ما كانت تبثّه وسائل الإعلام فيها، وما كان يظهر من حين لآخر من مواقف وأحداث تدلل على تأثير ما تقذفه تلك الاذاعات في الأسماع، وتأثيرها محليا على النفوس الغير مدركة من الشباب خصوصا، علاوة على ما كان يدور في الحديث الجهري بين المواطنين عن فساد الذمم وتحالفات تحقيق المصالح، فقد حاول الملك وللمرة الثانية في سنة 1966 في عهد وزارة السيد «حسين مازق» أن يغير نظام الحكم إلى جمهوري مرة أخرى، وجرى استدعاء كل من السيد:« إدريان بلت» واضع الدستور الأول، والسيد «مصطفى بن حليم » للمباشرة في الموضوع، غير أن الأمور كانت تجري بمقدراتها،،، وبالتالي لم تنجح محاولة الملك الثانية كما كانت قد فشلت في الأولى.

ناهيك عن أن الشعب الليبي ـ الآمن في بلاده بطمأنينة وهدوء واستقرار في مجتمع تتمحور رمزية قيادته في ملك صالح يضبطه رادع قوي هائل من العزوف عن مغريات الحكم والبذخ والمظاهر وفقا لمنهج طريقته الصوفية ـ لم يستطع أن يدرك وهو واقع تحت تأثير دعايات وإعلام الأنظمة التى كانت تدّعي التحرر وتنادي بالقومية والوحدة، حقيقة الأوضاع في تلك الأنظمة، أو أن يبصرها على حقيقتها ليقارنها بالاستقرار والهدوء في بلاده.

ومن الغريب فعلا، أن تتعدّد التنظيمات العسكرية السّرية في جيش صغير يعتبر من الجيوش حديثة التكوين وقليلة العدد في دولة ناشئة مثل ليبيا، مقارنة بالجيوش الكبيرة و القديمة فيما سواها من البلدان الأخرى، فهناك من قال أن التنظيمات السرية داخل الجيش الليبي قد زاد عددها عن أربعة تنظيمات، وربما أكثر في وقت واحد، وكلها تخطط للانقلاب، وجميعها تطمح في الاستيلاء على الحكم !.

وبالإجمال، فقد تُرك الباب مفتوحا لكي تستهوي الشباب عنتريات الخطب ، ويحفّزه تأثير الإعلام المضلل إلى أن يكون حلم كل شاب هو أن يصعد مقدمة دبابة ليقلب النظام، ويسيطر على الحكم بكل بساطة، و يعلن البيان الأول..

هكذا !!... برومانسية المراهقة، و بتقليد عجيب ؛ أعمى وساذج إلى أبعد الحدود.

و للأسف فإن هذا هو الذي حصل في ليبيا في 1969/9/1،،، وهو وإن كان حصوله بقدرٍ بدون شك، فقد كان حدوثه من البساطة بدرجة يمكن أن تسمى بالمصادفة العجيبة، ولكنها كانت مميتة..! وكم من مصادفة أخرى حدثت في الدنيا وكانت بالفعل مميتة،، كشأن تلك المصادفة التي اكتشف بها « الفريد نوبل» مادة الديناميت المدمرة، وكم كان حجم فزعه عندما رأى نتائج اختراعه وما سببه من دمار هائل للإنسانية ،،، الأمر الذي حدا به أن يتبرع بجزء من ثروته قبل وفاته لإنشاء جائزة نوبل للسلام.

أما رؤية «عبد الونيس » لأمر الانقلاب، فقد ضمنه فيما كتبه عن فشل المرحوم «عبدالعزيز الشلحي » في إحباط انقلاب (القذافي) الذي كان الشلحي على علم به منذ سنتين قبل وقوعه : يقول فيما كتبه في هذا الشأن من المهجر سنة 2009 :

(إن أي دارس أو باحث أو محلل سياسي، يريد أن يحكم على الأمور و الأوضاع السياسية في ليبيا، قبل أربعين سنة، أيام الحكم الملكي، بما يراه أو يشاهده في ليبيا اليوم، من أمور أو أوضاع خانقة، غاية في الكبت والقمع و الاضطهاد، سيقع في خطأ كبير لا محالة، ويصبح هو في واد، والحقيقية في واد آخر... لأنه لا مجال للمقارنة على الإطلاق، بين حكم اللّين إلى درجة الميوعة، والتسامح بغير ما حدود، والطيبة المفرطة إلى حد السذاجة أيام الحكم الملكي، وحكم البطش والطغيان والاستبداد والإرهاب وسفك الدماء، أيام حكم الانقلاب العسكري.

إن ليبيا، حين انتقلت من العهد الملكي، إلى حكم الانقلاب العسكري، إنما انتقلت ـ في الواقع ـ وبين يوم وليلة، من الضد إلى الضد، أو من النقيض إلى النقيض...؟!

فذلك اللين، وذلك التسامح، وتلك الطيبة أيام الحكم الملكي، هي التي شجعت التنظيمات العسكرية السّرية الخمسة أو الستة ـ بما فيها تنظيم العقيد الركن عبد العزيز الشلحي ـ على العمل والتنظيم... وهي التي جعلتها ـ كما ذكرت في برنامج حوارات عن الجيش الليبي، مع الاستاذ عبد المنصف البوري، بالإذاعة الليبية في المهجر، إذاعة أمل ـ فيما يشبه حالة سباق (ماراثون) فيما بينها، نحو دار الإذاعة الليبية، لإلقاء بيانها الأول قبل غيرها... وهي التي جعلت صعلوكا متشردا من فيافي سرت القاحلة، مثل «معمر بو منيار القذافي» يصل إلى السلطة، ويتربع على قمتها.. وهي ذاتها التي جعلت ـ هذا الصعلوك ـ يستخلص الدرس المستفاد، من تلك القبضة الأمنية الضعيفة المرتخية التي أوصلته إلى السلطة، فيضرب بقوة وبسرعة وبصرامة وبلا هوادة، وبقبضة من حديد، ويذبح

من الوريد إلى الوريد، كل من تسوّل له نفسه مجرد الاقتراب من سلطته التي انتزعها بمنتهى السهولة، من الأيدي الناعمة للواجهات الهشة، في غفلة من الزمان، وأهل ذلك الزمان...).

« العبارة السابقة المحددة بين القوسين هي خلاصة رأي عبد الونيس في الانقلاب وأسبابه.»

والغريب المدهش حقا ، أن غالبية الليبيين الذين كانوا يصفقون ويهللون ويباركون ذلك الانقلاب، لم يكونوا في الأساس طرفا فيه ، بل إن البلاد بأكملها لم تكن طرفا فيه، وكأن الأمر لم يزد عن كونه مجرد مسرحية شاهدها وانبهر بها بعض العسكر في مكان آخر، فأعادوا لعب أدوارها في دارهم، فجاءت بالتحول ببساطة شديدة إلى بديل آخر للنظام الملكي والدستور...ذلك العهد الذي بالغ في معاملة المواطنين بالوداعة والعطف والتسامح، لدرجة أوصلت الأمور ـ بلا شك ـ للتسيب والتراخي المطلق !.

و أيا كان الأمر في ذلك الشأن، فإن ميزان دقائق الأمور قد تعطّل وقتذاك في الزحام ،، فغابت الحكمة، و فُقد الرّشد... و كانت النتيجة: أن سبق السيف العذل كما يقولون....؟

وعلى قدر ما كانت مؤهلات وأعمار وتجارب قادة الانقلاب بكل أوجه النقص والضّحالة والحداثة، فقد أضحت إدارة البلاد تبعا لذلك معيبة، بعد إحكام سيطرتهم عليها، وقد ساقتها قرارات صبيانية ومتسرعة .

لقد تمكنوا من مسك السلطة بقوة السلاح ولكن ، لمّا لم يكن للسلطة مشروعا يشغلها، فقد أصبح لديها فراغ عريض تتصيّد معه صغائر أمور أضحت تضايق الناس أكثر مما تأتيهم بفائدة.!. كما تبيّن بوضوح من قراءة الأحداث في الأيام الأولى ، والتخبط العشوائي في اتخاذ القرارات بأن الموضوع من أساسه لا يعدو أن كان مجرد مغامرة قرصنة أفلحت بالمصادفة،،، لكن الحقيقة الكامنة وراء كل الأمور كيف ما اتضح فيما بعد، أنه لم تكن في الحسبان لدي الانقلابيين أية خطة ، أو إعدادات مسبقة ، أو برمجة محددة لما يجب عمله بعد نجاح الانقلاب.. الأمر الذي دعاهم صبيحة الانقلاب، بعد مضي ليلة واحدة، إلى رفع وجوههم إلى مصر وقائدها عبد الناصر مباشرة ليسألوا ماذا يفعلون...؟ !!

و بعد نجاح انقلابهم كيف يتصرفون...؟!

أنظر ماذا كتب رجل المخابرات المصرية « فتحي الديب» الذي كلفته القيادة المصرية بالتحرك إلى ليبيا في اليوم الثاني للانقلاب لتسيير الأمور بعدما أعلن قادة الانقلاب حاجتهم لذلك، وقد كتب في كتابه (عبد الناصر وثورة ليبيا) يقول:

(ومضت الليلة الأولى دون رأي محدد، وفي صبيحة اليوم التالي وردت برقية بنغازي التي تضمنت ما طمأن الرئيس على سلامة اتجاهات مفجري الثورة والتزامهم بالخط الثوري القومي

خاصة ما طلبوه على لسان قائد ثورتهم من حاجتهم العاجلة لمن يختاره الرئيس لمعاونتهم بخبرته في مواجهة الموقف بعد نجاح الثورة لتأمينها واستمرارها، كما طلبوا توجيهات الرئيس « جمال » فيما يتعلق بموقفهم من أمريكا وبريطانيا وفرنسا).

وسارع عبدالناصر بتكليف « فتحي الديب » بالمهمة،،،

وهكذا إذاً فُتح الباب أمام « السيد الديب » ومساعده « صلاح السعدني » وكلاهما من ضباط المخابرات المصرية، لنقل كل مخزون الخبرة من أساليب الاستخبارات والاعتقالات والتعذيب الغير إنسانية في مدرسة تأهيلهما (مدرسة صلاح نصر المخابراتية) إلى ليبيا السّليبة الغافلة التي ساقها القدر لتصبح بين أيدي هؤلاء.

ومن ثم، فإن الولاء المطلق والانقياد الكامل لدولة مصر (التي أصبحت بين عشية وضحاها هي الوصية على البلاد وولية أمرها)، قد أعطى شيكا على بياض لكل ما يشير به ضابط المخابرات المصري « فتحي الديب » الذي حطت به الطائرة الخاصة القادمة من مصر ومرافقيه ـ كما أشرنا ـ في اليوم الثاني للانقلاب ، ورجع الوفد بدونه، حيث زُرع ـ مبكراـ في حبكة استخباراتية باحتراف ، ويساعده في مهمته ضابط المخابرات « صلاح السعدني»، الموجود بالقنصلية المصرية في بنغازي ، و بالتالي فقد بدأ « الدّيب» يملي على (مجلس قيادة الثورة) ما يريد وما يجب أن يُعمل، وبالطبع كانت نصائحه (أوامرا) تنفذ مباشرة، ومن يطلع على كتاب مذكراته عما كان يجري بليبيا في تلك الفترة، شارحا دوره ومبينا التفاصيل الدقيقة التي كان قد انغمس فيها بالكامل في الكثير من خصوصيات شئون البلاد، يتبين له أن «فتحي الديب» كان هو الآمر، وهو مرجعية مجلس قيادة الثورة في كل الأمور، كما تبين كذلك من خلال مذكراته أنه كان يُستدعى للحضور في جلسات مجلس قيادة الثورة، ويشارك في النقاش، ويُستشار في القرار، وبالتالي فقد كان كل شيء مطروحا أمامه !!. و ما أن يفرغ من عمله حتى يهرع ليكتب للقاهرة (إلى« سامي شرف» تحديدا، وهو سكرتير الرئيس) عما دار من أحداث وما تناوله مجلس الثورة في ليبيا من أمور،

يقول في صفحة 236 من كتابه المذكور: (طلب مني العقيد حضوري معهم الاجتماع اليومي لمجلس الثورة الذي يتم مساء كل يوم لاستعراض المشاكل والموضوعات، بهدف الوصول إلى حلول لها لضمان الاستفادة بخبرات الجمهورية العربية التي أعاونهم بها) .

أما الجلسات التي لا يحضرها فقد اتضح فيما كتبه، أن أعضاء مجلس الثورة كانوا يراجعونه بعد اجتماعاتهم ويخبرونه بما نوقش وما تم اتخاذه من قرارات، وكأنه المرجعية الأساسية في كل تصرف للمجلس سواء قبل مناقشات المواضيع أو حين اتخاذ القرارات بشأنها، بل ويطلبون منه التقييم ، ويأخذون برأيه ....!!.

يقول بالنص: (كنت على اتصال مباشر ومستمر بكل ما يحدث في ليبيا، حيث كان يوافيني أعضاء مكتبي بكل ما يجدّ من خلال برقيات يومية وتقارير عاجلة)...!! «صفحة 202 نفس المصدر»، ويصف انطباعاته فيما يكتبه إلى مكتب رئيسه في القاهرة عما دار في ليبيا أولا بأول، ويُصنّف أعضاء مجلس الثورة سلوكا وخبرة وتعليما، بل ويصلح ذات بينهم كالأولاد الصغار عند المشاحنة عندما تدفعهم فورة المراهقة وانعدام الخبرة إلى الاختلاف والزّعل ومقاطعة رئيس المجلس للجلسات، وشكوى الأعضاء إلى« فتحي الديب » من أن « معمر» منفرد بقراراته أحيانا، وأنه يسبّ ويشتم الأعضاء ، فكانوا يلجأون إليه ليقنع رئيسهم برفع الزعل والرجوع لحضور الاجتماعات وأن يشركهم في الرأي... !!!

ويقول بالنص: (بدأ العقيد ينتهج معي أسلوبا جديدا في عرض المشاكل التي تواجههم خلال الممارسة اليومية للعمل مستفسرا عن الحلول لها، واستجبت لمطالبته وتزويده بالإيضاح أولا بأول، الأمر الذي سعد به وأبدى تقديره بالكامل) «صفحة 211 نفس المصدر».

و يقول في صفحة 239 (بعد انقضاء الأشهر الأولى على قيام الثورة بدأت العلاقة بين العقيد معمر وزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة تأخذ طابع الحدّة و وقوع العديد من الخلافات على المستويين الرسمي والشخصي).

وفي صفحة 259 من الكتاب المذكور،، يقول:

(كان لتركيز العقيد كل السلطات في يده وتوليه مسئولية التخطيط و متابعة التنفيذ دون الاستعانة بأعضاء المجلس، قد أدّى إلى افتقادهم القدرة على العمل نتيجة إحساسهم بتمييع شخصياتهم واهتزازها في محيط وزاراتهم، وترتب على ذلك اشتداد الضغط على العقيد وثورته المستمرة المتصفة بالعصبية واصطدامه المستمر بأعضاء المجلس، واتجه كل الأعضاء إلى المنهج الفردي في الحركة، علاوة على ما يعانيه الأخوة من انعدام التنسيق فيما بينهم وعدم اجتماعهم مؤخرا في جلسات دورية منتظمة برغم إلحاحي المستمر على أهمية ذلك ونجاحي في بعض الآحيان في جمعهم لمرة أو مرتين ثم تعود الأمور إلى سابق عهدها)!

ويقول كذلك : (افتقار أعضاء مجلس الثورة إلى الخبرة في إدارة أجهزة الدولة، والاهتمام بأمور فرعية تشتت جهودهم برغم تركيزي معهم وبصفة مستمرة على اهمية التخطيط).

وفي صفحة 212 يبين أنه هو الذي اختار « عبد المنعم الهوني» لرآسة جهاز المخابرات، ويقول (عقدت معه عدة جلسات تلقين لإيضاح الصورة لكافة مسئولياته)!

فكل هذه التفاصيل ينقلها « فتحي الديب» في نشرة شبه يوميه لمكتب الرئيس بالقاهرة، وينتظر في اليوم التالي ورود التعليمات فيما يجب أن يعمله على ضوء تقريره ،،، ومن أراد أن يطلع على هذه التفاصيل فيمكنه مراجعتها في كتاب «فتحي الديب» المشار إليه.

أما في الجانب المتعلق بما نحن بصدده في هذا الكتاب، (اتّهام عبد الونيس محمود)، فإن «فتحي الديب» في الصفحة رقم (158) تحديدا من كتابه المذكور، يبين اتهامه المباشر بالإيقاع والزّج بمن جرت تسميتهم بالمتآمرين ومن بينهم «عبد الونيس»، بما نقلته وشاية مساعده المقدم «صلاح السعدني إلى مصطفى الخروبي » - عضو مجلس الثورة - بأسماء المتآمرين وهم : المقدم آدم الحواز، والمقدم موسى أحمد، والرائد عبدالكريم، والنقيب عبد الونيس وآخرين، كما وردت الأسماء محددة في كتابه.

كما اتضح أن أول محاولة اغتيال في ليبيا بعد الانقلاب كان ورائها «فتحي الديب» الذي كلف الرائد «صلاح السعدني» بالاتصال بالمخابرات المصرية للبحث عن « عمر الشلحي» ناظر الخاصة الملكية سابقا) لأرسال مجموعة خاصة من ليبيا لاغتياله.. (أنظر ما كتبه النقيب «عبد الونيس محمود» في الحلقة الثالثة من سلسلة « معلومات تنشر لأول مرة» التي نشرت تباعا على موقع (ليبيا وطننا) بتاريخ 23 مارس 2008).

وهكذا إذاً كانت الدولة الليبية ، وهكذا كان مصيرها... لقد كانت تُدار بقرارات من خارجها، ويسوسها ضابط مخابرات ليس من أبنائها !!!، والناس في الخارج في غفلة مبتهجون،، و يهتفون للثورة و قائدها...!!!.

وفيما يلي ننقل صورا لبعض الفقرات من كتاب «فتحي الديب » (عبدالناصر وثورة ليبيا) المشار إليه، وهي واضحة بذاتها، ولا تحتاج إلى توضيح لما يبدو فيها من تغلغل سلطات دولة في شئون دولة أخرى بأداء مخابراتي واضح :

كنت على اتصال مباشر ومستمر بكل مايحدث بليبيا ، حيث كان يوافينى أعضاء مكتبى أولا بأول بكل مايجد من خلال برقيات يومية وتقارير عاجلة لأتابع بشكل يومى تطور الأحداث.

وقد بلغنى من المقدم آدم حواس ظهر يوم العاشر من سبتمبر أن بومدين حذرهم من تواجدى فى ليبيا وضرورة أخذ كل ماأقدمه من مشورة أو رأى بالحذر الشديد ، معللا ذلك بأننى لعبت دوراً خطيراً فى الإيقاع بين القادة الجزائريين وصراعهم مع بعضهم البعض وأن الرئيس عبد الناصر اختارنى بالذات لأقوم من خلال تعاونى معهم بالسيطرة على الثورة الليبية وتوجيهها الوجهة التى تخدم مصالح مصر أولاً وأخيراً .

وقد أكد لى النقيب بشير هذه المعلومات .

آدم حواس يكشف حقائق الموقف

وبعد وصول المقدم آدم من طرابلس حضر لمقابلتى بالسفارة مساء يوم الثالث والعشرين ليقضى معى جلسة طويلة استغرقت مايزيد على الساعتين تناول فيها العديد من الموضوعات على النحو التالى :

١ ــ مجلس الثورة :

يتخذ الملازم أول عمر المحيشى من ثقة العقيد معمر الكاملة فى النقيب عبد السلام جلود (الرجل الثانى فى مجلس قيادة الثورة) سلماً لفرض شخصيته على قرارات مجلس الثورة ، وفرض آرائه التى يتم الاتفاق عليها فيما بينه وبين محمود المغربى لإتاحة الفرصة أمام العناصر الشيوعية لتتغلغل وتسيطر على المراكز الرئيسية فى جهاز الدولة كمرحلة أولى ، بهدف إحكام قبضتها على مسيرة الثورة ، طبقا لما تتطلع إليه مجموعة الماركسيين فى السيطرة تدريجيا على مسيرة الثورة لصالحهم . وأنه وضح من خلال مناقشات الملازم عمر المحيشى بمجلس الثورة وجود ارتباط واضح بين مايعرضه عمر ومايعرضه محمود المغربى فى إطار متوافق تماما وطبقا لاتفاق مسبق بينهما .

كما تأكد لهم أنه تتم اجتماعات شخصية بين محمود المغربى وعمر المحيشى خارج مجلس الثورة يتم فيها التخطيط لدور كل منهما فى جلسات المجلس .

ولضمان احتفاظهما بقدراتهما على فرض رأيهما يركز محمود المغربى على ضرورة بقائه بطرابلس وبالتالى إرغام مجلس الثورة (المجموعة ذات الثقل الرئيسى) على البقاء بطرابلس بهدف إبعاد الأعضاء الذين يعارضون آراءهما (محمود وعمر) لصعوبة تواجد المجموعة الناصرية أمثال آدم وبشير التى تضطرهم ظروف عملهم للتواجد دائما حفاظا على أمن الثورة بينى غازى .

كما يتخذ عمر المحيشى من قدرته على الحديث والتعبير وطرح الحجج المنطقية فى ظاهرها والرامية لتحقيق أهدافهما فى باطنها لإقناع عبد السلام جلود أولا ثم موافقة العقيد معمر ثانيا ، مستفيدين من أخلاقيات معمر النابعة من فرط ثقته فى عبد السلام جلود .

كما يعتمد محمود المغربى فى حركته على قيادات عمال البترول المجتمعين بطرابلس ، والذين بدأ يدفع بهم لتولى المراكز الحساسة فى جهاز الدولة ليستفيد بهم كقيادات لها شعبية فى القاعدة العمالية لإفتقاره الى قاعدة شعبية يستند اليها وأنه تم الاتفاق بين الشيوعيين والبعثيين على التعاون فى إطار التحرك للسيطرة على مسيرة الثورة لصعوبة حركة مجموعتيهما كل على حدة . ولتنفيذ ذلك تمت لقاءات متعددة بين محمود المغربى وسعدون حمادى رئيس شركة النفط الأهلية العراقية ، والذى تخلف عن الوفد العراقى الأخير برئاسة صدام حسين . (كان قد قبض على سعدون فى محاكمات البعث بليبيا أيام الحكم الملكى السابق وإتهم بتمثيل قيادة البعث القومية فى ليبيا حيث كان يعمل بأحد بنوك ليبيا) .

أ ــ العلاقة بين أعضاء مجلس الثورة

للأسف الشديد لم تنحصر خلافات الأعضاء داخل المجلس ، بل تعدته إلى صداقات الأعضاء خارج المجلس . ومن ثم انتشرت فى مختلف الأوساط الشعبية ، مما أفقد المجلس احترام وثقة الجماهير إلى حد ما ــ كما شجع ذلك العناصر الحزبية والمتضررة من الثورة للتآمر والتسلل داخل القوات المسلحة الليبية . وقد وضح ذلك فى سلسلة المؤامرات المتتالية والتى اكتشفت فى الفترة الأخيرة وآخرها يوم السابع والعشرين من مايو بمنطقة بنى غازى .

ولجأت إلى محاولة تهدئة نفوس أعضاء مجلس الثورة مبرراً ما طرحوه من تصرفات بأن العقيد لا شك لا يقصد منها الإساءة ، وأننى أعتقد أنه يريد أن يعطى المثل على حرصه ، وبالتالى حرص مجلس الثورة على أموال الشعب . أما فيما يتعلق بأشخاصهم فهم أعرف منى بطباعه ، وشخصيته وحبه لهم مع أهمية وضرورة تحملهم واتساع صدورهم باعتبار أن المسئولية الكبرى الملقاه على عاتقه لا شك تشغله ، وتأخذ كل تفكيره وتغفر له الكثير .

إلا أننى لاحظت من خلال طرح هذه المواقف أن جميع أعضاء المجلس باستثناء بشير هوادى يقفون موقفاً واحداً ومتجاوبون تجاوباً كلياً فى شكواهم حتى من كنت أعرف عنهم رباطهم القوى والمتين وولاءهم الذى لا يتطرق إليه الشك مثل الأخ محمد المقريف ، ومحمد نجم ، ومصطفى الخروبى ، ومختار القروى ، وأبو بكر يونس . أما بشير هوادى فقد آثر الصمت من بداية الاجتماع إلى نهايته .

وفى النهاية عرض الإخوة أعضاء المجلس علىَّ استعدادهم جميعا للتخلى عن عضوية مجلس الثورة ، وإتاحة الفرصة للعقيد لتعيين مجلس آخر يُختار له من يعتقد أنه أصلح منهم ، مع استعدادهم للعودة إلى صفوف الجيش أو الابتعاد نهائيا ، إلا أنهم يطالبون العقيد بأن يصارحهم مباشرة بما يريده ، وإذا كان يريد التخلص منهم فليقل لهم ذلك . وقد علق محمد المقريف على كلام الإخوة بأنه لن يترك مكانه إلا بالدم لأنهم لم يقوموا بالثورة ليسلموها إلى من قبعوا فى منازلهم وتحركوا بعد نجاح الثورة .

وحاولت اقناع الإخوة الأعضاء بأن الأمر لم يصل إلى هذا الحد من الجفاء والتأزم ، وأن مصلحة الثورة تتطلب التريث وهدوء الأعصاب وترابط مجلس الثورة ووحدته حتى لا يتركوا المجال للعناصر الهدامة والمخربة لتحقق أهدافها .

ووصل الرائد عوض حمزة فى الثانية من صباح الرابع والعشرين واتصلت بالعقيد لبدء الاجتماع بعد اكتمال عدد أعضاء مجلس الثورة ففاجأنى بقوله أنه متعب ونائم . وقد كان لهذا الرد أثره فى إثارة مشاعر الإخوة ورفضهم لأى لقاء معه .

ولكننى عاودت إقناع الإخوة بالهدوء وخطورة اتخاذهم لأى موقف قائم على الاندفاع العاطفى ، وتم الاتفاق على معاودة الاجتماع فى الساعة الثامنة .

وعدت الى مبنى السفارة وأبرقت إلى القاهرة بموجز لما هو حادث كطلب الإخوة أعضاء المجلس الذين كانوا يصرون على ركوب الطائرة والتوجه إلى القاهرة لعرض الأمر على الرئيس جمال لتأكدهم من أنه لا يوافق على تصرفات العقيد ولا على مواقفه الأخيرة منهم .

وتوجهت فى الساعة الثامنة إلى مقر مجلس الثورة ، واتصلت بجميع الأعضاء وأقنعتهم بالحضور بما فيهم الرائد مختار القروى ، ولكن الخويلدى رفض الحضور بعد معاملة العقيد له وتجاهله . وتجمع الأعضاء فى العاشرة ثم إتصلت بالعقيد الذى وعدنى بالحضور ، ولكنه لم يحضر . وظللنا على هذا الوضع حتى الثانية عشرة حيث كان الإخوة يرفضون البقاء وأعمل من جانبى على تهدئتهم موضحاً خطورة انتشار الخلاف ، خاصة وأن العقيد كان سيسافر ظهر نفس اليوم ، مما ستكون له آثار بعيدة على الوضع ككل .

وإزاء مراوغة العقيد فى الحضور للاجتماع بالإخوة صحبتهم معى بعد إقناع مضنٍ إلى منزل العقيد فى الواحدة وقابلناه بعد فترة ولكنه رفض الدخول فى أى مناقشة معيداً وصفهم لهم بأنهم غير صالحين ،

تعقيب عمر المحيشى

استقل معى الطائرة من طرابلس إلى بنى غازى الملازم عمر المحيشى ليبدأ حديثه معلقا على ما تم بجلسة الحوار الفكرى مبينا إعجابه بالصراحة والإيضاح الذى طرحته خلال الجلسة ، وأنه يُحمِّل الجمهورية العربية المتحدة مسئولية تثقيف أعضاء مجلس الثورة ورسم خطوط الحركة للثورة الليبية فى جميع القطاعات لتنجح فى تحقيق أهدافها مؤكدا على أنه يتكلم معى بصفته الشخصية ومن موضع الثقة لى ، موضحاً أن أعضاء مجلس قيادة الثورة رغم أنهم إخوة طيبون ، إلا أنهم غير مثقفين ويتخذون مواقف عديدة غير سليمة مثل مهاجمة الأجانب دون تفرقة ، مؤاخذاً إياهم على موقفهم المتصلب من رئيس الوزراء المنتظر أن يقدم استقالته فى القريب العاجل .

وعرج على موقف العقيد معمر ليقول إنه لن ينجح فى إدارة دفة الحكم إذا ما تولى رئاسة الوزارة ، وطلب منى بصفة شخصية أن أتدخل وأوضح للإخوة أعضاء المجلس أهمية عدم التورط فى مواقف غير سليمة ، وأن أشرح لهم بصفة مستمرة فكر الرئيس عبد الناصر . وحملنى شخصيا مسئولية هذا الواجب مشيراً إلى ثقة العقيد وأعضاء المجلس بى وقدرتى فى التأثير عليهم .

كما كان لتركيز العقيد كل السلطات فى يده وتوليه مسئولية التخطيط ومتابعة التنفيذ دون الاستعانة بأعضاء المجلس . ما أدى إلى افتقادهم القدرة على العمل نتيجة إحساسهم بتمييع شخصيتهم واهتزازها فى محيط وزاراتهم، وترتب على ذلك اشتداد الضغط على العقيد وثورته المستمرة المتصفة بالعصبية واصطدامه المستمر بأعضاء المجلس . وانتهى الأمر إلى فقد المجلس لقدرته الجماعية على دراسة واتخاذ القرارات ، واتجاه كل من الأعضاء إلى المنهج الفردى فى الحركة .

علاوة على كل ما يعانيه الأخوة من انعدام التنسيق فيما بينهم نتيجة لعدم تنظيم وتحديد اختصاصات كل منهم وعدم اجتماعهم مؤخراً فى جلسات دورية منتظمة برغم إلحاحى المستمر على أهمية ذلك ونجاحى فى بعض الأحيان فى جمعهم لمرة أو مرتين ، ثم تعود الأمور إلى سابق عهدها من جديد .

رسالتا الملك إدريس وحرمه للرئيس جمال

كنت قد تلقيت رسالة من السيد سامى مؤرخة فى العشرين من اكتوبر يخطرنى فيها بوصول رسالتين من الملك إدريس السنوسى وحرمه عن طريق سفير مصر بأثينا ، وأن الرئيس جمال أمر بإرسال صورة من الرسالتين إلىّ لأعرضهما على العقيد معمر للاطلاع عليهما ولإحاطته علماً بأن الرئيس جمال يرى أن الموافقة على حضور الملك إدريس للإقامة بالقاهرة حسب طلبه أمر هام يخدم إحكام السيطرة على الموقف وإبعاده عن أى تأثير أمريكى أو بريطانى لاستغلاله فى إثارة القلاقل .

ب ــ مشكلة ضباط التنظيم

انفرد بى العقيد بعد الغداء ليخبرنى أنهم يواجهون حاليا عدة مشاكل داخل الجيش نتيجة الاحتكاك الذى يتم بصفة مستمرة بين الضباط أعضاء التنظيم والضباط الذين لم يضمهم التنظيم ، وكذلك من ضباط الصف المنضمين للتنظيم وباقى ضباط الصف ممن لم ينخرطوا فى التنظيم ، خاصة بعد معرفة هؤلاء أن هناك اتجاها لترقية ضباط الصف أعضاء التنظيم إلى رتبة الملازم . وطلب منى إيجاد حل لهذا الاحتكاك ومساعدة كل من النقيب عبد المنعم الهونى والنقيب مصطفى الخروبى فى تنظيم العمل لتدارك أى تآمر من العناصر غير الملتزمة بتنظيمهم وسرعة السيطرة على الموقف وطمأنته ، وبادرت على الفور بوضع الإجراءات والتنظيم اللازمين لتأمين الموقف وعرضتهما عليه فى اليوم التالى ووافق عليها وبدأ فى تنفيذها فوراً .

تأمين بنى غازى

كان العقيد قد طلبنى لمصاحبته إلى بنى غازى مساء يوم السادس من أبريل لدراسة المشروعات التى تقدمت بها الوزارات .

وأبلغنى الإخوة أعضاء المجلس بعدُ وصولى إلى بنى غازى ماأكد المعلومات التى وصلتنى من مصادر سفارتنا والملحق العسكرى ببنى غازى عن توزيع منشورات وقيام بعض العناصر المناوئة المدنية بعقد اجتماعات سرية ، وأن هناك احتمالا قويا لحدوث اضطرابات بمدينة البيضاء خلال إلقاء العقيد لخطابة يوم الثامن من أبريل ، وأن أعضاء المجلس لديهم بعض المعلومات التى تهدد أمن الثورة ، وعدم اطمئنانهم إلى بعض الضباط وضباط الصف .

وحاول الرائد مصطفى الخروبى التخفيف من خطورة الموقف وأن يشكك فى المعلومات التى حصل عليها زملاؤه ، إلا أن . وصول معلومات مؤكدة عن تمزيق اللافتات المقامة بمدينة البيضاء يوم السادس من ابريل جعلته يوافق أعضاء المجلس على ضرورة وضع خطة لتأمين بنى غازى أسوة بما تم وضعه لمدينة طرابلس مع عمل كافة الإحتياطات لمواجهة أى اضطراب بمدينة البيضاء .

وبناء على طلب العقيد قمت بوضع خطة تأمين للأهداف الحيوية ببنى غازى بالاشتراك مع مساعد الملحق العسكرى المصرى ، وعلى نفس الأسس والمبادىء التى تمت بطرابلس ، وعرضتها على العقيد فوافق عليها وأمر الرائد مصطفى الخروبى بالتنفيذ الفورى للخطة الموضوعة .

وركزت قوة التأمين على كتيبة الصاعقة المصرية وقوة الحرس الجمهورى ببنى غازى فقط حيث استبعدت كتيبة الصاعقة الليبية نتيجة لوجود صدام بين النقيب عبد الفتاح يونس وباقى ضباط الكتيبة . وتم بالفعل تنفيذ الخطة ووضعت قوة التأمين فى درجة الاستعداد القصوى حتى صباح يوم التاسع من أبريل .

(تحمل الصفحة 212 من كتاب «فتحي الديب » ، المفاجأة المدهشة وبشهادة الجاني نفسه،،،، حيث يطلب رئيس دولة (عبدالناصر) من مبعوث مخابراته في دولة أخرى (ليبيا)، أن يقابل سفير دولة أجنبية ثالثة (روسيا) ليزوده بمعلومات سرية تخص الشئون السياسية والاقتصادية الليبية ، وتقييم الأشخاص المسئولين فيها وقدراتهم وقوة شعبيتهم، ومدى متانة العلاقة بينهم ....؟؟؟!).

انظرصورة الصفحة المنقولة فيما يلي :

لقاء السفير الروسى ايفان . ن . ياكوشن IVAN. N. KAKOSHIN

يوم السابع والعشرين من مارس حضر لمقابلتى بمنى السفارة بطرابلس إثر تحديد الموعد معه ، وبعد موافقة الرئيس جمال على اللقاء ، وقد أثار السفير معى النقاط التالية :

١ ـــ إنه طلب مقابلتى للتعارف لعلمه بوجودى من موسكو ، وبهمه أن يتعاون معى لخدمة المصالح المشتركة ، وليستفيد من خبرة الجمهورية فى إيجاد علاقة طيبة بين الاتحاد السوفيتى وليبيا لأن سفيرهم السابق لم ينجح فى إيجاد هذه العلاقة الطيبة المنشودة لأنه من أصل أرمنى ، وكان يعلم مسبقا بنقله من ليبيا ولذلك لم يبذل أى مجهود .

فأوضحت له أننى أتنقل ما بين القاهرة وطرابلس لتلبية احتياجات الإخوة الليبيين من الخبرات المصرية ، وأننى برغم ذلك وبحكم علاقة الصداقة بينى وبين الإخوة رئيس وأعضاء مجلس الثورة سأحاول جهدى تيسير مأموريته ولكن إمكانية تحقيق النجاح المطلوب يتوقف على أسلوبه الشخصى فى التعامل ، مع تقدير الظروف وموقف الإخوة الليبيين الحالى ، وتعدد المسئوليات الملقاة على عاتقهم . بالإضافة إلى أن القواعد الأجنبية مازالت قائمة ولها تأثيرها على قدرتهم على التحرك تجاه المعسكر الشرق فى الظروف الراهنة . وقد وافقنى الرأى مبدياً استعداده لخلق علاقة شخصية طيبة بالإخوة ، وخاصة العقيد معمر .

وتطرق إلى مايدور فى أوساط السلك الدبلوماسى الأجنبى بليبيا من وجود احتمال قيام انقلاب رجعى تدعمه العناصر البرجوازية والرأسمالية ، وأنصار العهد الملكى السابق ، وإن كان يعتقد شخصيا أنها أمنيات تراود القوى الغربية ، ولاشك أن الغرب يسعى بكل جهده للقضاء على الثورة الليبية .

ثم انتقل إلى السؤال المباشر لى عن قوة مجلس الثورة وقدرته على مواجهة كافة المشاكل ، ومدى سيطرته على الوضع فأوضحت له أن الواضح والملموس سيطرة المجلس على الموقف ، وأن الوضع الاقتصادى ـــ الذى تحاول أن تستغله القوى المناوئة ـــ يتحسن وسيتحسن كثيرا بعد اعتماد الميزانية الجديدة .

وسألنى مباشرة عن الأخ عبد السلام جلود وعن قوته فى مجلس الثورة وهل هو الرجل الثانى حقيقة أم لا ؟ فأوضحت له أن الإخوة أعضاء مجلس الثورة جميعا يكنون كل احترام وتقدير للعقيد معمر ، ويدينون له بالقيادة والولاء ، وأن ترتيب الأخ عبد السلام فى الأقدمية بلى العقيد معمر مباشرة .

وحينئذ أعاد الاستفسار عن قوة الرئيس معمر وقدراته على قيادة الثورة لتحقيق أهدافها ؟

فأوضحت له قدراته الكاملة فى هذا المجال ، وقوة تأثيره وشعبيته سواء داخل الجيش أو فى المحيط الشعبى .

ثم حاول إثارة موضوع امتناع ليبيا عن حضور مؤتمر دول المغرب العربى للاستفسار عن اتجاه مجلس الثورة نحو القاهرة والمشرق العربى بعيداً عن المغرب العربى ، وانتهى من استعراضه إلى التساؤل عما إذا كان هذا الاتجاه يعنى ايمانهم بأن ج . ع . م . هى فى اعتقاد أعضاء مجلس الثورة قلب الوطن العربى الذى يجب أن يتجمع حوله باقى الأجزاء فى وحدة كاملة .

الفصل السابع
ظهورى علانية فى استقبال الرئيس النميرى

وصلتنى برقية يوم الخامس عشر من نوفمبر يطالبنى فيها الرئيس جمال بالتواجد المعلن ضمن مستقبلى الرئيس النميرى لدى وصوله الى ليبيا ظهر اليوم التالى . وقد قمت بمصاحبة الإخوة رئيس وأعضاء مجلس الثورة فى استقبال الرئيس النميرى بالمطار حيث تم استقبال رسمى وشعبى فى إطار ثورى متقشف . وأثار ظهورى بالمطار تساؤلات كثيرة بين أعضاء السلك الدبلوماسى ؛ خاصة سفراء بريطانيا والعراق والأردن ولبنان والمغرب وتونس . وحاول سفراء كل من العراق والأردن ولبنان التعرف على أسباب وطبيعة تواجدى خلال دعوة الإفطار الرسمية ، وقد أخبرتهم بوجودى فى زيارة سريعة لليبيا ، وإن كان ردى لم يقنعهم كما بدا لى من محاولاتهم طرح نفس التساؤل على الإخوة اعضاء مجلس الثورة الذين تهربوا من الإجابة بلباقة .

(السّرية والعلنيّة....؟!) أكان كلّ هذا الهراء يقع في بلادنا أمام سمع وبصر أعضاء مجلس الثورة وبمباركته، أولئك الذين تهربوا من توضيح الموقف للمتسائلين عن مهمة « فتحي الديب» في ليبيا وبلباقة .....؟؟!! .

وجاء مسك الختام على لسان السيد «الديب » نفسه فيما سطّره في صفحة (331)، فشهد بنفسه على خاتمة مهمته في ليبيا، وإلى ما آلت إليه الأمور ،، ولعل في هذا ما يبرر أسباب القيام بمحاولة «عبدالونيس» ورفاقه المبكرة قبل أن تصل الأمور إلى ما وصفه «الديب » فيما بعد.

وجاءت أحداث مايو ١٩٧١ لتكون مكافأته لى وهى الغدر واعتقالى مع باقى معاونى جمال عبد الناصر فيما أسماه بمؤامرة مراكز القوى ، ولتنقطع علاقتى الرسمية بليبيا ، ولتبدأ العلاقات الليبية المصرية تضطرب ثم تتوتر ولتنتهى بالقطيعة . تلك القطيعة التى فتحت أبواب ليبيا على مصراعيها ليتسلل من خلالها كل الطامعين فى ثروة الشعب الليبى من الانتهازيين والمغامرين والحاقدين على ثورة ٢٣ يوليو المجيدة وقيادتها ، ممن تفننوا فى أساليب الدّس الرخيص ، وأتقنوا كل وسائل التملق والرياء ـــ ليوسعوا شقة الخلاف بين الشعبين الليبى والمصرى ؛ مستفيدين بإحساس مجلس الثورة الليبى بالعزلة بعد أن فقدوا حليفهم الطبيعى وسندهم الكبير الذى يجسد شعب مصر الأب والزعيم جمال عبد الناصر الذى فقدوا بافتقادهم إياه ـــ المشورة الصادقة والأمينة البعيدة عن الاطماع والمنزهة عن الهوى .

وأصبحت ثورة ليبيا بين يوم وليلة ـــ وطبقا لمخطط القوى المعادية للثورة العربية حزبية كانت أم عميلة للمصالح الاستعمارية ـــ أصبحت ليبيا البنك الممول لاطماع كل من ادعى الثورية ، وزج بنفسه فى زمرة المناضلين ليتخذ من مساعدات ثوار ليبيا هدفاً لإشباع تطلعاته الشخصية للإثراء على حساب المبادىء والقيم النضالية .

وبذلك صارت ثورة الفاتح من سبتمبر وهى لاتدرى عامل تفتيت لقدرات النضال العربى بإغداقها الأموال على كل مدّع جمع حوله بعض الأفراد من بلطجية السياسة المنتشرين على ساحة الوطن العربى ليوهم الثورة بأنه صاحب تنظيم نضالى أو قائد حركة شعبية ذات مفاهيم قومية . ولاشك أن الساحة اللبنانية وساحة المقاومة الفلسطينية لعبت دوراً خطيراً فى هذا المجال .

وهكذا دخلت ثورة ليبيا من حيث لاتعلم فى لعبة المناورات الحزبية لتجرها جراً لتشارك فى صراعات ومعارك محسوبة مسبقاً لإرهاق مواردها المالية وتشويه سمعتها على حساب مصالح الشعب العربى الليبى والمصلحة العربية القومية العليا .

فلا غرابة إذاً، أن يفطن «عبد الونيس » مبكرا، وفي خلال شهرين فقط بعد الانقلاب، ما كان يجري وراء الكواليس، ويستدرك ما كانت تنحدر نحوه البلاد ، فكان نقده علنا، وطفق يفصح عن ملاحظاته جهراً وسط من كانوا حوله دون خوف أو وجل، لأن من يعرف الحقيقة فيسكت عنها ويتجاهل ، لن يشفع له التاريخ بالطبع.

يقول فيما كتبه في مقال لاحق بعنوان (عن حقوقنا الضائعة):

(إن التنازل عن الحقوق بسبب الخوف أفظع من الجهل بها)، ويقول كذلك ؛

(هناك دائما فئتين في المجتمع برجاله ونسائه، وفي جميع مجالات الحياة السياسية والاجتماعية وغيرهما، تتمتعان بوعي متقدم جدا عن بقية أفراد المجتمع، أو عن أغلبيته العظمى التي تظل مختلفة عنهما بمراحل زمنية عديدة، هاتان الفئتان هما قرنا استشعار لكل مجتمع تتحسسان الخطر

قبل وقوعه أو منذ بداياته، وتدركان حقائق الأمور وجوهرها، وسبر أغوارها دون غيرهما، وتستشرقان المستقبل بعقول متفتحة وعيون مفتوحة، وتنذران المجتمع أو تبشرانه في الوقت المناسب، إذا ما توفرت لديهما الحرية والوسائل، لهذا أيضا، هما أكثر عرضة من غيرهما للاضطهاد والقمع السياسي).

هذا التقديم، وهذا التوضيح.. يبين بجلاء تلك النظرة الثّيرة، والتخريج المُبكر لما كان يراه، وما كان يشعر به.

و بالتالي فقد هرع إلى المقدم «موسى أحمد » صحبة النقيب «عمر الواحدي » مرة، ومرة أخرى بمفرده في أحد أيام شهر رمضان، حيث اختار توقيت الاتصال به عند وقت الإفطار ضمانا لعدم لفت النظر وقت انشغال الكل في تلك الساعة، شارحا له استقراءه لمجريات الأمور التي تسير فيها البلاد نحو اتجاه سلبي لا يسرّ، و بما ينذر بالخطر الجسيم.

وفي نفس الوقت، فإن المقدم «آدم الحواز » وكذلك المقدم «موسى أحمد»، كانا يشعران بإبعادهما عن موقع اتخاذ القرارات، وتهميشهما تماما، بالرغم من أنهما هما أساس نجاح الثورة داخليا ، وقبولها من العالم الخارجي.

ولقد أوضحت الملاسنة الحادة التي وقعت بين «موسى أحمد » والنقيب «عمر المحيشي» (عضو مجلس قيادة الثورة) بعد شهرين من الانقلاب فحوى المضمون كما جاء على لسان المحيشي عندما قال لموسى : نحن قادة الثورة ، ولست أنت ... ففضح ما في نفوسهم بجلاء.

ويبقى تقييم العلاقة من بدايتها بين المقدمين « موسى حمد و آدم الحواز» من ناحية، وتنظيم «معمر القذافي » من ناحية أخرى عصيّ على الفهم،،، فكيف استطاع ضابط برتبة ملازم أن يُقنع مجموعة تنظيم (الرّواد) بالانضمام والاندماج مع تنظيم الملازمين الصغار ، والحقيقة التي ربما لا يعرفها الكثيرون، أن تنظيم الضباط الصغار (الذي يقوده معمر القذافي) وهو التنظيم الرابع أو الخامس في التنظيمات السرية التي كانت في الجيش حينذاك، مثل ما عُرف بتنظيم المُقدّمين، وتنظيم الرّواد، وتنظيم مجموعة خريجي العراق، ومجموعة خريجي مصر ...الخ، وكلها كانت تطمح في الاستيلاء على الحكم بشكل أو بآخر،،، غير أن التنظيم الذي يقوده القذافي كان هو الأقل رتبا، وهو الأكثر عددا، والأكثر حركة في الاجتماعات واللقاءات.

فتوحّد التنظيمان (الروّاد والملازمون) قبيل انقلاب سبتمبر بقليل وشرعا في تنفيذه، خاصة أن كلاً من « موسى والحواز » قد تحمّسا للأمر رغبة في استعجال الحدث - حسب رواية «عبدالونيس» - في فترة عدم وجود الملك في البلاد الذي كان إذذاك في رحلة علاجية خارج الدولة، وقد أقنعا مجموعة من زملائهم من الضباط الآخرين، ومجموعة من ضباط الصف الموالين لتنظيمهما بالاشتراك مع تنظيم (الملازمين) في تنفيذ انقلاب سبتمبر،،،

فكيف استطاع « معمر » أن يقنع منتسبي تنظيم الرواد ومن معهم من موالين لهم، ويجرهم جميعا لتنفيذ ما يريد ...؟ وليضمن بهم نجاح المحاولة .

وفي قبول الإثنين « موسى والحواز » ـ وكلاهما من خريجي الفوج الأول للكلية العسكرية الملكية ـ للأنضمام والمساهمة في انقلاب سبتمبر أمر غامض لم نجد له تفسيرا حتى هذه اللحظة، إذ لا يُتصور بكل المعايير: العقلية، وفئة العمر، وفارق الرتبة ، بينهما وبين رئيس تنظيم صغار الضباط أن يجلسا إليه، ويقبلا بتخطيطه ، ويطيعا تنفيذ تعليماته، وأن يتم التنسيق والمواءمة بينهما وبين من والاه من باقي منتسبي تنظيمه الصغار أثناء تنفيذ الانقلاب...

ويبقى السؤال محيرا،،، فيما دفعهما للالتحاق بذيل التنظيم، مع قبول الاضطلاع بالمهام الرئيسية الأصعب والأخطر على الإطلاق في المهمة كرأسٍ للحربة في بدء التنفيذ، والتي يفترض أن يقوم بها رأس التنظيم وليس المنضمين إليه الخوالف...؟ في الوقت التي كانت التنظيمات الثلاث أو الأربع السرّية الأخرى من الأعلى رتبا قائمة بالفعل في الجيش....؟؟!، فلو كانا ـ افتراضا ـ قد انضما للعمل مع التنظيم بعد نجاح الانقلاب لكان أمرا مقبولا، كما كان الحال عندما تم تكليف العقيد « سعد الدين بوشويرب » كرئيس لأركان الجيش، أو كما سبق في حالة ضم « محمد نجيب » إلى تنظيم مجموعة انقلاب (23 يوليو) في مصر، ولكن الرّضا بمدّ الرقاب للسّيف من موقع الظل أمرٌ محيّر وغامض، خاصة من رجال كهؤلاء....؟؟!.

ومن البديهي أن خطوة التنفيذ الأولى التي بدأها (المُقدّمان) « موسى والحواز » لا تتمّ إلا بتلقي تعليمات البدء عند ساعة الصفر من قائد التنظيم (الملازم) ..!، وعلى من يُنهي مهمته منهما أن يرفع التّتميم إلى الموجّه الأعلى (نفس الملازم رئيس الحركة) ، وينتظر منه تعليمات أخرى ..!،، في الوقت الذي كان رئيس التنظيم أثناء تلك اللحظات الحرجة مستلقيا على سريره (حسب إفادة زميله في التنظيم والحركة الملازم « عبد الفتاح يونس » الذي احتلّ مبنى الإذاعة في بنغازي، ولكنه افتقد الملازم « معمر القذافي الرئيس والقائد » الذي اختفى فجأة، والذي كان من المفترض أن يكون ساعتذاك معه في الميدان ليتولى مهمة إلقاء البيان الأول للثورة من الإذاعة حسب المقرر،،، فهرع يبحث عنه ، وكانت المفاجأة ـ حسب ما ذكر الملازم عبدالفتاح فيما بعد ـ أن اكتشف أن «القذافي» كان قد رجع من منتصف الطريق إلى معسكره (قاريونس) ودخل حجرته واستلقى على سريره ،،، وكانت حجته في ذلك كما قال للملازم « عبدالفتاح» أنه قد ضل الطريق، وآثر الرجوع للمعسكر ..!!!).

ومن يضلّ الطريق إلى مبنى الإذاعة المطلّ على شارع الكورنيش في مدينة كبنغازي..؟! وببداهة ندرك،،، أنه إما أن يكون قد اعتراه الجبن فآوى إلى سريره، أو أنه ترك زملاءه أمام مصير الأقدار، فإن فشل الانقلاب سيكونون هم الضحايا وينجو هو بنفسه ،،، فهل يمكن لشخصية بهذا المستوى والتّصرف أن يذعن لها المقدمين « موسى والحواز » ويستقبلان التعليمات من صاحبها،

ويشاركان في أمر جلل تحفّه مخاطر الهلاك من كل الجوانب ...؟ أم أنّ (جهة ما) كانت قد وجهّتهما مسبقا باتباع ذلك الأمر والسّير فيه.....؟؟

سمعنا عدة افتراضات في هذا الشأن،،، فهناك من قال أن استقطاب « الحواز » قد تمّ من جهة أجنبية منذ زمن، وفي وقت ما طُلب إليه الانضمام والمساعدة في تحرك تنظيم صغار الضباط، وإن صحّت الروايه، فقد يكون هو الذي أقنع زميل دفعته « موسى أحمد» بالمشاركة معه ،،،، ولكن تلك الافتراضات لم يظهر ما يؤكد صدقها حتى الآن .

فالثابت إذاً، أن القذافي استطاع بطريقة لا نعرف سرّها حتى اليوم، قد استقطبهما من تنظيم الرّواد، وباختيارٍ ذكي جدا، فتبعاه مع بعضٍ ممّن يعرفونهم ويثقون بهم من مرؤسيهم من ضباط، و ضباط الصف والجنود، وانضمّا إليه بولاء وسهولة.

و الخلاصة، أن الفضل في تأمين نجاح الانقلاب في الداخل، والنجاح أيضا في كسب الرأي العالمي في الخارج راجع لكل من : جرأة « موسى » على الأرض ليلة الانقلاب الحاسمة، ولظهور اسم «الحواز» لدى سفارتي أمريكا وبريطانيا، كسببين أساسيين في نجاح الانقلاب، فالمقدم (آدم الحواز) كان مميزا باعتباره قد تخرج بالترتيب الأول على دفعته، وأنه يتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة بطبيعة تخصصه في نظام المخابرة، ولأنه قد شارك في دورات دراسة تخصصية في أمريكا، وأنه معروف لدى المسئولين في السفارة الأمريكية نظرا لتردده على القسم الثقافي لترجمة الوثائق المتعلقة بتخصص عمله....

وأما العضو الثاني (المقدم موسى أحمد) فقد كان من سكان الجبل الأخضر الذي يوجد به مقر المعسكر الرئيسي للقوة المتحركة، وهي الخطر الرئيسي الذي يهدد قيام الثورة عند تفجيرها. والرجل بانتمائه القبلي، ومحل معيشته، ومعرفته بطبيعة المنطقة، بجانب أنه كان وقت وقوع الانقلاب يرأس لجنة التجنيد الوطني بالجهة الشرقية من البلاد، و مقرها مدينة البيضاء وهي العاصمة الصيفية للحكومة، علاوة على ما كان يعرف عنه من جسارة وعدم تردد يشبه التّهور،،، كل ذلك جعله هو المحرك الأساسي الفاعل ليلة الانقلاب، باعتبار أن ظهور اسمه المعروف في صدارة قادة الحركة يبعث على الارتياح على الأقل في الإقليم الشرقي للبلاد، حيث تقع مدينة (بنغازي) المقرر أن يُلقى منها البيان الأول للثورة. ولقد تحرك من مقر الكتيبة الخامسة من مدينة درنه، واحتلّ معسكر قرناده مقرّ القوة المتحركة كما ذكرنا ـ مركز التهديد الأساسي للقوة المضادة ـ كما تمكن فورا من القبض على معظم الوزراء والقادة المتواجدين حينذاك بمدينة البيضاء بمساعدة «عبد الكريم عبدربه»، وكانت تلك الخطوة المؤثرة، هي الأساس الفعلي لنجاح الانقلاب، وما تبعه بعد ذلك من استسلام باقي مؤسسات الدولة.

جا في حلقات الرثاء التي نشرها « عبدالونيس» في حلقات نشرها من اليونان عقب اغتيال «موسى أحمد» بعنوان (وداعا ياموسى) قوله: (لقد حدثني الشهيد النقيب محمد فرج التومي

ونحن بالسجن، بأنه تم تأجيل الانقلاب عدة مرات خوفا من الفشل في برقة تحديدا، إلى أن ظهر «موسى» الذي قضى على جميع مخاوفنا وترددنا،وأنا واحد من بين ضباط كثيرين كما قال لي ما كنت لأتحرك معهم في تلك الليلة، لو لم أكن أعرف بأن المقدم موسى أحمد هو من يقود حركة الانقلاب ..؟!).

ويبقى سر اشتراكهما في الانقلاب بذلك الدور الفعّال محل تساؤل لم تتحدد إجابته بعد، ولعل الزمان كفيل بإيضاح الغموض يوما ما.

المقدم : موسى أحمد	المقدم : آدم الحواز

يقول الدكتور فتحي الفاضلي في كتابه (البديل السياسي،، ودولة ما بعد الثورة) عن الحركة الانقلابية الثانية في سبتمبر 1969 بقيادة «موسى أحمد ، و آدم الحواز»:

(سواء أراد الذين كان لهم دور رئيسي في الانقلاب أن ينقلبوا عليه لسبب نود معرفته، أو أن الثورة دبّرت ذلك لسبب أكثر إثارة وغرابة نود أيضا أن نتعرف عليه. وعلى كل حال، فقد دشّنت تلك المحاولة بداية انقضاض " الثورة" على صانعيها، وبداية التهام الثورة لأبنائها. وهي كما نلاحظ بداية مبكرة جدا من الصعب إرجاع أسبابها إلى وقائع وأحداث جرت دون سابق تخطيط أو إنذار، بل إنه من المرجّح أن هناك مخططا مسبقا للتخلص من رجال ليبيا وتصفيتهم لسبب قد لا يكون غامضا لمدة طويلة)...!.

ومن ناحية أخرى، فإن أحدا لا يستطيع أن يجزم اليوم، بعد انقضاء كل هذه المدة، وغياب معظم الأشخاص المعنيين، بأن وقوع مكتب «صلاح السعدني » ضابط المخابرات المصرية ورئيس البعثة العسكرية، بجانب مكتب وزير الدفاع المقدم «آدم الحواز » كان صدفة أم كان مقصودا...؟

باعتبار أن هذا الأمر كان من ضمن أسباب المحاولة الانقلابية كما سيرد في التفصيل القادم.

****

كيفية المحاولة وأهدافها و توقيتها

ولماذا وقعت ؟

بداية ، وقبل الكلام عن الأحداث ، والدخول في التفاصيل وتعاريجها ، وبراءة من بخس الناس أشياءهم، أو طمس أدوارهم، فإن الأمانة في النّقل، والموضوعية في السّرد، تستوجب أن نبين للقارئ أنه إن لم تذكر بعض الأسماء لمن ساهموا، أو كانت لهم مشاركة بشكل ما، أو كلفوا بمهام فعالة في تلك المحاولة، فإن ذلك لم يكن بقصد اسقاط أسم من القائمة، أو إغفالٍ لتضحية أحد، وإذا ما وقع ذلك، فالسبب راجع - بكل صدق - للأسباب الآتية :

1- يروي « عبدالونيس» القصة من مخزون ذاكرة بشرية مجردة، وعن أحداث تباعدت زمنيا بما يربو عن سبع وأربعين سنة ،، تخللتها أوقات عصيبة، وقد تعرّض ومن معه في السجن لأحداث مريعة، بلغت قسوتها أن تسببت للبعض في فقدان العقل.
2- البلاد شاسعة، والأهداف المراد السيطرة عليها حينذاك كانت عديدة، وليس من السهل أن يستجمع المرء حصر الأسماء والأدوار والمهام لجميع المساهمين فيها.
3- توزيع المهام وتحديد ساعة الصفر لتلك المحاولة، كانتا بيدي (موسى أحمد و آدم الحواز) دون غيرهما، وبالتالي فإن الإلمام بعدد ، وبأسماء ، وأدوار المشاركين فيها، أمرٌ يستوجب ضرورة الحفاظ على سرّيتة التامة ، وألا يعرفه إلا من يقود المحاولة.
وبالتالي، فإن عدم ذكر بعض الأسماء، أو بيان المهام في هذا السّرد ، وارد - احتمالا - بأسبابه المذكورة، دون أي قصد آخر لدى صاحب السيرة أو المؤلف.

وبالرجوع إلى الموضوع، فإن الكثير منا لا يعرف شيئا عن تلك المحاولة المبكّرة،، والتي أعقبت انقلاب سبتمبر بثلاثة أشهر فقط ، وفي فترة وجيزة جدا تبعث على تساؤلٍ ليس له إلا إجابة واحدة، وهي أن المشارك في انقلاب سبتمبر عندما راقب الأمورعن قرب، أيقن بما لا يدعو مجالا للشك أن الأمر يستدعي الإسراع وعدم الإبطاء بتصحيح المسار وتلافي الوضع قبل استفحال الأخطاء، خاصة وأن من خطّط لمحاولة الانقلاب الثانية وقادها هم الرجال الفاعلون والأساسيون في نجاح انقلاب سبتمبر منذ أمدٍ قريب. أو لعلهم شعروا بمسئوليتهم تجاه الوطن الذي ساهمت نتيجة مشاركتهم في انقلاب أول سبتمبر بوضعه في أسوأ المواضع، وفي أحرج مراحل تاريخه، وعليهم أن يبادروا باسترجاعه.

و خلاصة المضمون الذي توصّلتُ إليه بعد النقاش مع « عبد الونيس » حول هذه المحاولة، وأهدافها و دوره فيها، والسبب الذي دعاهم إلي سرعة اتخاذ القرار بتنفيذها بُعيد هذا الوقت القصير من الانقلاب الأول ؟، أوضحه فيما يلي :

(من المعروف أن انقلاب سبتمبر قد وقع بسهولة، وبما يشبه ضربة حظ تحققت ببساطة،، ومن الثابت أيضا أن الهدف الوحيد لدى من دبّروا الانقلاب كان لا يزيد عن احتجاز المسئولين، والقبض

على القيادات في الجيش وفي الأمن القادرين على إصدار الأوامر بالتحرك ضدهم، ومن ثم، احتلال الإذاعة للإسراع بتلاوة البيان الأول، كما هو التقليد المعروف لكل الانقلابات العسكرية، و تجهيز مجموعة أشرطة حماسية تتغنى بالأمجاد، تباشر بها الإذاعة بثها ليلا نهارا، لمجرد شحذ الحماس في النفوس، إلى أن يتمكن الإنقلابيون من بسط سيطرتهم على البلاد،،، ثم سيكون بعد ذلك لكل مستجدّ تدبير، وهكذا،، كان الهدف محددا في كيفية قلب الحكم لا غير...)

ولانستغرب ـ منطقيا ـ والحال هكذا أن تُثار التساؤلات الآتية: ماذا بعد قلب النظام ؟، وما هي صيغة وشكل الحكم البديل... ؟ وهل ستكون ثمة مصداقية عند الانقلابيين لما قد تم الاتفاق عليه فيما بينهم مسبقا بتسليم البلاد إلى حكومة مدنية، ورجوع الجيش إلى ثكناته بعد نجاح الثورة ..؟؟

ولكن السلبيات التي أدّت إلى إشاعة الفوضى، والتّخبط في اتخاذ القرارات العشوائية العاجلة، وتأرجح أمور البلاد بين عقول مشوّشة و خبرات محدودة و أيدٍ مرتعشة، تلك حقيقة لا ينكرها أي متابع،،، وهي راجعة في أساسها إلى افتقار التنظيم إلى أية خطة جاهزة في الأساس لينتهجها بعد نجاح الانقلاب،،، وكأن الأمر لم يكن ليزيد عن جمهرة أرتال الآليات العسكرية في الشوارع وتلاوة البيان في الإذاعة، والاستيلاء على الحكم، وكفى...

أما ما بعد ذلك من أمور دستورية وقانونية وتنظيمية للدولة في الداخل والخارج، وارتباطاتها بالمنظومة الدولية، ورعاية الأسس السيادية، والحفاظ على المصالح الاقتصادية... الخ، كلها لم تكن قد جُهّزت لها أية استراتيجية مدروسة مسبقا لكي يتم تطبيقها بعد تغيير نظام الحكم...

فكان الأمر هكذا،، مثل قلب صفحة من كتاب، ولا شيء غير ذلك...!!!.

بُعيد انقضاء أيام الأعراس وانخفاض الضجيج في المهرجانات، و نشوة الخطابة في المؤتمرات الاحتفالية بقيام الثورة ، انتظر الكلّ من الجسم القيادي الجديد للبلاد أن يُري وجهه للناس ـ خاصة بعد التأخير الطويل في إعلان تشكيل مجلس قيادة الثورة ـ ويُسفر عن خططه وبرامجه، ليبرهن على الإتيان بما كان يدعيه من إنقاذ البلاد من (الفساد والرجعية والعمالة وربما حتى التفريط في السيادة .... الخ مما صدحت به أبواق النظام الجديد).

وتجلّت الحقيقة أمام المقدّمين المغرّر بهما (الحواز و موسى)، و لمجموعة الضباط الذين كانت مواقع أعمالهم وطبيعة مهامهم قريبة بشكل أو بآخر من مركز اتخاذ القرارات بالنتائج الآتية :

1- التأخير في تشكيل مجلس قيادة الثورة كل تلك الفترة، راجع إلى الرغبة في إبعاد المقدّمين اللذين شاركا في الثورة بمهام مؤثرة ومشاركة فاعلة، من عضوية المجلس. (المقدم آدم الحواز و المقدم موسى أحمد ومجموعة من الضباط الفاعلين)، و بدلا عن عضوية المجلس أسندت لهما وظائف وزارية إدارية، تابعة لمجلس مدني يرأسه رئيس مجلس الوزراء.

2- نظرا لتدنّي رتب أعضاء مجلس الثورة والضباط الأحرار، فقد تم تفريغ الجيش من جميع القيادات الكفؤة من ذوي الرتب الكبيرة، حتى لا يكون أحد أعلى منهم رتبة، وبالتالي فقد الجيش كوادر خبراته الإداية والفنية.

3- عدم وجود خطة استراتيجية مسبقة للبلاد كما ذكرنا، والنقص الشديد في الخبرة والتجارب لدى منفذي الانقلاب، مع صغر السّن وحداثة العهد بالجيش، و انعدام القدرة نهائيا على قيادة البلاد سياسيا،،، كلها عوامل نتج عنها فوضى وإرباك وتخبط واضح و رعونة في اتخاذ القرارات.

4- التصرف ببعض الإجراءات الدالة على احتواء بعض الأنفس من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة لميول جهوية ليست محمودة، فقد ظهرت الرغبة لدى رئيس النظام مبكرا في إبعاد مركز السلطة عن الإقليم الذي تعمّده بالتهميش لتثبيت دعائم سلطته بتعميق التناقضات بين الأقاليم والمدن والقبائل، الإقليم الذي توجد به الكلية العسكرية التي تكوّن فيها أساس التنظيم، والمنطقة التي تشكل من أبنائها معظم عناصر التنظيم المسمى (الضباط الوحدويون الأحرار) و كان لاثنين من رجال ذلك الإقليم (المقدمين : آدم الحواز و موسى أحمد) كل الفضل في نجاح الانقلاب... وحيث تقع المدينة التي انطلقت منها شرارة الثورة، ذلك الإقليم بتركيبته السكانية ذات النسق الاجتماعي القبلي المتماسك، والذي لم يكن الإذعان فيه للسلطة سهلا إذا ما شاغبت وعارضت، كما هو مثبت فيما حوته صحائف التاريخ لأمثلة عديدة من صعوبة مراسها من قبل، كالذي أجبر العثمانيين و القرمانليين سابقا على تسيير حملات حربية متلاحقة لشرق البلاد لغرض الإبعاد الجبري لشرائح قبلية معينة إلى القطر المصري، وما أجبر أيضا دولة إيطاليا المستعمرة على محاربتهم عشرين عاما متواصلا رغم قوتها وكثرة عتادها ،، وهو نفس الإقليم الذي احتاجت بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية وهي تجابه قوات المحور (ألمانيا و إيطاليا) في شمال إفريقيا، إلى رجال منه للتطوع بمساعدتها في كسب الحرب على الأراضي الليبية، فبادرت بالاتفاق مع الأمير «إدريس السنوسي» أمير برقة في ذلك الوقت، لكي يشكل الجيش السنوسي (جيش التحرير) سنة 1940 ويطلب منهم مساعدة الجيش الثامن البريطاني في ذلك الغرض، وقد تم ذلك، وبتفوق كبير صدرت بموجبه الكثير من الشهادات والنياشين من حكومة صاحبة الجلالة إلى ضباط وجنود الجيش السنوسي الذين ساعدوا القوات البريطانية فدحروا عدوهم و أخرجوا قوات المحور إلى الحدود التونسية غربا.

ربما لهذه الأسباب وغيرها، تم التخطيط من البداية - بعيد نجاح انقلاب سبتمبر - للسيطرة على أغلب الوحدات العسكرية للجيش في الإقليم الشرقي ، ونقل مخازن الذخيرة الضخمة من منطقة (الرّجمة) القريبة من بنغازي إلى إقليم آخر بدون مبرر تستدعيه أية ظروف مكانية أو أحداث جارية...

والدليل الثاني على إثبات تلك النّيات المشبوهة (حسب ما أورده عبد الونيس في مذكراته) هو ترحيل أسلحة القوة المتحركة الضخمة بمعسكر قرناده وتفريغه من الأسلحة المهمة، إذ عندما قرر

وزير الدفاع (آدم الحواز) بأن يكون معسكر قرناده مقرا لوحدة مدرعات، واختار كتيبة الدروع الثانية بقيادة النقيب « عمر الواحدي » لتشغل المعسكر، ولكن القرار لم يعجب - فيما يبدو- القائد العام للقوات المسلحة « العقيد معمر القذافي » فاتخذ قرارا سرّيا دون علم وزير الدفاع، بتجريد معسكر (قرناده) من جميع الأسلحة المهمة، وسحب عتاده ، ولم يترك لكتيبة المدرعات الثانية التي شغلت المعسكر لتوّها، سوى ما يعرف عسكريا بذخيرة الخط الأول المحدودة، والتي تنفذ بسرعة مالم يكن خلفها خط فعال للإمداد السريع..؟!. بالرغم من أن معسكر قرناده، ومعسكر درنه، و معسكر طبرق كانت أحوج ما تكون لتلك الأسلحة والذخيرة التي تم ترحيلها.

5- نزوع «معمر القذافي» نحو الانفراد بالسلطة أضحى واضحا من البداية، فالتفرّد أيسر مَراماً واقترابا لمسكه بالسلطة كلها، فجعل الأمر بيده بدءا ونهاية، وما الآخرين في - وجوده - إلا غلمانا، يجمعهم الأمر ويفرقهم الزّجر، ويحسبون أنفسهم فاعلين في خدمة الثورة.

6- الارتماء المخجل في أحضان دولة (مصر) المجاورة، وطلب التوجيه منها في كل الشئون السيادية، والعسكرية والاقتصادية، بل وحتى الإدارية. فانفتحت أبواب جميع شئون البلاد مكشوفة في دقيقها وجليلها.... مرتعا مُشاعا لجميع الأجهزة الاستخبارية على جميع المستويات، وفي كل الشئون،،، فتجاوز حبّ القومية و عشق (النّاصرية) حدود كرامة الدولة وسيادتها، وهيبتها، وشئونها الخاصة...كما سبق سرده من العجب العجاب فيما رواه « فتحي الديب » المبعوث الخاص للرئيس عبدالناصر في مذكراته عن مهمته في ليبيا.

" وللأسف فقد أضحت تلك التّبعية المخجلة بمثابة طعنات في صدر الهويّة...! "

بل وأصبحت السفارة المصرية من خلال مبعوث «عبدالناصر» الخاص السيد «فتحي الدّيب» (ذو النظارة السوداء التي لا يخلعها أبدا) هي التي تسيّر أمور البلاد، فيما يشبه الإملاء على مجلس قيادة الثورة بما يجب وما لا يجب... وتمت السيطرة على الجيش من خلال البعثة العسكرية بقوات من الصاعقة، وسفن حربية، وقوات جوية،،، وأغلبها كانت بمدينة بنغازي والمنطقة الشرقية،،، وكل هذا أساء بدون شك إلى تاريخ وسمعة الجيش الليبي إساءة بالغة، خاصة بعد تفريغه من كل الكفاءات والكوادر، وإلى تاريخه المشرف منذ تأسيسه في المنفى في 9 أغسطس سنة 1940.

7- تمركز مكتب ضابط المخابرات «صلاح السعدني » رئيس البعثة العسكرية، بجانب مكتب وزير الدفاع « المقدم آدم الحواز » كما أسلفنا، وأصبح مراقبا لاجتماعاته وللقادمين إلى مكتبه، وأضحت تقاريره تتوالى تباعا، راصدة لكل اجتماعاته واتصالاته، مؤكدا في بعض ملاحظاته أن الوزير يقضي ساعات طويلة في اجتماعات خلف باب مكتبه المقفل!.

كما « أن فتحي الديب » مبعوث « عبدالناصر» بات يعرف عن طريق أعوانه المنتشرين في كل الأماكن المهمة، كل ما يدور في الأروقة، وفي الأسواق والطرقات وثكنات الجيش والجامعات

والمدارس ... بل ووصل إلى سمعه وفي أكثر من مره، ما كان يقوله «موسى أحمد» ويردده باستمرار بأن : (فتحي الديب صار هو الذي يحكم بلادنا من وراء الستار).

(فتحي الدّيب) رجل المخابرات المحترف، والعلاقة الحميمة بمجلس قيادة الثورة ...

(نظرات الإعجاب والابتسامات العريضة من قبل معمر القذافي ومصطفى الخروبي)

أما عن توقيت المحاولة والإسراع بها، والأهداف المرجوة منها فقد كانت كالتالي: (*)

1- ضرورة الاسراع بالتحرك لتعديل المسار، لأن التأخير في التصدّي لتلك الأمور، يعطي الانقلابيّين المزيد من الوقت لتثبيت أقدامهم في السلطة، وبالتالي تصعب إزاحتهم.
2- إنقاذ البلاد التي أضحت تُتّخذ فيها قرارات مصيرية هادمة، تُعيبها الرّعونة والتسرّع على الصعيدين المحلي و الدولي منذ الأيام الأولى لتولي النظام الإنقلابي للسلطة، نظرا لانعدام القيادة الواعية و المجرّبة، في دولة لم تكن لها أية عداوة مع أحد في تاريخها، وعُرفت في جميع المحافل الدولية بالحياديّة والوسطيّة، والسياسة الرصينة الهادئة.
3- المحافظة على أموال ومقدّرات الشعب الليبي، من التصرفات السريعة والغير مدروسة، بخصوص المساعدات والهبات وتمويل بعض الكيانات المنشقة هنا وهناك، قبل التّحقق من ايدولوجياتها الفعلية.
(تم شراء طائرات حربية من فرنسا بأموال ليبية لصالح مصر، وتمت المفاوضات وإتمام الصفقة، وقام الفرنسيون بتدريب أطقمها الذين لم يكونوا ليبيين، بل هم في الحقيقة ضباط مصريون مزودون بجوازات سفر ليبية مزوّرة....!!!).

4- رد الكرامة والاعتبار للجيش الليبي الذي بلغت به الإهانات مداها بما دأبت عليه ممارسات التهميش وإبعاد قادة كوادره، ووضع حد للتصرفات الاستفزازية التي يأتي بها « فتحي الديب و صلاح السعدني » من تدخلات تمسّ حق رجاله وكفاءاتهم.

5- تسليم إدارة البلاد لسلطة مدنية فور نجاح المحاولة، وإبعاد الجيش عن ممارسة السياسة، وكان البعض من الأشخاص المدنيين الذين وردت أسماؤهم أثناء الاجتماعات الذين سيكون لهم مشاركة في استلام السلطة في حالة نجاح المحاولة حسب ما يزال « عبد الونيس » يذكره وهم (مصطفى بن عامر، و محمود المغربي، و آخرين).

أما عن كيفية و زمن التنفيذ، والتكتيك الذي تتم به تلك المحاولة ، فقد اتضح مما أورده «عبد الونيس » أن المقدم « الحواز » قد انفرد بتحديد ساعة الصفر، وبتفاصيل الخطة، وتوزيع الأدوار على المشاركين، والواجبات المناطة بكل منهم.

وأما بداية الانطلاق، عند ساعة الصفر فقد كانت في انتظار استعداد وجاهزيّة الوحدات المشاركة في المحاولة، والتي كانت في الواقع قاب قوسين أو أدنى في الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر رمضان/ ديسمبر 1969 م.

تنـويـه: سبقت الإشارة في استهلال هذا الفصل، إلى أن أسماء الأشخاص الواردة في هذا الكتاب هي ما بقيت في ذاكرة «عبدالونيس » ، فنلتمس العذر مقدما عن أي سهو عن ذكر البعض، أو احتمال الخلط في وصف المهام،، وفي الإجمال فإنه تخريج مُستحضر من الذاكرة الآدمية المجردة لأحداث منذ زمن بعيد وقد شارف حدوثها على مدة نصف قرن..!

وتم إعداد خطة تقسيم العمل على جزأين :

أولا : المنطقة الغربية

أ – مدينة طرابلس (مجلس قيادة الثورة + الإذاعة والوزارات والهيئات) وتختص بها المجموعة الآتية:

1- مقدم موسي أحمد يقود العمل بالمنطقة.

2- رائد عبدالسلام عزالدين المدني الاستيلاء على مقر مجلس قيادة الثورة .

3 - رائد الهادي بالقاسم كتيبة مدفعية مصراته.

4- نقيب عبدالرزاق بالخير لإدارة إذاعة طرابلس بعد نجاح المحاولة

5- ملازم محمد التونسي باب العزيزية.

6- نقيب علي لطيوش 7- نقيب ابراهيم الصّكوح.

ب - مدينة الزاوية : رائد علي الحداد وهو آمر الكتيبة الآلية الخفيفة، ومهمته التحرك نحو طرابلس لاحتلال الإذاعة ومعه مجموعة من الملازمين (كتيبة آلية خفيفة).

جـ - مدينة الخمس: نقيب محمد النحايسي وكتيبة مدرعات + ملازم أول فرج التومي

هـ - مدينة مصراته : رائد الهادي بالقاسم كتيبة مدفعية ومعه ملازمين .

ثانيا : المنطقة الشرقية :

أ- مدينة بنغازي (مجلس قيادة الثورة و الإذاعة و وزارة الدفاع).

1- مقدم آدم الحواز يقود العمل بالمنطقة، و التنسيق مع مجموعة مدنيين بالإذاعة.

2- رائد آدم أحمد
3- نقيب عبد الونيس محمود
4- ملازم أول سليم الحجاجي
5- ملازم أول محمد مصطفى عبد القادر

مهمة هذه المجموعة استهداف كتيبة المدرعات التي تقوم بحماية مجلس قيادة الثورة في بنغازي واقتحام المجلس واعتقال أعضائه .

(ملازم أول محمد مصطفى عبدالقادر الموجود أصلا بكتيبة المدرعات التي تحمي مجلس قيادة الثورة، هو من سيقوم بنزع إبر المدرعات عند الضرورة بمعاونة النقيب حسن محمد جبريل ومجموعة ضباط الصّف الفنيين من الهندسة الآلية الكهربائية)

6- نقيب حسن محمد جبريل ومعه مجموعة ضباط صف فنيين / الهندسة الآلية، من أجل نزع إبر المدرعات عند الضرورة كما سبق توضيحه.

7- رائد الزروق الأثرم وزارة الدفاع ببنغازي.

8- نقيب سليمان عقوب الرفادي،، تحريك الكتيبة الثالثة من الأبيار ، ويشاركه في المهمة كل من النقيب محمد العريبي، والملازم محمد الكيلاني، للسيطرة على منطقة بنينه حيث المطار، ومعسكرا آخرا كان من ضمن معسكرات القوة المتحركة سابقا. (لقد كان للنقيب سليمان عقوب الرفادي دورا حاسما أيضا ليلة انقلاب الأول من سبتمبر سنة 1969 وهو آمر لإحدى سرايا المشاة في كتيبة المشاة الثالثة بمعسكر الأبيار رغم وجود من هو أقدم منه ، حيث قام بدور فعال وشجاع بإقناع عدد كبير من الضباط بالتّحرك والاشتراك في الحركة، وقامت الكتيبة الثالثة باحتلال معسكر مخازن الذخيرة بمرتفعات «الرّجمة » وهي أكبر وأضخم مخازن ذخيرة للجيش الليبي في ذلك الوقت، وبعد إتمام السيطرة عليها، قام بإرسال سريته مع عدد من الضباط لاحتلال معسكر القوة المتحركة في قرية «بنينه»، ثم انتقلت بعد ذلك للسيطرة على مطار بنينه، وقامت بكل ذلك بسرعة وكفاءة).

بـ - <u>مدينة البيضـاء</u> : يحتلها النقيب عمر الواحدي آمر كتيبة المدرعات الثانية بمعسكر قرناده. ويساعده النقيب عبدالكريم عبدربه أمر منطقة البيضاء العسكرية الموجود بها أصلا، وكذلك الرائد عاشور علي الشوماني مدير أمن البيضاء.

و من الإنصاف أن نذكر أسماء مجموعة أخرى من الضباط المهمّين الذين انضموا للمشاركة في المحاولة، وأبدوا استعدادهم للعمل فيها بشجاعة وحماس.... فهم أولئك الذين لا يزال «عبد الونيس » يذكرهم مشاركين في الحركة، ولكنه لم يعد يتذكر المهام والأدوار التي أنيطت بهم في المحاولة ـ بتأثير طول الزمان وعذابات السجن والغربة ـ ، وفي الإجمال فإن تلك المهام لا يعرفها بالتحديد سوى الوزيرين (آدم الحوّاز و موسى أحمد) رحمهما الله، فهما بطبيعة الحال من قاد المحاولة في شرق البلاد وغربها، ولديهما فقط جميع التفاصيل وتوزيع المهام.

وهؤلاء الضباط هم:

1- رائد عبدالمطلوب عزوز
2- رائد خليل جعفر
3- رائد محمد علي الفيتورى
4- رائد أبو مدين الفلاح
5- نقيب المبروك عامر العجيلي
6- نقيب طيار مفتاح الشّارف
7- ملازم أول طيار محمد الصابر الشاعري
8- ملازم حسن الشريف
9- ملازم أحمد السنوسي
10-ملازم إدريس مرواس.

لقد كانت مشاركة « عبد الونيس» في المحاولة تنحصر في مهمتين:-

أولا: التنسيق بين (الحواز وموسى أحمد)، ومع المجموعتين في كل من طرابلس وبنغازي.

ثانيا: عند انطلاق العملية، يقوم بالاشتراك مع مجموعة فريقه بتطويق مقر مجلس قيادة الثورة في بنغازي لأن معظم أعضائه كانوا متواجدين فيه خلال شهر رمضان... و في حالة فشل المحاولة، فإن واجبه هو التأكد من أن الضباط المكلفين قد قاموا بنزع إبر المدرعات حتى لا تستعمل عكسيا ضدهم.

و عندما تنجح المحاولة، فإن قوائم الاعتقالات كانت معدة بالفعل، وفي مقدمتها أعضاء مجلس قيادة الثورة وقيادات الجيش الموالية لهم...ولا يزيد الإجراء المتفق عليه، عن اعتقالهم لشل حركتهم، ومنعهم من إصدار الأوامر المضادة، ولكن ليس للقتل إلا في حالات الدفاع عن النفس، ولم تكن النية في الأساس مبيتة للقضاء على أحد بمعنى القتل المتعمد، إلا في حالة وقوع مقاومة، وتبادل لإطلاق النار بين الطرفين.

وأما المحاكمات التي كان من المتوقع أن يمثل أمامها من تتم الإطاحة بهم، فلم يرد ذكرها، بل ولم تجر أية مناقشة سابقة بين مدبري هذه المحاولة حول محاكمة أحد،،، وقد يستغرب القارئ إن عرف حسب ما بيّنه « عبد الونيس» أن فكرة إطلاق سراحهم كانت واردة منذ البداية، ولكن بعد أن تتم السيطرة الكاملة على الجيش وعلى البلاد، وبعد أن يتم التثبت من استقرار الأوضاع، دون تحديد مدة زمنية معينة.

وعلى كل حال، فإن نقطة الضعف الأساسية التي أفشلت تلك المحاولة راجعة إلى سببين رئيسيين هما:

1 - ارتكاب ثلاثة ضباط من قادة تلك المحاولة أخطاء قاتلة... وهم:

أ- مقدم موسى أحمد وزير الداخلية.

ب- نقيب خليفه عبدالله عويضه مدير المخابرات العامة.

ج- نقيب عمر محمد الواحدي آمر كتيبة المدرعات بقرناده.

وتمثلت تلك الأخطاء الجوهرية في عدم أخذ الحيطة والحذر، و بسبب التّهور في الحديث بالمجالس الخاصة والعامة خلال لقاءات وسهرات ليالي شهر رمضان، و أثناء الاتصالات الثنائية، أو عند اللقاءات والاجتماعات السرية.

وكذلك عند إجراء المكالمات التليفونية التي كانت تحت المراقبة، أو أثناء الحركة بين الثكنات العسكرية وتوقيتها،، إضافة إلى إطلاق التهديدات العلنية ضد البعض من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

2- عدم التزام ثلاثة ضباط آخرين - ممن تم إشراكهم في الأمر - بالوفاء بالعهد بالمحافظة على السّر..... (من الحكمة أن نكتفي هنا ببيان الرّتب العسكرية وترتيب الدفعة فقط لهؤلاء الثلاثة، بدون ذكر الأسماء) ... وهم حسب تسلسل الأقدمية:

رائـــد: من الدفعة الرابعة،

نقيـــب: من الدفعة السادسة،

ملازم أول: من الدفعة الثامنة.

هؤلاء الثلاثة قاموا في لحظة ضعفٍ وانكسار إرادةٍ بإفشاء السّر والوشاية بزملائهم، والإبلاغ عن المحاولة للأسف،،،

لهذين السببين الرئيسيين تم اكتشاف الأمر ببساطة،، فباءت المحاولة كلياً بالفشل الذريع، ومن تلك اللحظة تحديدا بدأت المأساة...

وبعد تقديم الكشف بأسماء (المتآمرين) «للخروبي » من قبل «فتحي الديب » ليلقوا جميعا مصيرا مدمّرا، فإن « الديب » قدّم خطة جديدة إلى مجلس الثورة أسماها :(مواجهة الموقف)، وقد أوردها بصفحة 158 من كتابه السابق ذكره، وتحددت هذه الخطة فيما يلي من بنود، وهي التي طبقها مجلس الثورة بحذافيرها، بالكيفية الآتية :

1 - وضع تنظيم للمخابرات العسكرية

2 - ترقية الضباط (أعضاء التنظيم) لجعلهم أقدم من أي ضابط آخر.

3 - تعيين وزير دفاع من بين أعضاء مجلس الثورة.

4 - إبعاد العناصر الخطرة على الثورة وتكليفهم بوظائف خارج البلاد.

5 - ترحيل من يعتبر وجودهم خطرا إلى مصر وتحديدا إقامتهم بالقاهرة .

6- إيقاع عقوبة قوية و رادعة بمن دبّروا الانقلاب ضد الثورة.

استعرت حملة الاعتقالات يوم 7 ديسمبر 1969 الموافق السابع والعشرين من رمضان لتشمل ما يزيد عن أربعين ضابطا، من بينهم «عبد الونيس »، فهو بجانب الوشاية به ممن أبلغوا عنه ، كان ينتقد الوضع علنا كما أسلفنا، علاوة على أن تَميّزُه يشكل في نفس الوقت عقدة نقصٍ في الأساس لدى من أصبح في الصّدارة، ليقينه بأنه كان يمتاز عنه، وعن كل من كانوا معه.

ورغم أن كافة التحقيقات فيما بعد لم تثبت أي دليل يؤكد اشتراكه في المحاولة بأي وجه إثبات أو دليل ملموس، وأنه استطاع بصبر يفوق التصور أن يتحمّل كل ما لقي من التعذيب والضرب والإهانة والتخويف في التحقيق الذي استمر لأكثر من شهرين في محاولة من المشرفين على التحقيق بانتزاع الاعتراف منه بأي شكل عن نفسه وعن آخرين لا يزالون غير ظاهرين لأجهزة التحقيق ممن كانوا ضالعين في المحاولة، ورغم ذلك فقد احتمل وتصبّر بجهد منقطع النظير كي لا يعترف بشيء، وأن يتكتّم على أسماء زملائه الضباط الذين كان قد اتصل بهم عند الإعداد للمحاولة ، واستطاع إقناعهم بالمشاركة فيها، فأنجاهم بصبره وثباته من ذلك الويل،، واستمروا بأعمالهم في الجيش فيما بعد بشكل طبيعي دون أن ينكشف أمرهم، أو أن يعرف أحد عنهم شيئا،، ولعل في عدم إدلائه بأية معلومات عنهم، وإنقاذهم من ذلك المصير المدمّر الذي لقيه هو ومن معه، ما يمكن اعتباره عتقا لرقابهم،، لأن من أطبقت عليه أسوار السجن من أولئك الرجال بسبب تلك المحاولة ، قد واجه مصيرا مخيفا محددا في ثلاث نهايات بشعة :

1- إما الخروج من السجن ـ لمن كتبت له الحياة ـ ببقايا إنسان فاقد لمعظم قدراته الجسمية ،،، كما كانت حالة « عبد الونيس » عند خروجه.

2- أو الإصابة بالجنون.

3- أو الموت بسبب التعذيب، أو الأمراض وسوء التغذية، أوبالإعدام سرا في السجن.

وقد كانت مجموعة الضباط الذين تواصل معهم « عبد الونيس» أثناء الإعداد للمحاولة، ودعاهم فأبدوا قبولهم بالمشاركة فيها، والذين تكتّم على أسمائهم بصبر وعزم شديدين عندما تعرض لتعذيب

لا يُحتمل أثناء التحقيق، فحقق لهم النجاة من ذلك الويل، واستمروا في مقار أعمالهم مستورين ،،، وفيما يلي قائمة بأسماء من لا يزال يذكر من أولئك الناجين:

1- رائد الزروق الأثرم

2 - ملازم عمر عبد الجواد

3- ملازم أول ابريك الطشاني

4 - ملازم محمد مبارك الشكلول

5- نقيب محمد العريبي (وهذا قد تكتّم عليه النقيب سليمان الرفادي أيضا، وأطلق سراحه قبل المحكمة).

6 – ملازم سالم الشريف

7- ملازم إدريس مرواس

8- ملازم أول صالح ونيس

9- ملازم يوسف مصطفى القبائلي

10- ملازم محمد عباس

11- ملازم فتح الله عثمان

12- ملازم سعد الزروق

13- ملازم سالم بو نواره

14- ملازم مصطفى يوسف آدم

15- نقيب حسين الكاديكي.

16- رائد المبروك عبدالمولى امراجع (حكم بالبراءة)

17- نقيب حسن محمد جبريل (أطلق سراحه قبل المحكمة).

18- ملازم محمد الكيلاني (وهذا قد تكتّم عليه أيضا النقيب سليمان الرفادي وأطلق سراحه).

وبالرغم من إنكاره المطلق للتهم الموجهة إليه، وبعدم إثبات شهود ضده، الأمر الذي دعى المحامي فيما بعد ـ أثناء المحكة ـ لأن يطلب من المحكمة إعلان براءته، وإرجاعه إلى سابق عمله بالجيش، إلا أن الأمر في كل الحالات كان مقررا...!!

و هكذا إذاً،، بدأت رحلته ـ مُسيّرا بأولى خطواته ـ نحو مصير آخر كان القدر يخفيه،، قدرٌ مختلف و قاتم و مخيف...

قدرٌ غيّر كل مجرى حياته، و ساقه مع دروبٍ لم يتصور يوما أن ستطأ قدماه مخاطر مسارها، و أن سيكرّس جلّ اهتمامه في الباقي من عمره ليتجنّب حافّة سحيق هاويتها...

فكان أن انسلخ عمره مسجونا أو طريدا مختبئاً عن أنظار كل من يعرفه، بل حتى عن أفراد أسرته.

والجدير بالذكر أنه قد توالت بعد تلك المحاولة، محاولات أخرى تتابعت على مرّ الأعوام اللاحقة، وكان أن اعتاد الشعب على الانشغال بالجديد منها، وعن تفاصيلها والأشخاص المتورطين فيها، وصارت أحداث المحاولة الأولى تلك وأسبابها وأهدافها تبتعد عن مركز اهتمام الناس شيئا فشيئا انشغالا بتتبع ما تلاها من محاولات، وبابتعاد ذكراها عن الأذهان ابتعدت أيضا أسماء وملامح ضحاياها في وقت كانوا فيه يقاسون أشد الويل في سجن (الحصان الأسود) عن مركز التذكر في الناس، فأطبق عليهم الظلام من كل جانب ولسنوات طوال.

أما محاولات الانقلاب والتخلص من النظام الاستبدادي التي حدثت بعد المحاولة الأولى، فقد أعلن عن البعض منها ولم يعلن عن البعض الآخر، والمحاولات الشهيرة التي عرفت وشغلت الرأي العام في الداخل والخارج فقد تواردت كالآتي:

1- في شهرمايو 1970 : حركة السيد «عبدالله عابد السنوسي» التي بدأت من (روما) بالاتفاق مع مجموعة ضباط من الجنوب، واكتشف الأمر، وشن النظام حملة اعتقالات للضباط والأشخاص المدنيين المنضمين إليها، ففشلت المحاولة وبقي السيد «عابد »في مهجره.

2- في شهر أغسطس 1975 : محاولة الرائد« عمر المحيشي» عضو مجلس قيادة الثورة بمساعدة (21) من الضباط، وكانوا جميعا من رفقاء القذافي، وتم إلقاء القبض عليهم جميعا ما عدا «المحيشي» الذي فر للخارج ليمارس نشاطه المعارض من مصر أولا، ثم انتقل إلى دولة المغرب التي سلمته ـ للأسف ـ للقذافي سنة 1983، وقيل أنه جيء به مُخدرا، وأيا كانت كيفية تسليمه، فقد تم قتله فور وصوله.

3- في 8 مايو1984 : حاولت الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا تنفيذ اقتحام مقر القذافي في باب العزيزية بطرابلس ، ولكن اعتقال السيد« أحمد حواس» قائد المجموعة أثناء دخوله البلاد كشف

أسرار المحاولة وأدى إلى إفشالها، وجرت بالبلاد حملة إعدامات بشهر رمضان، وحركة اعتقالات واسعة بين صفوف المدنيين والعسكريين الذين كانت لهم صلة بالمحاولة.

4- في شهرأكتوبر 1993 : حاولت الجبهة الوطنية من جديد تنفيذ انقلاب آخر اعتمادا على مجموعة ضباط من داخل الجيش يقودهم «مفتاح قروم»، ولكن الكيفية التي تم بموجبها اكتشاف المحاولة ظلت مجهولة، إذ هجمت قوات النظام على معسكر بمدينة بني وليد وقصفته، وجرى اعتقال عدد من الضباط من أبرزهم «مفتاح قروم» حيث تم إعدامه هو ورفاقه بتهمة الخيانة العظمى.

وعلى أية حال فإن تفاصيل مسلسلات تلك المحاولات اللاحقة شأن آخر، ويستحق البحث فيه من ذوي اختصاص، وفي مجال مستقل عن مضمون هذا الكتاب.

******

المحاكمـات العســكرية

قبل المحاكمة، وأثناء التحقيق، تعرض المتهمون لعذاب شديد، وموورست ضدهم أبشع صور المهانة الجسدية والمعنوية رغم صدور الإعلان الدستوري بتاريخ 11 ديسمبر 1969 المنوّه عنه سابقا، وهو (الأول و الأخير) في نفس الوقت من قبل (مجلس قيادة الثورة).... وتمنع نصوصه تعذيب المتهمين جسديا أو نفسانيا كما تطرقنا إليه من قبل ببيان نص المادة (31) منه.

انعقدت المحكمة الأولى بتاريخ 2/10/ 1970 برآسة الرائد« محمد نجم » (عضو مجلس قيادة الثورة)، وعضوية كل من : « نقيب عبدالفتاح يونس» و ملازم أول «مفتاح رشيد»، ومثّل الادعاء في المحكمة النائب العام في الدولة : «حسن بن يونس ». وبرغم كل الضغوطات على الرائد «نجم » ، إلا أنه لم يصدر حكما بالإعدام على أحد من المتهمين،،، وتفاوتت الأحكام ما بين السجن المؤبد، وبالسجن لمدد متفاوتة، و الحكم بالبراءة، ولقد كان نصيب «عبد الونيس » في حكم تلك المحكمة مدة ثلاث عشرة سنة سجنا....

تلك الأحكام لم تلاقي استحسان القذافي، الذي افتعل مسيرات تندد بالأحكام الضعيفة، وألقى خطابا تطرّق فيه إلى المحاولة، وإلى الأحكام الصادرة عن المحكمة الأولى، ثم ذكر « عبد الونيس » بالاسم،، واصفا إياه بأنه الضّال المضلل وقد ضلل الآخرين، وكان في هذا ما يكفي لهيئة المحكمة الجديدة أن تفهم الإشارة الصريحة.

كما كان النقيب « مصطفى الخروبي » عضو مجلس قيادة الثورة يطوف على مساجد بنغازي بعد صلاة الجمعة، ويخطب فيها بأن المتآمرين قد اتصلوا بأمريكا وبريطانيا، ووعدوهما ببقاء القواعد في ليبيا إذا ما نجحت محاولتهم ..!!!!، معلّلا السبب بأن توقيت المحاولة، وأحد أسبابها الرئيسية هو أن (الثورة قد بدأت مفاوضات الجلاء مع أمريكا وبريطانيا من أجل إزالة القواعد عن التراب الليبي) حسب قوله... في محاولة لإيهام الشعب بأن المتآمرين لا يريدون إجلاء القواعد الأجنبية عن التراب الليبي،،، وفي هذا الافتراء ما يكفي لتأجيج الرأي العام عند عموم البسطاء ضد القائمين بالمحاولة.

ولأول مرة في تلك المسيرات الممنهجة ينطق المواطن الليبي بالإيعاز الآثم الذي صبّه المغرضون في الآذان، فجرى على اللسان ،،، وهو (الشعب يطالب بالإعدام)....؟! مطالبين - حسب الإيعاز الموجّه - بإعادة المحكمة... والهدف من وراء ذلك هو إزهاق الأرواح لتصفية الخصوم.

كانت تشكيلة المحكمة الثانية جاهزة بدون ضياع للوقت، بل وحتى البعض من الأحكام أصبحت وفقا لاتجاه الرياح السائدة من الأمور المعروفة حتما، و تم الإعلان بالفعل عن تشكيل هيئة المحكمة العسكرية الجديدة : (نزولا عند رغبات الشعب) بالطبع ....!!

،،،،،

(الصور المنشورة على الصفحات القادمة التقطت خلال اجراءات المحكمة، ونشرت في حينها في جريدتي : « الحقيقة» و « الثورة ».

وهذه الصور مستعارة من محفوظات المؤرخ والكاتب الأستاذ : « سالم الكبتي » الذي تكرم بإمدادي بصورة منها...)

قرار الحكم الصادر عن المحكمة الخاصة الأولى بتاريخ: 1970/7/24

الحقيقة

جريدة يومية مستقلة

المحرر المسئول: محمد بشير المهوني

مدير التحرير: رشاد المهوني

الادارة والمطابع: المركز - بنغازي ص.ب ٦٢٦ - ٣٢١٣

هاتف ٦٦٧٧ - ٦٦٨٨ - ٦٦٩٩

العدد الأسبوعي

السنة السابعة — السبت ٦ جمادى الثانية الموافق ٨ اغسطس « أب » ١٩٧٠ م

صدور الأحكام في قضية التآمر

طرابلس – ٥ جماد الثاني – وال – اصدرت المحكمة العسكرية الخاصة حكمها في قضية التآمر رقم ١ – ٨٩ المتهم فيها كل من – ادم سعيد الحواز وموسى احمد مسعود واخرون ..

باريس ترحب باتفاق موسكو – بون

باريس – ٥ جماد الثاني – وال – صرحت الدوائر العليمة في باريس ان الحكومة الفرنسية رحبت اليوم باتفاقية عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي والمانيا الغربية .

وتضيف هذه الدوائر ان الاتفاقية ينبغي ان تؤدي الى تقارب وثيق بين حكومة موسكو وحكومة بون ، وزيادة اوجه التعاون بين البلدين .

وتقول هذه الدوائر ان توقيع هذه المعاهدة يعتبر خطوة في الاتجاه المعارض لسياسة التكتلات قد تؤدي الى الفراغ في العلاقات الدولية المتوترة .

وفي لندن اعربت الحكومة البريطانية عن اغتباطها الرسمي بشأن التوقيع بالحروف الاولى على معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفييتي والمانيا الغربية .

ولكن الحكومة البريطانية ابدت تحفظاتها تجاه هذا الامر قائلة ان المعاهدة لايمكن ان يكون لها

وفيما يلي نص منطوق الحكم.

نص منطوق الحكم ..

بسم الله وباسم الشعب ..

منطوق الحكم ..

باسم الشعب ..

بعد الاطلاع على اوراق الدعوى رقم ١ – ٨٩ بسجل مكتب الادعاء بمحكمة الشعب وبعد سماع اقوال المتهمين والادعاء والدفاع والاطلاع على المذكرات وبعد الاطلاع على المواد ٤٣ من قانون العقوبات العسكرية رقم ٤٩ لسنة ٥٦ وعلى المادة ٢،١ فقرة ١ من قانون العقوبات الليبي ..

وعلى المادتين ٢٦ ، ٢٧ من قانون العقوبات العسكرية وبعد المداولة قانونا حكمت المحكمة باجماع الاراء حضوريا .

اولا – بادانة كل من ادم سعيد الحواز وموسى احمد مسعود ومعاقبتهما بالسجن المؤبد وبطردهما من الجيش ..

ثانيا – وبادانة كل من عبد الونيس محمود سعيد وعبدالكريم عبد ربه وسليمان الرفادي وعمر الواحدي وعلي عبد اللطيف الحداد ومعاقبتهم بالسجن لمدة ثلاث عشرة سنة وبطردهم من الجيش ..

ثالثا – وبادانة ادم احمد والهادي ابوالقاسم العربي وخليفة عبد الله وابو مدين فرج الفلاح ومعاقبتهم بالسجن مدة عشر سنوات وبطردهم من الجيش ..

رابعا – وبادانة كل من علي مفتاح الطيوش وعبد الرزاق ابو الخير ومحمد فرج التومي ومحمد صابر الشاعري ومعاقبتهم بالسجن ٦ سنوات وبطردهم من الجيش ..

خامسا – وبادانة كل من محمد جمعه الشلماني وعبد المطلوب محمد عزوز ومحمد علي النيتوري وخليل محمد جعفر وحسن ابراهيم الشريف ومحمد مصطفى عبدالقادر بالسجن ثلاث سنوات وبطردهم من الجيش ..

سادسا – وبادانة سليم محمد الخفاجي وعاشور علي واحمد التوسي احمد ومفتاح احمد الشارف بالحبس سنة واحدة وباخراجهم من الجيش ..

وحكمت المحكمة ببراءة كل من البرولد عبد المولى وعبد السلام عز الدين المثنى وابراهيم عبدالله السكوح ومحمد حسن ابراهيم والبرولد عامر عبد الله واعفت المتهمين جميعا من المصروفات الجنائية ..

رفعت الجلسة ..

رسالة من حلو الى عبد الناصر

بيروت – ٥ جماد الثاني – وال – استقبل الرئيس شارل حلو اليوم السيد كمال جنبلاط وزير الداخلية اللبنانية .

وصرح جنبلاط عقب المقابلة بانه سيحمل اثناء زيارته للقاهرة التي بدأت مساء اليوم رسالة من الرئيس اللبناني شارل حلو الى الرئيس جمال عبد الناصر تتضمن رأيه في القضايا الراهنة .

طرابلس – ٦ جماد الثاني – وال – تلقى مجلس قيادة الثورة عددا كبيرا من البرقيات من المواطنين في كافة ارجاء الجمهورية يعرب فيها مقدموها عن احتجاجهم على الاحكام التي اعلنت مساء امس ضد المتآمرين في القضية رقم ١ – ٨٩ بشأن المحاولة الانقلابية الفاشلة المتهم فيها كل من ادم الحواز وموسى احمد واخرون .

وتطالب الجميع باعادة النظر في القضية واصدار احكام اكثر شدة وصرامة ضد هؤلاء المتآمرين وضد كل من يحاول النيل من ثورة الفاتح من سبتمبر .

رد رياض على روجرز ص – ٤

٨ صفحات

الثورة

الشعب سيد المجتمع

٢٠ مليما

الأحد ١٨ شعبان ١٣٩٠ هـ — الموافق ١٨ أكتوبر ١٩٧٠م

العسكرية الخاصة تصدر أحكامها على المتآ

يلتقي بجماهير الشعب على درب التحر

الإعدام جزاء المتآمرين على ثورة الشعب

أصدرت المحكمة العسكرية الخاصة باعادة محاكمة المتهمين فى قضية التآمر الفاشلة رقم ١-٨٩ هـ .. احكامها على المتهمين فى هذه المؤامرة وذلك فى جلسة عقدتها المحكمة عند الساعة الواحدة الا عشر دقائق من بعد ظهر امس بمقرها فى معسكر باب العزيزية .

وفيما يلى منطوق الحكم ..

باسم الشعب ..

بعد الاطلاع على أوراق الدعوى رقم "١٦" ٨٩هـ من سجل مكتب الادعاء العام بمحكمة الشعب وبعد سماع اقوال المتهمين والادعاء العام والدفاع واقوال الشهود والاطلاع على المذكرات:

وبعد الاطلاع على المواد ٤١/٢ و٤٢ و ٢٦ و ٢٧ من قانون العقوبات العسكرية رقم ٤٩ لسنة ١٩٥٦ وعلى المادة "٢٠١/١" من قانون العقوبات الليبى .

حكمت المحكمة باجماع الاراء حضوريا ..

باذانة كل من :

١ - ادم الحواز .

٢ - موسى أحمد

٣ - عمر الواحدى .

٤ - عبد الونيس محمود .

٥ - الهادى بلقاسم

ومعاقبتهم بالاعدام رميا بالرصاص .

٢ - وباذانة كل من :

١ - على عبد اللطيف الحداد .

٢ - عبد الكريم عبد ربه .

٣ - سليمان الرقادى

٤ - ادم احمد

ومعاقبتهم بالسجن المؤبد ..

٣ - وباذانة كل من ..

١ - ابو مدين فرج الفلاح .

٢ - خليفة عبد الله .

٣ - مفتاح الشارف .

٤ - محمد على القنودى .

٥ - محمد صابر الشاعرى .

٦ - محمد جمعة الشلمانى .

٧ - محمد فرج النومى .

البقية ص ٣

المحكمة العسكرية الخاصة أثناء النطق بالحكم

قرار الحكم الصادر عن المحكمة الخاصة الثانية في 17 أكتوبر 1970 م.

الثورة ـ صفحة ٣

الاعدام جزاء المتآمرين على ثورة الشعب ـ بقية

ومعاقبتهم بالسجن لمدة (١٣) ثلاث عشرة سنة ..
٤ ـ وبادانة كل من ..
١ ـ خليل جعفر .
٢ ـ عبد المطلوب بروق .
٣ ـ عبد الرزاق بالحاج .
٤ ـ علي الكويش .
ومعاقبتهم بالسجن سبع سنوات ..
٥ ـ وبادانة كل من ..
١ ـ عاشور العجيلي .
٢ ـ محمد مصطفى .
٣ ـ حسن الشريف .
ومعاقبتهم بالسجن لمدة (٥) خمس سنوات .
٦ ـ وبادانة كل من ..
١ ـ أحمد السنوسي .
٢ ـ سليم الحجاجي .
٣ ـ البروك علي .
٤ ـ ابراهيم العكرمي .
ومعاقبتهم بالسجن لمدة (٣) ثلاث سنوات .
وبطردهم جميعا من القوات المسلحة .
٧ ـ وبادانة كل من ..
١ ـ البروك عبد المولى .
٢ ـ عبد السلام بن ادريس .
٣ ـ مظهر حسين ابراهيم التونسي
وتغريم المتهمين جميعا من المصروفات الجنائية .

رئيس المحكمة
سليمان شعيب
عضو : م/ أول عبد الله حجازي ..
م/ أول صلاح رشيد ..

محمد مصطفى
سجن ٥ سنوات

الهادي بلقاسم ـ اعدام

آدم الحواز
اعدام رميا بالرصاص

أحمد السنوسي
سجن ٣ سنوات

عبد الونيس محمود
اعدام رميا بالرصاص

عمر الواحدي ـ اعدام

سليم الحجاجي
سجن ٣ سنوات

سليمان الرفادي
سجن مؤبد

علي الحداد
سجن مؤبد

موسى أحمد
سجن مؤبد

البروك عبد المولى
براءة

عبد الكريم عبد ربه
سجن مؤبد

قائمة بأسماء الضباط الذين صدرت ضدهم الأحكام في تلك المحاولة

	الاسم	حكم المحمة الأولى	حكم المحكمة الثانية
1	المقدم آدم الحواز	مؤبد	إعدام (أعدم سرا بالسجن)
2	المقدم موسى أحمد	مؤبد	إعدام (خُفّض إلى مؤبد)
3	النقيب عبدا لونيس محمود	13 عاما	إعدام
4	النقيب عمر الواحدي	13 سنة	إعدام (أعدم سرا بالسجن)
5	الرائد الهادي العربي	10 سنوات	إعدام
6	النقيب عبدالكريم عبدربه	13 سنة	مؤبد
7	النقيب سليمان الرفادي	13 سنة	مؤبد
8	الرائد على الحداد	13 سنة	مؤبد
9	الرائد آدم أحمد الحاسي	10 سنوات	مؤبد
10	الرائد بومدين الفلاح	10 سنوات	13 سنة
11	النقيب خليفه عبدالله محمد	10 سنوات	13 سنة
12	النقيب محمد جمعه الشلماني	3 سنوات	13 سنة (قضية مختلفة ولكن زُجّ به مع هؤلاء)
13	ملازم محمد فرج التومي	6 سنوات	13 سنة (توفى بالسجن)
14	م. أول طيار محمد صابر الشاعري	6 سنوات	13 سنة
15	الرائد محمد الفيتوري	3 سنوات	13 سنة
16	النقيب طيار مفتاح الشارف	سنة واحدة	13 سنة
17	النقيب علي لطيوش	6 سنوات	7 سنوات
18	النقيب عبدالرازق بالخير	6 سنوات	7 سنوات
19	الرائد عبد المطلوب عزوز	3 سنوات	7 سنوات
20	الرائد خليل محمد جعفر	3 سنوات	7 سنوات
21	حسن ابراهيم الشريف	3 سنوات	5 سنوات
22	ملازم محمد مصطفى عبدالقادر	3 سنوات	5 سنوات
23	الرائد عاشور علي الحاسي	سنة واحدة	5 سنوات
24	ملازم سليم الحجاجي	سنة واحدة	3 سنوات
25	ملازم أحمد السوسي	سنة واحدة	3 سنوات
26	النقيب المبروك عامر	براءة	3 سنوات
27	النقيب ابراهيم الصكوح	براءة	3 سنوات
28	الرائد المبروك عبد المولى	براءة	براءة
29	الرائد عبدالسلام عزالدين	براءة	براءة
30	ملازم محمد حسين التونسي	براءة	براءة

إن تسعة عشر من هؤلاء كانوا قد شاركوا مع القذافي في تنفيذ انقلاب الأول من سبتمبر، وما كان لذلك الانقلاب أن ينجح لولا جسارة ومهارة البعض منهم .

و الثابت أن « عبد الونيس» كان قد استقطبه « موسى أحمد » من قبل للانضمام لحركة انقلاب 1969، وبالتالي فقد بدأ مع زميله المدرس بالكلية « محمد نجم » في العمل لهذا الاتجاه معا، ومن ثم فقد تواصل« عبد الونيس» مع « سليمان الرفادي »، وتواصل « محمد نجم » مع « محمد العريبي» وكلاهما يعملان في الكتيبة الثالثة بمنطقة الأبيار للتنسيق فيما بينهما في الحركة أيضا، غير أن «محمد نجم» عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد، و« عبد الونيس » كانا خارج البلاد وقت وقوع الانقلاب في 69/9/1 ، بسبب أن الأول كان في إجازة في بلغاريا صحبة أخيه، وأن الثاني أيضا كان خارج البلاد في مصر مرافقا في رحلة علاجية.

وبدون شك، فإن « عبدالونيس» من المشاركين الفاعلين في المحاولة الثانية، رغم أنه وبمهارته الخاصة لم يثبت عليه أي دليل على الإطلاق بالتورط فيها بأي شكل كان، سواء في قدرته على الصمود في مواجهة وسائل التعذيب الشنيعة، ولم يعترف بما نسب إليه، أو بعدم ثبوت شهادة إثبات ضده من أحد ،،،

وبالرغم من ذلك، فقد صدر ضده الحكم بالإعدام رميا بالرصاص...

******

الذّبول في الغيـــــــاهب (في وحدة الزنزانة)

[الهويّات السّاطعة في نهارات العلن، وحدها التي تصنع كينونة المرء ،،، كما أن الحدود التي نجد أنفسنا فيها، أحيانا ليست حقيقية،،، بل يمكن توسيعها دائما لنصبح أقوى،، كردّ فعل للتجارب، سُموّا وارتفاعا عن واقع الحال .. !!.]

في مدة من الزمان خاطئة ،،، جلس وحيدا ، قابعا في إحدى زوايا الزنزانة العتيقة جدا، وقد انتقل من وجودٍ حيّوي صاخب إلى كينونة فناءٍ صامت ،، في قبر صُمّم خصيصا للأحياء منذ تاريخ الاستعمار الإيطالي لليبيا ! .

تهزّه مشاعر الشوق للوجوه العزيزة الغائبة، والتي يتمنى حينذاك أن يراها قبل أن يُقتاد لينفذ فيه حكم الإعدام، وتنتهي حياته.

وحيدا ،،، في سراديب السجن ، وقد ضاع كل ما كان يحتويه صُواع الأماني العراض في بناء الوطن القومي لكل الأمة ، بل ضنّت عليه أوطان القوم على اتساعها، ولم يجد في أحد أقاليمها متسعا لحياة كريمة ، إذ لم يعد من مجال يسعه سوى قبوٍ ضيق يقع نصفه تحت الأرض،،، وقد أضحى فيه اليوم مدفونا حيّا.

وحيدا ،،، أسيرا في سجن انفرادي ، وقد اغترب عن الأرض ومن فيها، فانقطع اتصاله بأهلها، ولم يعد له خطاب إلا مع السماء ومناجاة رافعها.

يقول الشاعر القدير : راشد الزبير السنوسي (أحد ضحايا سجن الحصان الأسود) :

أعود للأمس، وليس الأمسُ بالبعيد
أطوي سنيناً وجهُها لطّخهُ الصّديد
استحضرُ الجدارَ والحصارَ، والشّهيد
و كُوّةً يشنُقُها الجـــدارُ بالحديد..
و أنّـةُ الرّتـاجِ خلف بابك الوصيد
و الحارسُ العتيــدْ ؛
يكادُ لا يُصغي سوى لمطلبٍ وحيد
إسحقْ وحطّمْ كل من لا يحفظُ النشيد

فبمجرد إغلاق باب الزنزانة، انهار سدّ البرزخ الفاصل بين النهار والليل فاختلطا، واختفى الضوء... وحُجب السجين المنسيّ نهائيا عن الشمس و طُوي في الظلمات،، بل و هجره حتى ظله، فأي اغتراب لفّه في هذا الكون...؟ وبأي أرض يستجير،،؟ فالتضاريس تمادت في اختلاطِ مبهم الغايات، ونأت في البعد، وماجت كاختلاط السّديم الموحش، فمن يأتي بالفجر،،،؟ وهذه الوحشة البالغة : من يؤنسها...؟

تقيّده مع سلاسل السّجان أغلالٌ صلدة أخرى من ماضٍ ولّى،، فيهزّه صوت أجراس الحنين لحكاياتٍ و ذكرى للماضي، وعطرٍ من الزمن الجميل.

لقد صعق ظلام الزنزانة وسكونها ورطوبتها كل أحلامه ،، وخنقتها الجدران المتسخة في نزق لحظة خاطئة،، وغارقة في ندم الذبول... لقد سقط أسيرا للنوايا السوداء المدسوسة في ترانيمِ وطنية كاذبة ،، ألقته ومن معه من ضحايا آخرين في سراديب السجون ليموت البعض، ويصاب البعض بالجنون، ويرجع البعض بعد عقدين من الزمان بملامح أكلها الزمن، وقد استُنزفت الطاقة ، وخارت القوى ، واشتعلت الرؤوس والوجوه شيبا.

ينام و يده الوسادة، وحنينه الغطاء، وتحاصره من وراء قضبان السجن قضبان المسافات، وابتعاد ضمير الأمة الذي انحاز في استهواءٍ عجيب ومحموم ، فاعترته هستيريا جامحة، فصار يردد صاخبا بدون وعي أو فهم ذلك الإيعاز الآثم الذي قذفه الشيطان في الأفواه لتردده الألسن بلا وعي : ((الشعب يطالب بالإعدام)) ! ... لقد سقط الضمير أسيرا للنوايا السوداء، فتجرّد من محتواه ، وفقد معنى المضامين.

وحيدا ،،، في قبوٍ منسيٍّ ينتظر في ظلماته سيّارة بئر يوسف ... أو انفتاقٍ من باطن الأرض يقذفه خارجها للوجود من جديد .

لقد حيل بينه وبين أهله وأسرته و كل من عرف، وكل ماضيه، وكل أمانيه، وتصبّرت روحه على الفقد.

وعندما قاده الاشتياق يوما لرؤية أمه، فقد حاول أن يتخيّل وجهها ولكن ،، كم هاله الأمر عندما اكتشف أن حنين المسافة قد بعثر صورة ذلك الوجه الحنون المحبّب، فلم تلتئم الصورة في المخيلة...! لقد أصيب العمق فيه و بقوة،، فلم تنج منه حتى ملكة التّخيل.

و مَـرُّ طيفُك يا أمَـــاه يؤنسُني إني وقد صُفّت القضبـان ألقـــاه

أرضعتني بلبان العزّ في صغري لا شيء من سَطوة الطاغوت أخشاه

أمَـاه ،، ذلك دربي قد أموت به فلا يسُـوؤك كأسٌ إن شربنـــاه

(الأبيات السالفة مختارة من قصيدة «أمّاه لا تجزعي» للشهيد الدكتور عمرو النّامي الذي تم إعدامه سرا بالسجن ،، وقد ألفها سنة 1974).

لقد سقط من بين يديه الكتاب، وهجره القرطاس و القلم ، وغابت الكلمة مسموعة كانت أو مكتوبة عن سمعه وبصره ، وبدأت معالم الأرض تبعد عن ناظريه ، ثم شرعت تنطوي رويدا رويدا عن مخيلته، حتى اختفت تماما ... فالجبال توارت، والبحار غيضت، والشمس والقمر والنجوم والسّحاب وهبوب النسائم، و أمسيات الليالي المقمرة ، وتفتح الزهور، وتمايل ذُرى النبات وتحليق الطيور، وألوان قوس قزح، ونقيق الضفادع ، وخرير المياه، وهدير السيول بالأودية ، وكل ما كان يشاهده من صنوف الطبيعة في الكون وما كان يعرفه، قد اختفى وتلاشت معالمه،، وحيل بينه وبين أي مظهر من الخارج، فلا وجود الآن إلا للسجن والسّجان .. ولم يبق من كل عالمه إلا الرواسخ في الذهن من أبجديات حروف تعلمها صغيرا، أو ما حفظه من بعض سور القرآن الكريم.

لقد ذاق ذلك التّحول والتّبدّل في الحياة فجأة، فتغيّر الحال وتبدّل المقال، وبعد التبجيل والاحترام لضابط مرموق، وأستاذ من ضمن مجموعة مختارة تقوم بالتدريس لإعداد ضباط المستقبل في الكلية العسكرية، قلبت له الحياة ظهر المجن، وتبدّل نعيمها إلى سعير، فأصبح قابعا في ركن خفي تحت الأرض، وتطاله الأيدي بالضرب والتعذيب، ويتطاول عليه الحراس بالإهانة بنعوت شنيعة، وألفاظ وضيعة.

لقد هزّ احتباس عمال منجم (سان خوسيه) في تشيلي مشاعر العالم بأسره بشكل درامي متعاطف مع العمال وأسرهم طيلة تسعة وستين يوما تغلبوا فيها على الموت في المنجم المنهار.

و لكنّ، دفن أحدهم حياً ووحيدا في قبوٍ نصفه تحت الأرض لم يُثر أحدا..! ولمدة أحدى عشرة سنة متواصلة منفردا، (وفوقها سبعة أعوام أخرى مع محكومين بالإعدام آخرين) ـ طيلة ثمانية عشر عاما ـ ينتظر حضور السجانين ليجرّوه إلى الموت في أية لحظة .

ولا أظن أن سيكون بمقدور أحد أن ينصفه بأي قول...! وهل من حالٍ أقسى وأبشع من حال اللاّموت واللاّحياة، إنه كالوقوف بين النار والجحيم، ولا وجود لوسطٍ بينهما، فالمنطقة الوسطى أصبحت ضائعة من خريطة حياته.....!

وإذا كانت معاقبة السجناء بوضعهم في السجن الانفرادي تسمى (بالإيواء المقيد)، فإن حقيقة ما يخفيه هذا المصطلح هو أن هذا العزل، إنما أريد به إذلال الشخص وكسر إرادته وعزيمته، ونزع الصفة البشرية عنه إلى أقصى حد، بل وسلْبِ الإناء من محتواه.

في 4 أكتوبر سنة 2014 أجرت منظمة العفو الدولية بحثا تحت اسم (مدفونون أحياء) عن المآسي الإنسانية من آثار الزنازين الانفرادية الأمريكية، ومؤداه: (أنه وإن تعددت مسميات هذا النوع من الحبس، سواء سميت :-

« وحدات إيواء آمنة » أو « العزل الإداري » أو « الإيواء المقيد »

فإن حقيقة ما يخفيه المصطلح الفني لأيّ من هذه الأسماء، هو أن ذلك النوع من العزل الانفرادي، إنما صمّم خصيصا لإذلال الشخص، ونزع الصفة البشرية عنه إلى أقصى حد، متجاهلا تبعاته الطويلة، بل والمميتة في بعض الأحيان).

لقد ابتلعت الزنزانة «عبد الونيس » وتناسته الأمة... و أصبح فعليا خارج وجودها،، حياةً و ثقافةً، ولم يعد يصله شيء بأي شيء ،،،، إلا الانتماء للجذر الإنساني نفسه.

لكن العجيب في الأمر أن ما أراده الجلادون ـ من وراء حبسه، معزولا ولسنوات طويلة حيث الرطوبة والظلام والحر الشديد في الصيف، و زمهرير برد الشتاء ، والوحدة والصمت والجوع ونقص الدواء، و مداومة ارتداء بدلة الإعدام ـ لم يتحقق... فكل ظروف التّعسير هذه وإن تظافرت لم تصل إلى شموخ الهامة، ولم تنل من ثباته ورباطة جأشه، فلم ينكسر،، ولم يستجدهم، أو يضعف أمامهم.

و الأهم من كل هذا، أنه لم يتزحزح عن ثباته، ولم يفقد عقله، ولا تأثرت فيه أساسيات الإدراك الواعي بنفسه وبظروفه وبما حوله... بل على العكس من ذلك، فإنه بالرغم من كل تلك الأهوال،، كان قادرا على أن يُفلسف حالته في أسوأ المواقف... فثمة واقعة معينة نراها اليوم طريفة عند روايتها بعكس ظروف صاحبها عند وقوعها حينذاك، عندما استطاع أن يُلبس الموقف بفلسفة من يرى الأمور بأساس معطياتها وليس بمجرد صورة ظهورها،،، إذ عندما أطلّ الحارس في إحدى المرات من كوّة الزنزانة و ناداه باستعجال ليناوله الطعام، فتطاول عليه بلفظ جارح وناداه واصفا إياه بالقرد ، فما كان منه إلا أن تسامت فلسفته من عقل واعٍ ومدرك، بل وساخر أيضا، متذكرا نظرية « دارون » في النشوء والارتقاء،،، فرد عليه قائلا :

لابأس في ذلك .... فالقرد هو جَدّي و جدّك !!.. فظن الحارس ـ الذي لا يعرف ولم يسمع شيئا عن نظرية النشوء والارتقاء، أو عن عالم يسمى « دارون » ـ ظن أن السجين قد فقد عقله وأصيب بالجنون..!!.

ولكي نقف على حقيقة ما حصل معه،،

فلا بد من الرجوع إلى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السابع من ديسمبر سنة 1969، لنبدأ معه تفاصيل ما بيّنه « عبد الونيس» في مذكرته التي كتبها من مهجره باليونان سنة 1992 ، والتي أسماها :

(مذكرة حول الأحداث التي مررت بها في سجن الحصان الأسود)

وسأنسخ فيما يلي صورة مما جاء بالمذكرة حرفيا كما كتبها «عبد الونيس » بخط يده، دون المساس على الاطلاق بأي حرف كتبه، وبأي أسلوب ارتآه ....

ومن المهم أن أنبه القارئ أولا، إلى أن المذكرة كتبت في سنة (1992) بعد مضي أربع سنوات فقط من تاريخ خروجه من البلاد في (1988/9/14)، بمعنى أنه قد أمضى بعد كتابتها مدة إحدى وعشرين سنة أخرى باليونان، (وتلك حقبة زمنية طويلة أخرى بتفاصيلها وصعوبات عيشها ، سنتطرق إليها منفصلة في باب آخر) ،

ولذا فإنه من الطبيعي أن تكون الكثير من الأحداث قد وقعت بعد إتمام كتابته لها، ومنها حصوله على حق اللجوء من السلطات اليونانية في أراضيها، فعاش لاجئا ومختبئاً في نفس الوقت من عيون النظام ومخبريه حتى تاريخ رجوعه بعد قيام ثورة 17 فبراير، بعد أن أحاطته سنوات الشيخوخة، وضعف البصر، وخارت القوى، وبعد أن انتقلت والدته للرفيق الأعلى في غيابه، وكذلك الكثير من رفقائه بالسجن ممن وافتهم المنية، مثل رفيقه في السلاح وشريك محنته: المقدم « موسى أحمد» الذي اغتيل بمزرعته.

وبالرغم من أن وصف الأحداث والوقائع في تفاصيل السّرد بمذكرة «عبد الونيس» سيجده القارئ مرعبا ومؤلما، لكن الحقيقة تفرض نفسها فوق أي مشاعر، و من حق الضحايا علينا (الأحياء منهم والأموات ، وهم كلهم شهداء الوطن ، ولا فرق بينهم سوى أن منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر)، من حقهم علينا أن نعرف اليوم ما كان قد حصل معهم في تلك السراديب المظلمة، وما قاسوه خلف تلك الجدران، وأن الثمن الغالي الذي دفعوه بسبب حب الوطن، لا يُقدّر ولا يُعيّر، فإذا كان الوصف يؤلمنا اليوم ، فليس أقل من أن يكون من حق من قاساه عمليّا في ذلك الوقت أن نتعرّف عليه الآن ـ رغم ألمه ـ موصوفا.

كذلك، ألتمس العذر لعائلات وأقارب الشهداء والمعذبين الذين يتطرق البيان في المذكرات إلى ذكر أسمائهم، ومع كامل الاعتبار لما يجب أن يراعى في الجانب الإنساني، إلا أن شراكة المواطنة سقتنا جميعا من نفس المرارة، وبالتالي فإن تدرّج خطانا على أرض بلادنا، وأسلافنا من قبل، وخلَفنا من بعد، ورائحة ترابه، ومذاق العيش فيه بحلوه ومرّه تُلبسنا جميعا عباءة واحدة، لا انفكاك منها ولا بديل عنها .

فمن عاش ورجع إلينا فهو منا، ومن استشهد، أومن فقد عقله، فهو أحدنا ، و لنا ومنا أيضا ، وسنعيش نذكره، وله في ذاكرة الوطن أشرف المراتب.

و اليوم ... فإن كل كلمات الرثاء وقصائد الحزن لم تعد ذات جدوى، ولا يمكن أن تواسي أولئك الضحايا في كمّ المأساة التي عاشوها، وعانوا مرّ آلامها ، الذين أفسح لهم التاريخ في صحائفه مجالا يضمهم في محتوى دواوينه.

تلك الملحمة سطرتها دماء و معاناة أبنائنا ، وعمّدها صرح تضحيةٍ هائل - سواء ممن استكمل باقي أيامه بيننا متضررا مثل «عبد الونيس »، أو من عبرت التضحية بحياته حدود الدنيا فغادرنا إلى جوار ربه - وستكون لمن يأتي من بعد هذا الجيل منارا مشعاً ودرسا من النضال قيّما ومتفردا، فالمآسي و المعاناة في سبيل الوطن، هما من أهم أسس نشأة التاريخ لأي شعب على هذه الأرض.

وسيقف قلمي الآن،،،

ليفسح المجال لقلم «عبد الونيس» فيما كتبه في مذكرته ،،،

و التي سنشرع في الاطلاع عليها في الصفحات المنسوخة من أصلها فيما يلي دون أي تغيير أو تعديل لفظي أو لغوي.

لقد حرصتُ على نسخها بتمام شكلها، وطريقة كتابتها، وكما وردت حرفيا في مذكرته، مع ضرورة التنبيه إلى أنه قد حرص على أن تخلو المذكرة من بيان أية مشاركة له أودور قام به في تلك المحاولة لكي تطمئن الهيئة المختصة بدراسة طلب اللجوء السياسي بأن الطالب لم يسبق له القيام أو الاشتراك في أي عمل مسلح في وطنه، وإلا فلن توافق على الطلب إذ ما ثبت عليه ذلك الأمر، باعتباره شرطا أساسيا للموافقة على اللجوء للبلد الأجنبي،،

و سنطالع فيما يلي تفاصيل ماجاء فيها عندما قُدّمت للهيئة المختصة للنظر في طلبه منح اللجوء....

مذكـرة

حول الأحداث التي مررت بها في السجن ، والأضرار البدنية والنفسية التي أصبت بها

من جـرّاء ذلك،،،

وأسباب خروجي من ليبيا،

وطلب اللجـوء السيـاسي،

والعيـش في المنـــفى ...

الحلقة الأولى

مقدمة

عندما بدأت في كتابة هذه المذكرة حول وجودي بالسجن طوال ثمانية عشر عاما وثلاثة أشهر، تساءلت بيني وبين نفسي.. هل سيكون بمقدوري أن أغطي هذه المساحة الزمنية الطويلة التي تجعل من الطفل المولود حديثا من بطن أمه شابا يافعا يتلقى العلم في مدرجات الجامعة، وكيف يتسنى لي أن أعود بذاكرتي إلى الوراء... إلى حقبة زمنية تقرب بدايتها الآن من ثلاثة وعشرين عاما خلت، وهي فترة مؤلمة وقاسية في حياتي... لأنها ملينة بالقهر و الحزن والألم و العذاب. وهل ستسعفني ذاكرتي المرهقة لكي أتذكر تلك الأحداث المريرة بعد أكثر من أربع سنوات، أي منذ خروجي من السجن وإطلاق سراحي، وأنا الآن أعيش في الغربة وأعاني من المرض، وأصبحت كهلا على مشارف الخمسين من عمري.

وإذا ساعدتني الذاكرة.. فمن أين أبدأ؟ وكيف انتهي؟ وما الذي يتعيّن عليّ أن أذكره، وما لا أذكره؟ ما هو المهم وغير المهم؟ وكل ما مررت به في السجن كان مهما، لأنه جزء من حياتي، ضاع خلف أسوار من القهر والاضطهاد وقضبان من التعذيب و العذاب وطوفان من الحزن والدموع،، إن كل دقيقة في حياة الأنسان مهمة، فما بالكم بهذا الزمن الطويل الذي ضاع من حياتي في السجن، كان في فترة شبابي حيث الصحة والقوة والتطلع نحو المستقبل والحياة... وحيث القدرة على العمل والتعلم والبذل و العطاء.. و حيث الأمل في بناء حياة عائلية سعيدة مثل باقي البشر.. فقد كنت خاطبا ومقدما على الزواج.

إذا عرفتم هذا، وعرفتم أيضا أن هذه المدة الطويلة القاسية في السجن التهمت الصحة وحطمت القوة والقدرة، وعصفت بكل ما كنت أملك في حياتي من آمال وطموح.. إذا عرفتم هذا كله، أدركتم مدى الضرر الذي أصابني وحجم ما لحق بي من خسارة و ضياع وفقدان، كما سيكون في وسعكم أن تتصوروا حجم المعاناة النفسية التي أعيشها الآن في المنفى باليونان، بعيدا عن وطني، ووحيدا بلا عائلة ولا أقارب ولا أصدقاء، وكذلك بلا ماض ولا مستقبل،،، فإذا ما نظرت ورائي رأيت أشلاء شبابي ممزقة داخل أسوار السجن بطرابلس.. وإذا ما نظرت أمامي رأيت شبح الشيخوخة المخيف القادم.. حيث الهرم والأمراض والعجز، وقد اكون وقتها ما زلت بلا وطن ولا مأوى، وربما لا أملك ثمن الطعام والدواء.. خاصة وأنا لا أملك الآن شيئا أواجه به المستقبل الغامض الذي ينتظرني بمدينة أثينا، غير النزر اليسير، فأن أعيش منذ الآن على الكفاف.

إن مثلي اليوم، مثل رجل غريب رمته الأقدار في طريق مجهول، ثم راح ينتظر على قارعة الطريق، لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد، فلا الذاهبون أصدقاؤه كي يمضي معهم، ولا القادمون أعداؤه كي يهرب منهم.. ولكنه ينتظر وينتظر، وهو في الاقع لا ينتظر شيئا سوى المجهول نفسه.

فإذا تذكرت بعد ذلك كله، أنني حُرمت من حقي الطبيعي في المشاركة في تقرير مصير وطني وصنع مستقبله، تضاعفت معاناتي وآلامي، وشعرت بالحزن والأسى إلى حدود تفوق التصور.

وأنني لا أتذكر بأنني آذيت مخلوقا في حياتي كائنا من كان.. إنسانا أو حيوانا، سوى أنني عندما كنت صبيا ألعب لاهيا وطأت بحذائي بقوة ودون قصد، على قطة وليدة، فكان ذلك سببا في موتها.. و لقد بكيت غلطتي تلك طوال اليوم، ومع ذلك، فإن تلك الحادثة اليتيمة لا تفارقني أبدا، وكم من مرة سألت نفسي: أيكون الذي حدث لي بسبب تلك الغلطة؟ و ذلك الأذى الذي سببته لذلك المخلوق الصغير الضعيف؟ وإلا لم هذا العذاب والشقاء والتعاسة؟؟ وأعترف بأنني لا أملك جوابا شافيا، كما أن لإجابة المقنعة عن أسباب كل ما حدث لي دونها - كما يقولون - شوك القتاد.

إن الحزن ليغمرني الآن، وأنا أحاول أن أتذكر بعض ما حدث لي عبر سنوات طيلة ضاعت هباء من عمري.. وهي أجمل ما في عمر الإنسان من سنوات، لأنها هي سنوات نضارة الشباب وزهرة العمر، وإني لأعلن هنا بأني لا أريد العودة إلى تلك الفترة العصيبة من حياتي، ولو عن طريق التذكر وحده، كما أنني أحاول جاهدا أن أتجاوزها بالنسيان، فالإنسان بطبيعته لا يود أن يتذكر إلا الأشياء الجميلة في حياته.. فكيف به - إذاً - وهو يحاول أن يتذكر قطعة من الجحيم التي مرّ بها في الدنيا، وهو لا يزال على قيد الحياة.

ورغم هذا، أجدني ملزما الآن بتذكر بعض الأحداث التي مررت بها في السجن منذ تاريخ اعتقالي، وحتى تاريخ إطلاق سراحي، وخروجي من السجن ،، اقول بعض الأحداث لأنني لو ذكرت الأحداث كلها لاحتجت إلى مجلد أو ربما مجلدات.

ولا أعد أحدا هنا بأنني سوف أكون موفقا في عرض ما سوف أعرضه من أحداث، قلّت هذه الأحداث أو كثرت، غير أنني أعد بشيء واحد، هو الحقيقة، وأن أتعهد بذكر الأحداث كما وقعت دون زيادة أو نقصان،،، أعني قول الحقيقة ولا شيء سواها.

وهذه القصة ـ باختصار ـ منذ بدايتها :ـ

مكان و تاريخ الاعتقـــال:ـ

من مواليد شحات عام 1942 وعندما قام العقيد القذافي بالانقلاب العسكري ضد النظام الملكي في ليبيا في 1969/9/1، وهو الانقلاب الذي أوصله للسلطة بعد أن أطاح بنظام الملك محمد إدريس السنوسي كنت ـ إذ ذاك ـ ضابطا في الجيش، أبلغ من العمر 27 سنة، برتبة نقيب، وأقوم بالتدريس في الكلية العسكرية الملكية الواقعة على مقربة من مدينة بنغازي نحو الشرق بينما كان القذافي ضابطا في الجيش برتبة ملازم أول، ويبلغ من العمر 27 سنة، وهو ضابط مخابرة بمعسكر قاريونس الواقع على مقربة من مدينة بنغازي نحو الغرب.

وبمجرد أن تأكد القذافي من نجاح الانقلاب، رقى نفسه إلى رتبة عقيد، كأعلى رتبة عسكرية في الجيش، بعد أن أبعد كل ضابط يحمل أعلى من تلك الرتبة، كما عين نفسه قائدا عاما للقوات المسلحة، ثم ألغى الدستور، وصار حاكما عسكريا مطلقا.

ولما كان الجيش الليبي صغيرا تستطيع أن تعرف فيه بسهولة اهتمامات وميول الضباط، ولما كنت من بين الضباط الذين يحملون أفكارا سياسية معينة، تتناقض مع أفكار العقيد القذافي السياسية إلى حدّ ما، فقد توقعت أن يتم إبعادي من الجيش، لكن الذي لم يدر بخلدي على الإطلاق، هو أن يزج بي في السجن، ولكن ذلك هو ما حصل بالفعل ـ للأسف الشديد ـ بعد ثلاثة أشهر من وقوع الانقلاب.

ويهمني أن أعترف هنا، بأنني كنت شديد الانتقاد للسياسة التي بدأ يمارسها المجلس العسكري الذي يترأسه العقيد القذافي بنفسه، وهو المجلس الذي أطلق عليه رسميا اسم مجلس قيادة الثورة سواء على صعيد السياسة الداخلية أو الخارجية، علما بأنه لا يوجد في تلك الفترة ما يمنع العسكريين من ممارسة السياسة، وقد كنت اكتفيت بالانتقاد و إبداء آرائي علنا أمام الضباط.

إن الملازم « معمر بو منيار القذافي » لم يكن سوى آمر فصيل مخابرة بمعسكر قاريونس القريب من مدينة بنغازي، وهو فصيل منحل وعديم الضبط والربط عسكريا، لكونهم من الصنوف أو الخدمات المساندة، وليسوا من الوحدات العسكرية الفاعلة أو المقاتلة، ويتعذر جمع أكثر من عشرة جنود منه في ساعة الصفر، وهم لا يصلحون على أية حال سوى لحمل الأجهزة اللاسلكية على ظهورهم..؟ ولست في حاجة إلى القول، بأنه ـ أي القذافي ـ كان مغمورا، لا يعرفه أحد، لا على الصعيد العسكري، ولا على الصعيد المدني أو الشعبي..؟

ومن هنا، وبتداعي منطقي بسيط وسلس، تأسيسا على هذه المقدمات، فإن النتيجة التي نتوصل إليها ستكون واضحة أيضا، وهي أنه لو لم يكن على رأس الانقلاب ضابطين في حجم الرتبة والموقع

القيادي، والشهرة العسكرية لكل من « المقدم موسى أحمد، و المقدم آدم الحواز » القادرين على القيام بدور (رأس الحربة) الفعلي، على " أرض المعركة " بالتعبير العسكري، لما استجابت بقية الوحدات، والتشكيلات العسكرية الأخرى للتعليمات، ولما انصاعت للأوامر، و لانعدمت المقدرة على تحريكها من ثكناتها إبّان المباغتة الجسورة عبر معسكرات: البردي، وطبرق، ودرنه، وقرناده، والبيضاء، والمرج، والأبيار.. التي قادها المقدم " موسى أحمد ".

لقد حدثني الشهيد النقيب محمد فرج التومي ـ أحد المشاركين في انقلاب سبتمبر ـ ونحن بالسجن، بأنه تم تأجيل موعد الانقلاب عدة مرات، خوفا من الفشل (في برقة تحديدا)، إلى أن ظهر المقدم " موسى أحمد " الذي قضى على جميع مخاوفنا وترددنا، وأنا واحد من بين ضباط كثيرين ـ كما قال لي ـ ما كنت لأتحرك في تلك الليلة، لو لم أكن أعرف بأن المقدم موسى هو من يقود حركة الانقلاب...؟!

كانت " برقة " هي سيف " المعتصم " في حدّه الحدّ بين الجد واللعب.. وكان السيف في تلك الليلة الليلاء بيد « موسى أحمد »،،، إلى أن سقط من يده بعد ثلاثة أشهر ليس غير من تاريخ الانقلاب.

ولولا السيطرة على شرق البلاد " إقليم برقة " باعتبارها معقلا للدعوة السنوسية وأنصارها، وهم ذواتهم أنصار النظام الملكي، وهي العقبة الكأداء، والعقدة المستعصية، لما نجح الانقلاب... إذ كان موقف " ولاية طرابلس " الرافض للنظام الملكي معروف سلفا، ولا يحتاج فهمه إلى كثير عناء.

أما " ولاية فزان " فقد سقطت من تلقاء نفسها، قبل أن يدخلها جندي واحد.

كما أن الدور الفائق للمقدم « آدم الحواز » الذي بادر به عند منتصف النهار في يوم الانقلاب، بالاتصال بالسفارتين الامريكية والبريطانية بمدينة بنغازي، باعتباره أحسن من يتحدث اللغة الانجليزية من بين مجموعة الانقلاب، كموفد من مجلس القيادة، من أجل طمأنتهم وإزالة الشكوك تجاه التغيير في البلاد باعتباره أن التغيير شأن داخلي محض ... ولا يعادي أية دولة، ويحافظ على صداقة كل الدول، ويحترم المعاهدات والمواثيق والقوانين الدولية، وطمأن الجانب البريطاني بأن اتفاقية الدفاع الجوي وصفقة الدبابات (التشيفتن) ساريتين كما هو متفق عليه، ووفقا للجدول الزمني للدفعات المالية... كما طمأن الجانب الأمريكي كذلك بأنه لن يحدث أي تغيير في صفقة شراء الأجهزة اللاسلكية الأمريكية الحديثة لصنف المخابرة في الجيش، وكان من حسن الطالع أن كان مدير المركز الثقافي الأمريكي الذي كان يتردد عليه المقدم الحواز لترجمة الدروس والمحاضرات لمدرسة المخابرة أو للكلية العسكرية، والذي ربطته به معرفة شخصية يعلم من خلالها أن الحواز كان قد درس العلوم العسكرية المتقدمة في أنظمة المخابرة في أمريكا،

وكان بذلك الاتصال المبكر قد سبق ناظر الخاصة الملكية « عمر الشلحي» بمسافة يوم، وكان ذلك السبق من (آدم الحواز) سببا في إقناع السفارتين الأمريكية والإنجليزية، اللتين أسرعتا بدون شك

في نقل الصورة المطمئنة لبلديهما، مما انعكس سلبا على مهمة ناظر الخاصة بطلب المساعدة - وخاصة حكومة بريطانيا المرتبطة مع ليبيا بمعاهدة الدفاع عن المملكة - وبالتالي آثرت عدم التدخل.

وفي يوم 7 ديسمبر 1969 م، شن (مجلس قيادة الثورة) الحاكم الذي استولى على جميع السلطات في ليبيا، شنّ حملة اعتقالات واسعة في صفوف ضباط الجيش، حيث شملت تلك الحملة (40) أربعين ضابطا، كنتُ واحدًا منهم، وقال مجلس قيادة الثورة في بيان رسمي، وكذلك العقيد القذافي بنفسه باعتباره رئيسا للمجلس في تصريح لأجهزة الاعلام، بأن هؤلاء الضباط كانوا يخططون للقيام بمؤامرة ضد الثورة، وكان على رأس تلك المجموعة من الضباط، المقدم آدم الحواز وزير الدفاع ، والمقدم موسى أحمد وزير الداخلية.

وبالنسبة لي، فقد كان عملي في ذلك الوقت في إدارة تدريب الجيش بمعسكر الفويهات بمدينة بنغازي، ففي ذلك اليوم (1969/12/7 م) وعندما كنت بمكتبي أثناء العمل، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا، فاجأتني مجموعة من الجنود وضباك الصف المسلحين من الشرطة العسكرية، يقودهم الملازم « مصري خليفه مصري » وطلبوا مني الذهاب معهم إلى مجلس قيادة الثورة الواقع داخل معسكر البركه، حيث أن مجلس قيادة الثورة يطلبني للحضور إليه، وبعد دخولنا معسكر البركه المكثف الحراسة، لم يذهبوا بي إلى مقر مجلس قيادة الثورة، ولكنهم أخذوني إلى السجن العسكري المجاور لمقر المجلس، وهناك وجدت النقيب مصطفى الخروبي، عضو مجلس قيادة الثورة في انتظاري، حيث أبلغني بأنني متهم بتهمة خطيرة جدا، وعندما سألته عنها، رد قائلا بأنني سأعرف كل شيء فيما بعد، ثم أمر ضباط الشرطة العسكرية بإيداعي السجن، حيث وضعوني في الحبس الانفرادي، في زنزانة صغيرة جدا، وفكرت في التهمة، و ظننت أن السبب راجع ربما لانتقاداتي العلنية للممارسات الخاطئة من قبل عناصر الانقلاب، ولم أعرف أن عددا آخرا من الضباط رهن الاعتقال مثلي، إلا عندما بدأت التحقيقات المصحوبة بأعمال الضرب والتعذيب والصراخ والشتائم واصطفاق الأبواب الحديدية،،، التفاصيل هنا لا حصر لها، غير أنه ما من أحد من أولئك الضباط المتهمين لم يتعرض لعمليات الضرب والتعذيب، والتهديد والوعيد لانتزاع الاعترافات.

وبالنسبة لي، فقد ضُربت ضربا شديدا في كل مكان من جسمي، وخاصة على رأسي من قبل مجموعة من الجنود وضباط الصف، بإشراف النقيب أمحمد المقريف، عضو مجلس قيادة الثورة، حيث كان هو المشرف على تعذيبي، وذلك لكي أعترف بأنني متآمر ضد الثورة، وقد نزفت مني دماء غزيرة وخصوصا من رأسي وأنفي وفمي، حتى وصلت إلى درجة الإغماء، وبعد أن استعدت الوعي، وجدت الدماء منتشرة في الزنزانة، ثم عرفت أنني فقدت ثلاثة من أسناني، وبعد ذلك أصبحت عاجزا عن الحركة، حتى للذهاب لدورة المياه، ولم يحضروا لي الطبيب إلا بعد مضي

أسبوعا كاملا، بعد أن وصلت حالتي الصحية إلى مرحلة الخطر، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أصبحت أعاني من آلام حادة في رأسي تنتابني من حين إلى آخر، إضافة إلى الآلام اليومية في اللثة واللسان من جراء ذلك.

إن الظلم هو سبب كل الثورات والانتفاضات، منذ فجر التاريخ وإلى اليوم، بل وسبب حتى عمليات الانفصال والعصيان والتمرد، والظلم يعني اعتداء على حقوق المواطن أو مصادرتها، وبتعبير الشرعية الدولية وقوانينها، هو انتهاك لحقوق الإنسان الذي يملك الحق في حماية نفسه، واحترام حقوقه.... يقول الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ديباجته ما يلي:

(لا يملك أحد الحق في ظلم الإنسان، وانتهاك حقوقه، إذا أريد للبشر ألا يضطروا آخر الأمر إلى اللّياذ بالتمرد على الطغيان والاضطهاد).

******

الحلقة الثانية :

من سجن بنغازي إلى سجن طرابلس:-

بعد حوالي أسبوع من ذلك، تم نقلنا ليلا وسط طقس عاصف وبارد في سيارات عسكرية ، ولم نكن نعلم من البداية، حتى وصلنا، إلى أين هم ذاهبون بنا، كان يحيط بنا جنود مدججون بالسلاح، يقودهم الملازم مفتاح علي القذافي، ابن عم العقيد معمر القذافي، وكانت أيدينا مقيدة بالقيود الحديدية خلف ظهورنا، وقد وضعوا على رأس كل واحد منا بطانية سوداء من بطاطين الجيش، لكي لا نري أحدا ولا يرانا أحد، وكان عليك أن تغرق داخل الكرسي حتى يختفي رأسك تماما، فإذا ما ظهر صدفة، أو لأنك لا تدري لانعدام الرؤية فسوف تنال ضربة قوية بأخمص البندقية على رأسك،،، فإذا عرفت أن المسافة بين بنغازي وطرابلس تزيد على ألف كيلومتر، فسوف يكون في إمكانك أن تقدر كم ضربة نالها كل واحد منا قبل أن تنتهي تلك الرحلة التعيسة، ومع ذلك ففي تصوري من خلال تلك التجربة المريرة التي مررت بها، أن الإنسان قد لا يعبأ بالألم المادي أحيانا، إذا ما تعرض للقهر النفسي وتعرضت كرامته للإهانة.. وإذا كان الألم الداخلي يملأ كيانه إلى حد يتمنى معه الموت.

بعد أن رفعت من فوق رؤوسنا البطاطين، عرفنا أننا أصبحنا وسط سجن طرابلس المركزي، في قسم خاص تسيطر عليه الشرطة العسكرية, وهذا السجن قديم ومبني منذ أيام الاحتلال الإيطالي لليبيا، وقد أضاف إليه نظام القذافي العسكري من الاستحكامات والتحصينات وتضييق الخناق على المساجين، ما جعله من أكثر سجون العالم شدة وقسوة، فهو سجن رهيب حقا، غير أن المجال هنا لا يتسع لوصفه وهو معروف لدى الشعب الليبي باسم (سجن الحصان الأسود)،

وقصصه المروعة تشبه الأساطير،، إنه عبارة عن مصيدة للموت فاغرة فاها، وتبتلع الضحايا كل يوم.

في هذا السجن الرهيب، بدأت سلسلة أخرى من التحقيقات التي لا أول لها ولا آخر، وليس لها أي معنى، مصحوبة بجلسات التعذيب والضرب، أو (الوجبات الأولى) كما كان يسميها السجانون، لأنها غالبا ما تأتي قبل وجبات الطعام بقليل.

وفي نهاية شهر يناير من عام 1970 م، بدأت التحقيقات وعمليات التعذيب تخف بالتدريج، حتى تلاشت مع بداية شهر فبراير، نظرا لاقتراب موعد المحكمة الذي كان قد تحدد يوم 10 فبراير 1970 م.

و أتذكر في هذه الفترة، أننا نقلنا إلى سجن (الحصان الأسود) الذي سوف يلتهم ثمانية عشر عاما من عمري.. أتذكر أنه بعد وصولنا إليه بحوالي أسبوعين، جاء النقيب الخويلدي الحميدي ، عضو مجلس قيادة الثورة مارّا على السجناء، كل في زنزانته بالحبس الانفرادي، ولما كنا معا في كتيبة واحدة قبل نقلي إلى الكلية العسكرية، وأعرفه ويعرفني جيدا، فقد صافحني بشيء من الود وسألني عن حالتي وصحتي، فشكرته على ذلك ولكن عندما قلت له :-

(لماذا هذا التعذيب والضرب والإهانات لرفاق لكم في السلاح؟ ولماذا هذه الحملة الدعائية ضدنا في وسائل الإعلام التي تصورنا بأننا متآمرون وخونة و مجرمون؟ إننا ما زلنا أبرياء، نحن متهمون فقط، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته..)

فأسرع معتدا يقول: (لا..لا.. الثورة عندها المتهم مذنب إلى أن تثبت براءته ..). أجل هكذا عكس القاعدة القانونية رأسا على عقب، ثم تركني وهو غاضب وانصرف، ومن يومها أدركت بأنني لن أنال محكمة عادلة بأي حال من الأحوال.. نسيت أن أذكر هنا، بأنهم كانوا يضعون مكبرات الصوت فوق رؤوسنا مفتوحة ليلا ونهارا على الإذاعة الليبية لكي نسمع الأناشيد والسباب والشتائم التي لا حصر لها.

*****

المحكمة العسكرية الخاصة (الأولى):-

بعد اعتقالنا بفترة قصيرة، أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بتشكيل محكمة عسكرية خاصة لمحاكمتنا، وكانت برئاسة الرائد محمد نجم، عضو مجلس قيادة الثورة، وعضوية النقيب عبدالفتاح يونس، والملازم مفتاح رشيد، وقد مثل الادعاء في هذه المحكمة السيد حسن بن يونس رئيس مكتب الادعاء العام.

والمحكمة العسكرية ـ كما هم معروف ـ لا تتقيد بقانون الاجراءات، أو قانون العقوبات، أو أي قانون آخر، وتتمتع بصلاحيات مطلقة في التصرف وإصدار الأحكام،، وأحكامها مطلقة لا يمكن الطعن فيها أو الاستئناف ضدها، فإذا ما عرفنا أنه لا توجد ـ حتى ذلك الوقت ـ قوانين جديدة بعد الانقلاب، والقوانين السابقة أصبحت ملغية، حتى يمكن للمحكمة أن تسترشد بها على أقل تقدير. . أدركنا مدى حجم المأساة التي عاشها المحامون للدفاع عنا، وقد عوقب أحدهم، وهو الاستاذ المحامي عبدالله شرف الدين، عندما نبّه رئيس المحمة إلى تلك الحالة المأساوية.

في صباح يوم 10 فبراير 1970، بدأت المحكمة أولى جلساتها لمحاكمتنا بمعسكر باب العزيزية بطرابلس، وقد تواصلت المحاكمة حوالي شهرين قبل أن تتوقف انتظارا للجلسة الأخيرة لإصدار الأحكام، وبالنسبة لي فإني أعترف بأن رئيس المحكمة عاملني باحترام طوال جلسات المحكمة، ربما نظرا للزمالة التي جمعت بيننا عندما كنا ضباطا بالكلية العسكرية قبل الانقلاب.

ولم يجد المحامي الذي تولى الدفاع عني وهو الأستاذ مصطفى الشيباني، أية صعوبة في إثبات براءتي، لعدم وجود أي دليل وإثبات في اشتراكي أو تورطي في قضية من نوع التآمر أو غيره، وقد طالب هيئة المحكمة في ختام مرافعته عني بإخلاء سبيلي وإطلاق سراحي على الفور، ولكن الأمور جرت على نحو آخر.

انتظرنا ثلاثة أشهر قبل أن تنعقد الجلسة الأخيرة لإصدار الأحكام، ولم نعرف سبب التأخير إلا فيما بعد، فقد رفض رئيس المحكمة إصدار أحكام قاسية، وخاصة الإعدام، مما تسبب في إبعاده من مجلس قيادة الثورة ، وهذه قضية أخرى شائكة لها أبعاد سياسية لا أريد الخوض في تفاصيلها.

انعقدت الجلسة الأخيرة يوم 7/24 لدقائق معدودة، قرأ خلالها رئيس المحكمة الأحكام بحضورنا، وقد أصابتني الدهشة حين حكم علي بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاما ،،، (13 سنة) ... و رغم أنني لم أكن أتوقع العدالة من جهة، إلا أنني لم أكن أتوقع الإغراق في الظلم من جهة أخرى.

و اعتقدت أن كل شيء قد انتهى، وفي طريق العودة للسجن بدأت أعد نفسي لتقبل الواقع المرير، وتحمّل هذا الزمن.

الحلقة الثالثة:

المحكمة العسكرية الخاصة (الثانية):-

بعد ثلاثة أو أربعة أيام من صدور الأحكام، فوجئنا ببيان من مجلس قيادة الثورة، تنقله إلينا مكبرات الصوت يقول فيه: إن مظاهرات شعبية عمّت البلاد، وهي تحتج ضد صدور الأحكام، لأنها خفيفة وتطالب بإعادة المحاكمة، وإصدار عقوبات أشد على المتآمرين، وإن مجلس قيادة الثورة لا يملك إلا الامتثال لمطالب الشعب وإرادته، وعليه فقد قرر المجلس تشكيل محكمة عسكرية خاصة أخرى، لمحاكمة المتآمرين ضد الثورة.

بمجرد أن انتهى البيان، أعقبه مباشرة إعلان القرار بتشكيل المحكمة العسكرية الخاصة الثانية، وكانت برئاسة النقيب سليمان شعيب، وعضوية الملازم مفتاح رشيد، والملازم عبدالله الحجازي، أما النقيب عبدالفتاح يونس فقد مثل دور الادعاء في هذه المحكمة.

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة افتعل العقيد مؤتمرا صحفيا، أو مؤتمرا للطلبة ـ لا أتذكر الآن نوع المؤتمر على وجه الدقة ـ لكي يعيد الحديث مرة أخرى عما يسميه (مؤامرة ضد الثورة) وشنّ علينا حملة عنيفة مليئة بالتجريح والتشكيك في إخلاصنا لوطننا، وتطرق إلى ذكر بعض الأسماء.. وعندما ذكر اسمي، وصفني بأنني شخص متآمر وضال ومضلل، وبأنني قمت بتضليل الآخرين (إشارة إلى انتقاداتي العلنية) وكان ذلك الحديث بمثابة التعليمات، أو إعطاء الضوء الأخضر للمحكمة الجديدة بأن تكون شديدة في أحكامها علينا، واختتم حديثه قائلا: بأن الثورة لا بد أن تمارس العنف الثوري، وهي إشارة إلى المفهوم الماركسي اللينيني (البلشفي) في شرعية الثورة في إراقة الدماء، وقد أدركت بأنني سأنال عقوبة قاسية،،، و توقعت عشرين سنة أو السجن المؤبد، لكن الإعدام لم يكن يخطر لي على بال، حتى هذه اللحظة.

في اليوم التالي مباشرة، بدأت التحقيقات للمرة الثالثة، ومعها بدأت ـ كالعادة ـ جلسات التعذيب.

ونظرا لأن آثار التعذيب كانت واضحة على أجساد المتهمين أثناء المحكمة الأولى، وحاول المحامون استغلالها في تفنيد أقوال الادعاء، فقد غيروا أساليب التعذيب السابقة هذه المرة، واستبدلوا عمليات الضرب والخبط العشوائي التي تترك آثارا واضحة في الرأس والوجه وبقية الجسم الخارجية الظاهرة، استبدلوا ذلك كله باستخدام (الفلقة)، وهي الضرب والجلد المبرح على بطن القدمين.. و (الفلقة) عبارة عن عصا مربوطة من طرفيها بحبل، حيث توضع قدما الضحية بين العصا والحبل، ثم تُلف عدة مرات حتى يحكم الخناق حول القدمين، وبعد ذلك يرفعها اثنان من الجلادين، بينما يقوم الجلاد الثالث بعملية الجلد، وأداة الجلد يمكن أن تكون أي شيء، ولكن أدواتهم الرئيسية كانت ثلاث، وهي :-

1- العصا، وغالبا ما تكون عصا المكنسة.

2- أسلاك الكهرباء بأحجامها المختلفة.

3- سوط من الجلد.

والفلقة عملية فظيعة في الواقع، ولا يمكن وصفها، أعني أنه ليس في مقدور أحد أن يتصور آلامها الفظيعة جسديا ونفسيا، عندما يصبح الإنسان مشنوقا من قدميه ورأسه منكس على الأرض ويصرخ من شدة الألم، وعندما تتراجع الدماء تحت وقع الضربات، نظرا للوضع المقلوب، ويخف الألم قليلا، يأمرونه بالهرولة حتى تعود الدماء من جديد، ثم يعيدون الكرّة، مرة ومرات.

وستظل عملية انتحار رئيس الوزراء الليبي السابق محمود المنتصر في شهر مايو عام 1970، بسبب الإذلال والإهانات و المعاملة اللاإنسانية، وبسبب جلسات التعذيب الوحشية، وكذلك ما حصل للشيخ الطاعن في السن ، المجاهد محمد سيف النصر، مما أدى إلى التعجيل بوفاته... ستظل في الذاكرة ما حييت.

هل أستطيع الآن أن أصور الألم الذي قاسيته منذ ما يزيد على عشرين سنة، وأضعه على الورق؟.. هذا مستحيل لأنني لا أستطيع من ذلك شيئا، وإذا كنت لا أستطيع أن أصور آلامي، فهل من المعقول أن أكون قادرا على تصوير آلام الآخرين، حتى ولو كنت قد شاهدتهم وهم يتألمون بجانبي؟، ومع أنني ما زلت حتى هذه اللحظة أعاني من آثار ذلك الضرب المبرح على أقدامي، وخاصة على أعصاب القدم اليسرى التي تصيبني أحيانا بما يشبه الشلل التام على نحو مفاجئ أثناء المشي، فأجد نفسي واقفا أتألم، فاقدا القدرة على إبداء أية حركة، ومع ذلك فلا بد لي من الاعتراف بأن ما أصابني من ضرر من عمليات التعذيب بالفلقة تلك، كان أخف من كثير من الآخرين، فقد رأيت بجانبي من كان يستعطفهم وهو يصرخ من الألم، ثم يقول: " توقفوا فقط .. واكتبوا أي شيء، وسوف أوقع عليه حالا " ولكنهم لم يتوقفوا حتى أغمي عليه، وشاهدتهم وهم يحاولون انتزاع السلك الكهربائي من قدم ضحية أخرى، بعد أن غاص السلك داخل اللحم، وهو فاقد الوعي، وشاهدت من تقطعت بعض أصابعه من العصا، ومن تشوهت قدمه، ومن أصيب بالعرج والعجز المستديم ،،، شاهدت الكثير ...ولكن كيف يكون في وسعي أن أصور الانسان وهو يفقد حياته تحت لهيب السياط، مثلما مات المقدم عبد الحميد الماجري تحت التعذيب.

وإني لأسأل نفسي الآن ... أي نوع من البشر أولئك الذين لا يقيمون لحياة الإنسان وكرامته أي وزن أو قيمة أو اعتبار؟ ويعاملونه كما يعاملون أية حشرة ضارة؟؟ يا إلهي.. ثمة نوع من البشر لا يعيشون في هذا القرن إلا بأجسادهم فقط، أما عقولهم فلا تزال تعيش في القرن العاشر..؟

وبدأت المحكمة أولى جلساتها في الأسبوع الأول من أغسطس عام 1970 م - لا أتذكر اليوم بالتحديد - في نفس قاعة المحكمة السابقة، وسط أجواء من الرعب والإرهاب، ليس داخل المحكمة وحولها فقط، بل تعم البلاد بأسرها.

وكان رئيس المحكمة الجديد عصبي المزاج، حاد الطبع، بحيث تعذر علينا كمتهمين داخل القفص أن ندلي بأقوالنا دون تبكيت منه أو توبيخ ، مما أجبر الكثيرين منا على السكوت والاكتفاء بالاستماع إليه، وهو يكيل لنا الاتهامات والشتائم، ولم ينجا المحامون أنفسهم من التقريع واللوم لأتفه الأسباب، بحيث وجدوا أنفسهم في ورطة أخرى تفوق الأولى بمراحل وأتذكر أن أحد المحامين وهو المحامي إبراهيم الغويل استجاب لأجواء الرعب وخاف من عواقب الدفاع عن العدالة أمام المحكمة وتخلى عن القيام بواجبه القانوني في المرافعة عن أحد المتهمين.

وبالنسبة لي، فإنني لم أستطع الإدلاء بأقوال لها قيمة تذكر في الدفاع عن نفسي، وأخيرا التزمت الصمت واكتفيت بالاستماع، وقد استغرب المحامي الذي تولى الدفاع عني في هذه المرة وهم الأستاذ عبدالمجيد الميت مجرد عملية اعتقالي، لعدم وجود أية شبهة تدعو حتى إلى هذا الاعتقال، وقد طالب هو الآخر هيئة المحكمة في ختام مرافعته عني بإطلاق سراحي على الفور وإعادتي إلى الخدمة، وقد أيّد كلامه المحاميان :- الأستاذ عثمان البيزنطي والأستاذ علي انذار، لكن رئيس المحكمة أمرهما بالسكوت، لأنهما لا يترافعان عني.

تواصلت جلسات المحكمة الثانية حوالي الشهرين، قبل أن ترفع الجلسة ما قبل الأخيرة، انتظارا لانعقاد الجلسة الأخيرة التي ستصدر فيها الأحكام، ومن خلال سير المحاكمة لم أعد أتوقع سوى الأحكام بصورة مفجعة، وبدت فكرة كوني قد أحكم بالإعدام تراودني، وفكرت مقارنا بين ما كنت قد ظننته في اليوم الأول لاعتقالي، بأنني قد أحبس عدة أيام فقط حتى أكف عن انتقاداتي السياسية لسلطات الانقلاب، وبين الوضع الذي أخذ يتفاقم على نحو مخيف.

حوالي الساعة العاشرة صباحا من يوم 17 أكتوبر 1970 م. عقدت المحكمة العسكرية الخاصة (الثانية) جلستها الأخيرة للنطق بالحكم، ودخل رئيس المحكمة إلى القاعة، متجهم الوجه، صارم القسمات، وترك الجميع وقوفا، ثم أخذ يقرأ الأحكام بشيء من العجرفة، وقد حكم على خمسة بالإعدام، وحوالي العشرة بالسجن المؤبد، وعلى ثلاثة بالبراءة.. للتدليل على عدالة المحكمة.

أما باقي المتهمين، فقد حكم عليهم بالسجن لمدد مختلفة، وقد كنت واحداً من بين الخمسة الذين حكم عليهم بالإعدام رميا بالرصاص حتى الموت - حسب نص الحكم -.

حاولت جاهدا أن أتذكر الآن مشاعري لحظة النطق بحكم الإعدام، لكنني لم أفلح.. فحين يقع الإنسان في قبضة القهر، ويصل به العسف إلى درجة الشعور بتفاهة الحياة، والاستهانة بها، ثم تصل به الاستهانة بالحياة إلى خط التماس مع تخوم الموت.. إذ ذاك بالضبط - في تصوري - تتبلد مشاعره تماما، ويتلاشى عنده الإحساس بالبون الشاسع بين الحياة والموت، أو بين الفرح والحزن، وأعتقد أن هذا ما حصل معي في تلك اللحظة.

قال لي زملائي من الذين حكموا بسنوات، قالوا لي.. بعد خروجي من السجن : (إنك لم تكترث لحظة النطق بالحكم).. غير أنني، ما زلت أعتقد بأنها ملاحظة غير صحيحة وإن كنت لا أتذكر الأمر على وجه الضبط.

بعد رفع الجلسة مباشرة، أخذونا نحن الخمسة المحكومين بالإعدام - دون باقي المحكومين - في سيارة (لاندروفر) كانت في انتظارنا، وأيدينا مقيدة وراء ظهورنا بالحديد، ومعنا الحراس بأسلحتهم، تتبعنا سيارة أخرى ملينة بالجنود المدججين بالسلاح، وفي لحظة ما اعتقدت أنهم ذاهبون بنا مباشرة إلى ميدان الرماية العسكرية القريب من مدينة طرابلس، لتنفيذ الأحكام فينا على وجه السرعة، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا بنا إلى سجن " الحصان الأسود " حيث كانت (زنازين الحبس الانفرادي) في انتظارنا، كلٌ في زنزانة ومعزول عن كل ما حوله، عزلا كليا لا عن العالم الخارجي وحسب، بل حتى عن السجن والسجناء داخل السجن ذاته، على مدى أحد عشر عاما بأكملها... كما لو كان المرء مقبورا، وهو لا يزال على قيد الحياة.

و لو قال لي أحد ما، بأن الأحد عشر عاما التي قضيتها في الحبس الانفرادي، وفي ذلك الوضع المأساوي الذي كنت فيه بأنني لم أكن وقتها حيا، بل كنت في سبات الموت لصدقته على الفور دون أي اعتراض أو نقاش!.

الحلقة الـــرابعة :

سنوات السجن الانفرادي (من أكتوبر 1970 حتى أغسطس 1981)

أنا لا أعرف الآن كيف أتحدث عن تلك الفترة العصيبة القاسية من حياتي.. صدقوني .. أنني أشعر بالعجز في التعبير عنها، قد أقول شيئا أو أشياء ويعتبرها البعض منا أشياء تافهة لا قيمة لها لأنها ليست ظاهرة في معظمها، بل هي أشياء داخلية في أعماق أعماقي، وقد مضى عليها الآن زمن طويل فأنّى لي باستعادتها؟ و إذا ما حاولت استعادتها فلن تكون بنفس العنف والقسوة التي كانت عليها فعلا، وبالتالي قد أعطي الآخرين صورة مشوهة غير الصورة الحقيقية، وأظلم نفسي.. فهل أتجاوزها واصمت عنها، وأدعها من نفسي ولنفسي فقط، وإلا كيف يكون في وسعي أن أتحدث عن أحد عشر عاما عشتها داخل قبر واسع؟.. كيف يمكنني أن أصف الألم والعذاب والمعاناة على مدى أكثر من أربعة آلاف يوم؟.. عشتها مثل بومة يتيمة، في قعر زنزانة هرمة، منذ أيام الاحتلال الإيطالي لليبيا.؟

فهل في مقدور أحد بعد ذلك، أن يحسب الزمن بالساعات والدقائق والثواني؟؟.... أجل.. كيف ؟.

إن الأمر في غاية الصعوبة ويشبه المستحيل، إن لم يكن هو المستحيل بعينه.. ومن جهة أخرى، قد يبدو الأمر بسيطا ، فإذا ما تحدثت عن حياتي داخل تلك الزنزانة لمدة يوم واحد فقط، فإن الأمر سيكون واضحا بانسحابه على بقية الأيام الأخرى، باعتبارها كلها متشابهة ولا جديد فيها، وهذا هو الخطأ بعينه فالحياة غير المعاناة، وما تعانيه اليوم أوغدا، هو غير ما عانيته بالأمس... و ما تستطيع تحمله اليوم، قد لا تقدر عليه غدا.. ومهما كان المرء قويا وصامدا، فإن القهر المتواصل يثلم جدار الصمود،،، أربعة آلاف يوم، عشتها في قبو نصفه تحت الأرض، قابعا في انتظار الموت.. أربعة آلاف يوم، عشتها معزولا عن كل ما حولي، لا أشاهد مخلوقا سوى وجوه السجانين العابسة على الدوام، لا أرى أحدا ولا يراني أحد.. لا أكلم أحدا ولا يكلمني أحد.. لا شيء أسمعه ولا شيء أقرأه.. لا شمس ولا هواء ولا حركة.. لا زيارات عائلية ولا مراسلات.. ولا.. ولا. فقط صمت رهيب يحيط بي من كل جانب.. يحتويني سكوت مميت، أسأل نفسي في أسى:

هل أنا حيّ أم ميت؟.. ألست داخل قبر مغلق..؟ وما الفرق بيني و بين الأموات سوى أنني أتنفس...

هل لي أن أقول شيئا الآن..؟ عندما يطويك الأسى، ويطول بك الزمن في وضع كهذا، تفتقد كل شيء وتفقد كل شيء، عندها تفقد الأمل واليأس والخير والشر والحب والكراهية وحتى بين الليل والنهار لأنك تفتقد لقاء الصبح واحتضان النهار، ووداع الغروب، تفقد لذة المنام وطراوة الاستيقاظ، وتصبح أحلامك ـ لطول الزمن ـ ترقد إلى جوارك، وترفض أن تغادر أسوار السجن.. عندها تفقد وجه الطفولة ولون الزهور وصوت الموسيقى.. وتفقد عندها حتى صورة وجه أمك الحبيب، وتفشل في محاولة استعادة صورته إلى مخيلتك،، وبعبارة واحدة: تفقد كل ما يطلق عليه الحياه.

إنني هنا لا أكتب شعرا ولا أتخيّل،، وإنما أحاول أن أسجل واقعا عشته على أعصابي وبلحمي ودمي، وعمّدته بعمري.. فإذا فشلت في هذا التسجيل فإن ذلك لا يعني سوى أنني ما زلت أعيش آثار تلك التجربة المريرة التي جعلتني يوما ما أفشل حتى في تخيّل صورة وجه أمي.

و ثمة شيء آخر لا بد من قوله هنا.. فعندما يطول بك الزمن في وضع كالذي حاولت وصفه تنتظر الموت كل يوم ولا تموت على مدى أكثر من ستة آلاف ومائتي يوم، وهو الزمن الذي عشته في انتظار الموت ـ فأنا ما زلت أتحدث حتى الآن عن سنوات الحبس الانفرادي، ولكنني بصفة عامة قضيت أكثر من سبعة عشر عاما في انتظار تنفيذ حكم الإعدام الذي لم ينفذ، وعلى مرّ الزمن الطويل فإن كل باب يفتح، أو نافذة تغلق ليلا أو نهارا لا يعني بالنسبة لك سوى أنهم قادمون لتنفيذ حكم الإعدام فيك.

إن ما قبل الموت، أصعب من الموت ذاته، هكذا تقول التجربة التي مررت بها .

ورغم أن « سقراط » كان ينصح تلاميذه بأن :

(لا يهابوا الموت ، لأن مرارته في الخوف منه)، إلا أنه لم يقل لهم، أو لنا ـ على حد علمي ـ كيف نتغلب على ذلك الخوف.

ومن خلال التجربة التي مررت بها، يبقى في وسعي كذلك أن أقول بأن تنفيذ حكم الإعدام هو أهون من بقاء المحكوم عليه حيا كل هذا الزمن الطويل، وفي مثل تلك الأوضاع اللاإنسانية التي عشتها وحاولت شرحها وإيضاحها.

****

الـــزنـــزانـة رقم (1) :-

دعوني الآن أقول شيئا عن طريق التذكر..

إن ذكرياتي الحزينة تنبثق من داخل الزنزانة المتهالكة ذاتها التي مضت عليها أربعون سنة، دون أن تعرف الصيانة طريقها إليها، فسجن الحصان الأسود هو نفسه سجن (بورتو بينيتو) الإيطالي الذي بناه الإيطاليون عام 1930 م. وهذا الاسم (بورتو بينيتو) معناها باب بينيتو، ولعل المقصود هو الدكتاتور المعروف (بينيتو موسوليني).

وهي - أي الزنزانة - مليئة بالحفر والشقوق والثقوب التي تعج بالحشرات، وخاصة الصراصير والنمل والعناكب، وليس ثمة من وسيلة لمقاومتها أو الحد من تكاثرها، وخاصة في فصل الصيف، أما مواد التنظيف فإنهم يعتبرونها ترفا للسجين.. ولذلك فهي شحيحة إلى حدّ مزر.

هل أحاول الولوج إليها .. أعني إلى تلك الزنزانة الهرمة التي تحمل الرقم (1) في القسم الأول بسجن الحصان الأسود؟ أم أحاول أن أتذكر على البعد كيف قاسيت برودتها القارصة في الشتاء، دون تدفئة أو حتى ملابس و بطاطين كافية لدرء البرد، مع قلة الطعام ورداءته، وكيف تحملت حرارتها اللافحة في الصيف وهي عديمة التهوية ومغلقة على الدوام، وكيف عانيت من رطوبتها الدائمة في كل الفصول وأنا قابع في جوفها ليلا ونهارا.

نزحت عرقا في الصيف.. تجمّدت برودة في الشتاء.. زحفت إلى كل زواياها هربا من الرطوبة المتساقطة أو بحثا عن ملاذ من قواطر المطر.. وضعت الجردل الذي أغسل فيه ملابسي (سطل) تحت قواطر المطر، وطفقت القواطر تتهامل بالجردل على نحو فوضوي.. أطلقت عليها في البداية اسم (موسيقى الفوضى) انسجاما مع ما يحدث في بلادي، ثم استبدلته باسم (موسيقى الماء) تأسّيا بموسيقى " هيندل" في (لحن الماء).

طاردت الصراصير بلا هوادة، وعرفت أن وسيلتها للنجاة من أعدائها هي حركتها اللولبية السريعة أثناء فرارها، واكتشفت بأنها تفترس بعضها بلا رحمة.. قلت حينها في ذات نفسي (مثلما يفعل البشر تماما)، راقبت العناكب وهي تنسج بيوتها بمهارة فائقة، وبعبارة أكثر دقة؛ وهي تنصب فخاخها لاصطياد الضحايا،،

فبيت العنكبوت ليس في الواقع إلا فخّا، وأشفقت مرة على نملة ضعيفة تحاول الخلاص من فخ العنكبوت، فأنقذتها وأطلقت سراحها، وبطريقة ما اعتقدت أنها شكرتني !.

تأملت قوافل النمل المثابر و أسرابه الطويلة، وهي تخاطب بعضها بلغة الإشارة، وخاطبتها بدوري معاتبا لأنها تنقل نفايات مخازن الشتاء إلى وسط الزنزانة.

تابعت (أبو بريص) الشبيه بالتمساح، الزاحف طوال الليل والنهار في السقف وعلى الجدران وهو يتبرز ويلتهم الصراصير الغافلة مجانا وبغير حساب وقتها.. قلت محدثا نفسي :-

(إن قانون الغاب ليس في الغاب وحده، إنه هنا في هذه الزنزانة أيضا، وفي هذا السجن، وفي ليبيا كلها، وربما في العالم برمته).

برنامج المشي داخل الزنزانة :-

طاردت .. راقبت .. تأملت .. فكرت .. تذكرت ،، ولكن الوقت لا يمضي، فماذا أفعل يا إلهي؟ فكرت؛ بأن عليّ للقضاء على الوقت الطويل أن أنام أطول فترة ممكنة، ولكن كيف ؟

وقلت بأن هذا لا يأتي إلا إذا شعرت بالتعب، لذلك وضعت برنامجا بسيطا خلال ساعات النهار للوقوف والمشي داخل الزنزانة ربما بما يعادل عشرات الكيلو مترات، وبدأت في تنفيذه، وأصبحت التهم الطعام القليل الذي يقدم لي وأظل جائعا، لكنني أنام نوما عميقا لفترة طويلة، لذلك صممت على المحافظة على تواصله، واستمررت فعلا في تطبيقه معظم الأيام دون انقطاع يذكر وعلى مدى أحد عشر عاما ، وهي مدة تواجدي بالحبس الانفرادي.

****

الحلقــة الخـامســة :-

الإضراب عن الطعام:

ثم ماذا..؟ أعني ما الذي فكرت فيه بعد ذلك...؟

فكرت في أن أعلن احتجاجي ـ بطريقة ما ـ على هذا الوضع الذي أعيشه، ولم يكن أمامي من وسيلة سوى (إضراب الجوع) وأنا جائع أصلا، أو ما يعرف أيضا بالإضراب عن الطعام، ولم أتوانى عن ذلك يوما واحدا، فقد شرعت في تطبيقه في اليوم التالي مباشرة، ورفضت استلام الطعام حتى يأتيني آمر السجن أو مساعده، أو يستدعيني أحدهما لأعرض عليه مطالب تخصني وأراها ضرورية ومشروعة، قلت هذا لضباط الصف السجانين الذين يشرفون على توزيع الطعام.

ولكنهم أمروا الحراس بالتخبيط والضرب على باب الزنزانة الحديدي بالتناوب لمدة ثلاثة أو أربعة أيام لغرض إزعاجي، أو لكي لا أتمكن من النوم أو الراحة، أو لسبب آخر لا أدريه، كما كانوا يشتموني ويسخرون من إضرابي من وراء الباب أو مع الكوّة، وكان السجان « العريف مفتاح الدروقي »أكثرهم مثابرة على ذلك، لكن أحدا منهم لم يدخل الزنزانة ليمسّني.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام توقفوا عن التخبيط والشتائم ثم بدأوا يتركون الطعام في الكوة لمدة ساعتين تقريبا قبل أن يعودوا لأخذه دون أن أمسّه، ولم يكن هناك شيء أتناوله غير الشراب بطبيعة الحال، ولذلك كنت أشرب الماء ولا أقوم بغير الحركات الضرورية للاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من السعرات الحرارية كزاد للأيام القادمة.

وبعد حوالي أسبوع جاءني مساعد آمر السجن الملازم محمد سالم، وناقشني في سبب الإضراب،، قلت له: " أنت تعرف أنني منذ زمن طويل وأنا في هذا الوضع السيء، وكنت آمل بأنه سيتغير إلى وضع أفضل منه.. ولكن هذا لم يحدث " فرد قائلا : ماذا تريدنا أن نعمل لك ؟ هذا وضعك،، أنت محكوم بالإعدام.. هل نسيت..؟ قلت له : لم أنسى بالطبع، ولكن تهمتي سياسية كما تعلم وأنا الآن سجين سياسي، صحيح أنني محكوم بالإعدام، ولكن ما دمت على قيد الحياة فمن حقي أن أنال معاملة إنسانية تليق بالتهمة التي حكمت بسببها، وهل من المعقول أن يلقى السجين العادي (غير السياسي) معاملة أفضل من السجين السياسي كما هو حاصل في هذا السجن ..؟ أرجو أن تكون المعاملة ـ على الأقل ـ متساوية،، أليس هذا بإمكانكم؟ فسألني : وماذا تريد؟ .. وأجبته بأن لدي مطالب أعتقد أنها قانونية ومشروعة إلى حد كبير، فقال: وما هي ؟، قلت: إن ما أطالب به يمكن تلخيصه في الآتي :-

1- الخروج للشمس والهواء، والتريّض والحركة.

2- السماح لي بالقراءة (كتب، مجلات، جرائد، الخ...) و ممارسة الكتابة.

3- السماح لي باقتناء جهاز راديو لكي أسمع من خلاله الأخبار وأتواصل مع العالم الخارجي.

4- صيانة الزنزانة المتآكلة وتوفير مواد التنظيف والمطهرات والمبيدات الحشرية.

5- السماح لي بالزيارات العائلية و المراسلة.

6- توفير الطعام الكافي والمغذي، وكذلك الملابس و البطاطين والأشياء الأخرى الضرورية.

وأعترف بأنه استمع إليّ حتى النهاية، وكان مهذبا معي إلى درجة معقولة، وسجّل جميع مطالبي، ووعد بأن يرفعها إلى آمر السجن ثم يعود إليّ ،، غير أنني لم أره إلا بعد شهرين أو ثلاثة وهو يمر بالقسم في جولة روتينية.

بعد تلك المقابلة أهملوني كلية كما لو كانوا قد نسوني تماما ، كل ما فعلوه بعد ذلك، هو أنهم أخذوا يتركون الطعام في الكوة حتى الوجبة التالية، وراحت الأيام تتمطى قاسية وطويلة كأنها الدهور، ومما زاد في قسوتها مع قسوة الجوع أن الوقت كان شتاء والبرد في غاية الشدة، وبدأت صحتي تتدهور رويدا رويدا إلى أن بلغت عشرين يوما حين انهارت صحتي تماما، وأصبحت على حافة الهلاك، وصار الدّوار مخيفا وينذر ليس بفقدان التوازن فحسب، بل بفقدان الوعي أيضا.

وفي اليوم العشرين سقطت مرتين وأنا في طريقي إلى دورة المياه لكي أشرب، رغم أنني كنت أستند إلى الجدار، وأحيانا كنت أشعر وكأن الزنزانة تتحرك وتدور،،، إن الأشياء تنتقل من مواضعها، وبدأت أفكر قبل أن أفقد الوعي وأدخل مرحلة الغيبوبة، وبدا واضحا بالنسبة لي أن لديهم الاستعداد اللاإنساني لإهمالي حتى أموت، فلم يهتموا حتى باستدعاء طبيب أو ممرض أو بأي إشارة أخرى تدل على الاهتمام، بل تجاهل وإهمال مطلق، وقلت لنفسي:

وحتى في حالة موتي، فإن أحدا لن يعلم بأنني قضيت نحبي مضربا في سبيل بعض حقوقي كإنسان، وربما أشاعوا بأنني متّ منتحرا، وثمة فرق شاسع بين أن يموت المرء مضربا من أجل حق ما، وبين أن يموت منتحرا للخلاص من عذاب ما، فلماذا إذاً أموت بالمجان وأمنحهم هذه الفرصة كما يبدو أنهم يريدون؟؟؟.... و قررت أن أفكّ إضرابي.

في مساء اليوم العشرين من بداية إضرابي عن الطعام، تناولت طعام العشاء ممزوجا بمرارة الفشل، لأنني - في الواقع - لم أحقق أي مطلب من المطالب التي ذكرتها، ولم يتغير شيء في الوضع البائس الذي كنت أعيشه، سوى أن السجانين ابتعدوا قليلا عن مضايقتي واستفزازي.

أما ثمن ذلك الإضراب الحقيقي بالنسبة لي، فقد كان غاليا جدا، إذ نتجت عنه قرحة مزمنة، مع هبوط شديد في المعدة، ما زلت أعاني منها الأمرين حتى هذا اليوم، وربما إلى آخر يوم في حياتي.

بعد أن فككت الإضراب، عانيت لعدة شهور من الضعف والهزال الشديدين، ومن الشعور بالإحباط وضعف الروح المعنوية على نحو فظيع، وراودني الشك في عدالة السماء، وفقدت اليقين في كثير من حقائق الحياة، التي كنت أعتبرها مسلمات لا تقبل الجدل.

وبعد ذلك بسنوات سمعت بمأساة (بوبي ساندز) الايرلندي الذي أضرب عن الطعام حتى مات، وحسدته على موته، لأنه مات وهم ملء أسماع العالم وبصره، نظرا لأجواء الحرية التي كانت تحيط به، أما أنا فلو أضربت حتى الموت، لما سمع أحد بموتي غير السجانين، وهذا ليس تبريرا أو إسقاطا،، ولكن لا أحد يود أن يموت غريقا..!!.

******

حادثة ذات دلالة:

ما زلت أتذكر وسأظل، هذه الحادثة التي اعتقدت أن لها دلالتها السياسية و الأخلاقية.. فبعد الإضراب عن الطعام بحوالي شهر ونيّف، وأظن أن ذلك كان مع بداية عام 1972 م. جاء النقيب «عبدالسلام أجلود » عضو مجلس قيادة الثورة بزيارة لسجن الحصان الأسود، وكان وزيرا للداخلية في ذلك الوقت، وأخذ يمر على السجناء وهم داخل الزنازين، وحين مرّ من أمام الزنزانة التي أتواجد بها، ذكروا له إسمي، فتوقف أمامها، ولم يأمر بفتحها كما كان يفعل مع الآخرين، وإنما أطلّ بوجهه من الكوة ونظر نحوي بازدراء،،، ثم خاطب آمر السجن الذي كان بجانبه، وهو الملازم « فرج بوسلياته » قائلا له :

لماذا لم يُنفذ حكم الإعدام في هذا المتآمر حتى الآن..؟

غداً... نفذوا فيه حكم الإعدام،، لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى، ثم خرج من القسم..!

وقد توقعت حكم الإعدام في اليوم التالي فعلا، فلم أنم تلك الليلة... و انتظرتهم حتى الصباح رغم أنهم لم يأتوا أبدا، إلا أنني ظللت عدة شهور وأنا أتوقع حضورهم كل يوم.

وأدرك السبب فيما فعله النقيب (أجلود)،، فقد جمعتنا دورة عسكرية عام 1967 م. بمدرسة المخابرة (الإشارة) بمعسكر مدينة المرج، وتشاء الصدف بأن أضبطه في موقف لا أخلاقي - لا أرى داعيا لذكره هنا - وقد وبختّه على ذلك، باعتباري أقدم منه رتبة عسكرية، لكنه حين اعتذر عن فعلته تلك، وعدته بأنني لن أكتب تقريرا حول الموضوع، وكنت عند وعدي، ولكن الانتقام - على أية حال - من طبيعة الإنسان، إذا لم يكن مزودا بالرادع الأخلاقي .

****

الحلقـــة الســـادســـة:

بعض الأحداث الأخرى:-

كثيرة هي الأحداث التي مررت بها، عبر أحد عشر عاما من الحبس الانفرادي، ومن الصعوبة بمكان تقدير أيا منها أكثر أهمية من الأخرى، لكي أذكرها هنا أو لا أذكرها، ولعل الأحداث الآتية هي من بين الأحداث التي تركت بصماتها التي لا تنسى على جسدي أو في نفسي أكثر من غيرها.

الضوء الكهربائي الدائم:

كان الضوء الكهربائي الدائم مشكلة أخرى من المشاكل العديدة التي واجهتها طوال ثمانية عشر عاما، وخاصة أثناء فترة تواجدي في الحبس الانفرادي، وتكمن المشكلة في أنهم يتحكمون فيه من الخارج، كي يتمكن الحراس من مراقبتي طوال الوقت، ولذلك فهو يظل مشتعلا ليلا ونهارا، ولا ينطفئ إلا عندما ينقطع التيار الكهربائي من مصدره، أو في حالة استهلاك المصباح الكهربائي، واستمراره مضيئا أمر مزعج وضار إلى حد غير معقول.

لقد تسبب الضوء الدائم على مدى هذا الزمن الطويل، في ضعف نظري إلى حد مخيف، أخشى معه أحيانا من فقدان البصر، وبسببه كرهت (توماس إيديسون) الذي كنت أحبه لأنه اخترع المصباح الكهربائي ، وهو إذا ما تواصل بالليل والنهار دونما انقطاع فإنه يحطم الأعصاب فعلا، وخاصة في فصل الصيف، وما زلت أتذكر يوما قائضا من أيام شهر يوليو كان شديد الحرارة بحيث تحولت فيه الزنزانة المغلقة إلى فرن ملتهب، وبدا لي المصباح المتوهج فوق رأسي يذكي اللهب سعيرا، وفقدت أعصابي، فانتزعت (الشبشب) من قدمي ورميت المصباح بقوة ،، فصار هشيما.

وكان عليّ أن أدفع الثمن على الفور، إذ سرعان ما أقدم السجانون غضابا كالوحوش، وضربوني ضربا مبرحا، ثم ربطوني بالقيود الحديدية إلى السرير المهترئ المصنوع داخل السجن من شرائح الصفيح .. لمدة تقرب من عشرين ساعة.

ومنذ ذلك النهار بدأتُ في عملية شاقة من تمارين القدرة على التحمل شبيهة إلى حد ما بتمارين (اليوجا) الهندية، وترويض نفسي على عدم فقدان أعصابي أو مواجهتها إذا انفلت الزمام ـ بطريقة مختلفة ـ ، وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير.

غير أن الوضع اللاإنساني الذي كنت أعيشه، لم يكن يسمح لي بالتقاط أنفاسي، فهو ينقلني من مشكلة إلى مشكلة أخرى .. أكبر منها، تصل في حد ذاتها أحيانا إلى حدود المأساة، وما من أحد ـ في تصوري ـ سيختلف معي إذا ما قلت: بأن فقد المرء لأعصابه لهو أخف بكثير من مجرد اعتقاده بأنه فقد عقله... إن مجرد الشك في سلامة عقلك، أمر مفجع إلى أبعد الحدود.

الشّك في سلامة عقلي:

أنا لا أدري، إذا ما كان هذا الإحساس الغريب والشاذ بكل تأكيد، قد راود أشخاصا آخرين في حياتهم أم لا.. أقصد كم إنسانا دفعته ظروف الحياة القاسية ليمر بتجربة غريبة ونادرة كهذه، ولكني أشعر بالاطمئنان على أن ما سأقوله سيكون مفهوما كحالة نادرة الحدوث، ولكنها واقعية ويمكن أن تحدث في حياة البشر، إذا ما وجدوا أنفسهم في ظروف ضاغطة وغير عادية، فعندما يكون الأمر غير مألوف في حيلة البشر، فإن فهمه يكون مهمة شاقة لمن لم يراوده هذا الشعور في حياته من قبل، أو لمن لم يمر بنفس التجربة بطريقة أو بأخرى، لأن معظم الناس في حركتهم اليومية الدائبة وسط الضجيج في الحياة، لا يعيرون الأمور العقلية التفاتا، ولا يملكون الوقت للتفكير في أمر محير كهذا، ولربما اعتبروه أمرا فلسفيا وترفيا في أحسن الفروض، أو سفسطة تافهة لا قيمة لها، أعني - بعبارات أخرى - أن تجد نفسك مدفوعا بالقهر المتواصل، جسديا ونفسيا، حتى تصل إلى مرحلة الشك في سلامة قواك العقلية.

وفي لحظة ما، تقف ذاهلا لتسأل نفسك - لأنك لا تجد حولك من تسأله - هذا السؤال المتعلق والمحير في آنٍ معا: " هل أنا عاقل أم مجنون ؟.."

ويظل السؤال الحاد كالسكين، يتردد في داخلك بلا إجابة قاطعة.. وعلامة الاستفهام تهوي على رأسك من حين إلى آخر كالمطرقة.

ومرة أخرى، لا أدري كيف تخلصت من ذلك الشعور القاهر بالشك في سلامة عقلي الذي اجتاحني بشكل عاصف، ولازمني لفترة غير قصيرة من الزمن، حتى فقدت معه الشهية الغريزية في تناول الطعام، والرغبة الطبيعية في استمرار الحياة، وراودتني من خلاله فكرة الانتحار أكثر من مرة، وقد انتحر الكثيرون في سجن " الحصان الأسود"، ربما لهذا السبب، خاصة وأن أعراض فقدان العقل بدت على الكثيرين منهم، قبل إقدامهم على الانتحار.

أما لماذا راودني هذا الشعور الفظيع ؟ فإن لذلك سببا بطبيعة الحال،،، إذ كنت قد أبطأت مرة في استلام طعام العشاء عبر الكوة، فصاح أحد السجانين ؛ وهو نائب العريف «عمر ارحومه » يستحثني بصوت غاضب قائلا: " أسرع يا قرد " .... فلم أغضب، ولكنني ضحكت، وكنت يومها هادئ الأعصاب وقلت له : (إن القرد رجل محترم، لأنه هو جدي وجدك)، وضحكت مرة أخرى،، ورأيته وهو ينظر إليّ بدهشة... دون أن يتكلم، ثم أقبل الآخرون بإشارة منه، وراحوا جميعا ينظرون نحوي باستغراب، ويتهامسون، ويتضاحكون، كما لو كنت مجنونا، وسمعت أحدهم يقول أثناء انصرافهم: " خلاص.. عوّى " والمقصود بالعواء هو عواء الكلب عندما يصاب بالسّعار وهو (داء الكلب)، وهو نوع من الجنون على أية حال.

بالطبع لم يفهموا قصدي، وأكاد أجزم بأن أحدا منهم لم يسمع باسم (دارون) في حياته.

ولكني بعد ذلك،، بدأت أشك في نفسي، وخطر لي خاطر غريب.. لم لا أكون قد صرت مجنونا وأنا لا أدري....؟! فقد كنت أسمع الحراس أحيانا وهم يتحدثون عن سجين ما فقد عقله، و يتندّرون على تصرفاته وأفعاله، وبأنه يصيح ويصرخ، ويضرب الباب، ويقول كلاما عجيبا، وبأنه يخلع ملابسه جميعها، ويظل عاريا.

وطفقت أنظر إلى نفسي وملابسي.. وفكرت، هل يستطيع الإنسان عندما يتخطى مرحلة العقل إلى مرحلة الجنون أن يدرك ذلك؟ حتى لوكان بمفرده مثلي..؟ أعني هل يستطيع الإنسان عندما يصبح مجنونا أن يعرف بأنه قد أصبح مجنونا..؟ وفكرت في الأمر طويلا ومليا، غير أنني لم أصل إلى أية نتيجة حاسمة على الإطلاق.

بل إنني ازددت حيرة وشكا،، لذلك طلبت من الله أن يجعلني أعرف ذلك لكي أحتفظ بملابسي على جسدي.

وقد عرفت فيما بعد أولئك البؤساء الذين أصيبوا بالجنون، أو أقدموا على الانتحار، بعد مرورهم بأزمات نفسية عنيفة، عصفت بكيانهم، ثم أودت بحياتهم ، وأنا الآن لا أدري إن كان من حقي أن أذكر أسماءهم أم لا ؟ تقديرا لعذاباتهم، واحتراما لعوائلهم.. أما إذا كان هذا الحق للجميع، وخاصة الشعب الليبي، باعتبارهم جزءا من قضية وطنية عامة، فإنه يتعين عليّ ـ في هذه الحالة ـ أن أذكرهم بكل إجلال وإكبار، كشهداء وكضحايا، نتيجة للقمع والإرهاب ومصادرة الحريات، وغياب حقوق الإنسان، إبان الحكم الدكتاتوري الذي أقامه العقيد معمر بو منيار القذافي، في بلادي ليبيا منذ العام 1969 م. وحتى اليوم 1992 م.

ومن بين الذين فقدوا عقولهم، وما زلت أتذكر أسماءهم حتى الآن:

1- سالم سعيد مسعود ... الذي قتله شخص فقد عقله هو الآخر، عندما وضعوهما معا ـ عمدا ـ في زنزانة واحدة...!.

2- عبد القادر اليعقوبى.

3- محمد هويدي.

4- عبد السلام الشلتات.

ومن بين الذين انتحروا، ما زلت أذكر حتى الآن أسماءهم:

1- أحمد فرج البرغثي

2- اسماعيل عبد القادر الدغاري.

3- فرج بن علي.

4- صالح النوال.

ومرة ثالثة وأخيرة، أعود فأقول: بأنني لا أدري كيف تخلصت من ذلك الشعور المرعب، وتلك المحنة المخيفة، ورغم أنني أخيرا حاولت أن أستخدم أسلوبا منطقيا وعلميا في حواري مع نفسي، إلا أن ذلك الإحساس المدمر، ظل يخامرني من حين لآخر، حتى تلاشى نهائيا في نهاية المطاف بعامل الزمن قبل نقلي من الحبس الانفرادي بوقت قليل.

****

الحلقة السـابعة :

الشعب يطالب بالنـــوار :-

ثمة أحداث تؤثر فينا كبشر دون غيرها من الأحداث الأخرى، ولا يرجع هذا أحيانا لجسامة الحدث في حد ذاته، بقدر ما يرجع إلى مواصفات خصوصية تكمن في الإنسان ذاته، وحالته النفسية وقت وقوع الحدث أو معايشته له، ومن هنا فإن الاستجابة لحدث ما، تختلف من شخص إلى آخر، بغض النظر عن كون ذلك الحدث كبيرا أو صغيرا.

أقول هذا تمهيدا لهذه الحادثة البسيطة، أو بالأحرى لهذه الحكاية القصيرة التي سوف أرويها هنا باختصار شديد، وقد لا يرى غيري أن لها قيمة تذكر، بل ربما تكون عديمة الفائدة، إذا ما قورنت بالوضع السيئ العام الذي كنت أعيشه، ولكنها - في الواقع - أثرت في نفسي تأثيرا بالغا حتى اليوم، ومن الصدق أن أقول بأنها تركت في نفسي أثرا لا يمحى، لأنني تأثرت بها - في حينها - كما لم أتأثر بأي حدث آخر في حياتي من قبل، ولا أعتقد بأنني سوف أنساها ما حييت.

وإن أنسى كل شيء،، فلن أنسى ذلك اليوم الذي طلبت دواء لعلاج الفطريات والتعفن بين أصابع الأقدام من أثر الرطوبة الدائمة، ولكن السجان الذي طلبت منه الدواء، وهو رئيس العرفاء « علي الشيخ » ردّ على الفور قائلا: بأنه لا يوجد أي دواء لعلاج حالتي، فرجوته أن يحضر لي قطنا - على الأقل - لكي أضعه بين أصابع قدمي ليمتص الرطوبة منها.

وتشاء الصدف، أن لا يأتيني ذلك القطن إلا ملفوفا بقصاصة ورق جريدة، ومعظم ضباط الصف السجانين لا يجيدون القراءة والكتابة، حتى يعطوا أهمية لقيمة الحرف أو الكلمة، وكانت فرحتي بورقة الجريدة أكثر من فرحتي بالقطن الذي كنت في أمسّ الحاجة إليه،

ها هي إذاً أخيرا - قلت لنفسي - ورقة من جريدة بين يدي، مهما كان نوعها أو شكلها او مضمون ما تحتويه... منذ سنوات لم تعانق عيناي الحرف والكلمة المكتوبة، ونسيت القطن، وبدأت عيناي تلتهم السطور بشراهة ونهم،، وكانت الجريدة هي جريدة (الفجر الجديد) الليبية، وهي جريدة حكومية رسمية كغيرها من الصحف الأخرى، إذ لا توجد في ليبيا حتى الآن مطبوعة واحدة حرة، أو شيء اسمه صحافة حرة.

وفي تلك الأيام من شهر إبريل من العام 1977 م. كان القذافي يحرك المظاهرات والمسيرات المفتعلة، وخاصة من طلاب وطالبات المدارس، ويشرف عليها بنفسه، ويلقنها الشعارات والهتافات التي ينبغي عليها أن تنادي بها، وذلك للمطالبة بإعدام الضباط الذين ألقي عليهم القبض في شهر

أغسطس من العام 1975 م. بتهمة التآمر ضده - أي القذافي - والإطاحة بنظامه، وهي مجموعة من ضباط الجيش، اتهم الرائد عمر المحيشي عضو مجلس قيادة الثورة ووزير التخطيط بقيادتها، ومعه أعضاء آخرون من مجلس قيادة الثورة، من بينهم الرائد بشير هوادي، والرائد عوض حمزه، وقد حكم على أكثر من أربعين ضابطا منهم بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم رميا بالرصاص في اثنين وعشرين ضابطا في شهر أبريل من العام 1977 م.،، أتذكر من بينهم النقيبين عبد المجيد المنقوش ومصطفى المنقوش والملازم حامد القندوز والملازم محمد المنصوري والملازم عبدالكريم نجم.

وفي نفس شهر أبريل تم تنفيذ حكم الإعدام شنقا في اثنين من طلاب الجامعة هما: عمر دبوب و محمد بن سعود، كما أعدم أحد الفنانين وهو الفنان عمر المخزومي في ذات الشهر.

كان الهتاف الرئيسي الذي يتصدر جميع الهتافات والشعارات الأخرى في تلك المسيرات والمظاهرات هو ((الشعب يطالب بالإعدام)).

ولذلك فإن أكثر ما شد انتباهي في ورقة الجريدة تلك، هم عنوان صغير لعمود في نهاية الصفحة، وكان عنوان ذلك العمود هو (الشعب يطالب بالنوّار) وكان المقال مذيلا باسم الصحفي الذي كتبه، واسمه - إذا لم تخني الذاكرة بعد هذا الزمن الطويل - هو " أحمد البكوش " ، وفيه يروي الصحفي مشاهداته في اليوم السابق وقت خروج طلاب وطالبات المدارس، و عند العودة للبيوت إذ شاهد ثلاث فتيات صغيرات بعد خروجهن من إحدى مدارس البنات بمدينة طرابلس، حيث كانت تمسك إحداهن بوردة في يدها، فيما كانت الفتيات الثلاث الصغيرات يهتفن معا وبصوت واحد : (الشعب يطال بالنّوار).

وعبّر الصحفي عن اعتقاده بأن المشهد الذي رآه هم مشهد تلقائي وعفوي وطبيعي وغير موجه من أي جهة كانت، وبأن الفتيات الصغيرات إنما كنّ يعبرّن ببراءة مطلقة عن ضمير الشعب الليبي الحقيقي، فشعبنا يطالب بالورود وليس بالدماء من أجل الحب وليس الإعدام.

ولا أدري - حتى اليوم - على وجه الدقة، لمَ تصورت أن إحداهنّ هي ابنة أخي (إيمان) التي أحبها كثيرا، وقد تركتها في المهد رضيعة، وتخيّلت أنها كبرت ووصلت إلى سن المدرسة، نعم هكذا... كمن يرحل فوق بساط الريح الأسطوري تجاوزا لحدود الزمان والمكان في آن معا.

وأعترف هنا بأنني يومها بكيت،، فقد هزني المشهد الذي استحضرته لعنف ليس لتصويره الآن من سبيل، وكان البكاء قاسيا على نفسي إلى أبعد الحدود، فانا أنحدر من أسرة بدوية تعتبر البكاء عيبا وضعفا في الرجل، لا يجوز له أن يمارسه، وربما تنعته بالجبن إذا ما بكى في بعض المواقف، وقد حاولت التعلل بما قاله الكاتب الفرنسي البيركامي:

(قد يبكي الرجال لكثرة القبح في الحياة)، غير أن ذلك وحده لم يعزيني بل ظللت أؤنب نفسي وألومها وأحاسبها حسابا عسيرا.

فيما بعد، فقد علمت أن ذلك الصحفي قد طرد من الجريدة، وربما سجن، ولكنني لم أستطع التحقق من دخوله السجن حتى بعد خروجي منه في العام 1988 م فاسمحوا لي إذا ما وجهت ـ على البعد ـ إليه التحية أينما كان، و حيثما كان.

******

الانتقال من الحبس الانفرادي إلى الحبس الجماعي

من أغسطس 1981 و حتى مارس 1988 م.

في العام 1981 اكتظ (سجن الحصان الأسود) بالمساجين السياسيين وذلك بعد الحملة الشرسة التي أعلنها القذافي في شهر أبريل من العام 1980 م, ضد خصومه السياسيين من المعارضة في داخل ليبيا وخارجها، وهي الحملة التي أطلق عليها القذافي بنفسه اسم:- (التصفية الجسدية لأعداء الثورة)، حيث أُعدم الكثيرون في الداخل، أو ماتوا تحت التعذيب، من أمثال الأستاذ فرج حمي، والمحامي عامر الدغيس بطرابلس، واغتيل الكثيرون في الخارج كالمذيع والصحفي محمد مصطفى رمضان، والمحامي محمود نافع في لندن، والدبلوماسي عمران المهدوي في بون، ورجل الأعمال عبدالجليل عارف في روما.

ولم يعد مناسبا - بطبيعة الحال لإدارة السجن أن يظل شخص واحد يحتل زنزانة كاملة بمفرده، فهذا نرف لم يعد الوضع الجديد يسمح بتبريره.

وبعد أحد عشر عاما من الحبس الانفرادي ، تم نقلي فجأة في شهر أغسطس من ذلك العام إلى زنزانة أخرى مساحتها 4 x 5 أمتار، ولكن يتواجد بها (15) خمسة عشر سجينا،، كلهم محكومون بالإعدام، في قسم خاص بالمحكومين بالإعدام، وهو القسم الأول، وكان رفاقي الجدد حديثي العهد بالسجن بالنسبة لي، بعضهم مدنيون من الأحزاب السياسية، من بينهم (الأستاذ الحقوقي فريد أشرف حسين، والطالب الجامعي مبروك الزول)، وبعضهم الأخر عسكريون متهمون بالتآمر، من بينهم : الرائدان السابقان بالجيش (أحمد الزبير السنوسي وعمر الحريرى).

وكان وضعنا في غاية السوء، فعددنا كبير والمساحة ضيقة وسرر النوم مكونة من ثلاثة طوابق فوق بعضها البعض، وليس ثمة من مجال يكفي للحركة، والباب مغلق ليلا ونهارا، والكوى لا تكفي للتهوية، ولا يوجد سوى مرحاض واحد صغير به صنبور الماء الوحيد للشرب وللأغراض الأخرى، ولذلك كان المرحاض يظل مشغولا على مدى أربع وعشرون ساعة في اليوم، حتى يتمكن هذا العدد الكبير من قضاء الحاجة أو غسل الصحون أو تنظيف أجسامهم أو غسل ملابسهم التي لا يجدون أين ينشرونها حتى تجف.. كان وضعنا - في الواقع - لا يطاق، وقد خلق لنا مشاكل عديدة من الخصومات والنزاعات التي لا تنتهي، وصلت في بعض الأحيان إلى حد العراك

والاشتباك بالأيدي، وكنت أشعر بالضيق والحزن والألم مما أسمع وأرى، وتصبح أعصابي مشدودة إلى آخرها.. ولكنني عندما أتذكر فترة الحبس الانفرادي وقسوتها التي كادت تفقدني عقلي، أحمد الله، وتبدأ أعصابي بالهدوء، ونفسي بالسكينة، وأرضى بما أنا فيه، فأنا ـ على الأقل ـ وسط حشد من البشر مهما دفعتهم الظروف القاسية إلى مثل تلك التصرفات التي تدعو للرثاء، وقد منحني هذا رادعا قويا للاحتفاظ باتزاني، مما جعلني مؤهلا لكي أكون حكماً في ما كان ينشأ بينهم من نزاعات.

ومن المضحك المبكي ما أتذكره الآن، حين خصصنا مساحة صغيرة داخل الزنزانة من أجل أن نصلي فيها، ونتناول فيها الطعام، ولكن عندما يتشاجر الاثنان لا يجدان مكانا صالحا للعراك غير تلك المساحة الصغيرة، لذلك أطلقنا عليها اسم (مطعم ومسجد وحلبة ملاكمة !).

******

الحلقـــة الثـــامنـــة:

أشعر الآن بأنني قد أطلت الكتابة، بما يزيد على حجم مذكرة مهمتها أن تشمل الأحداث بصفة عامة، فأنا ـ في الواقع ـ لا أؤلف كتابا، وإنما أسجل مذكرة فحسب، لذلك سأكون مضطرا منذ الآن للاختصار، حتى أصل بسرعة إلى نهاية هذه المذكرة، وبنفس السرعة سأمرّ على بقية سنوات الحبس الجماعي وهي السنوات السبع (العجاف) الأخيرة من حياتي داخل سجن الحصان الأسود، حتى أعطي صورة (بانورامية) إلى حد ما تساعدني على اختصار تلك الفترة من الحبس الجماعي التي تمتد بين عامي (81 ـ 88) فإنه يتعين عليّ أن أقول بشيء من الاختصار وببعض التوضيح، بان الوضع الذي حاولت شرحه منذ قليل ووجدت نفسي فيه منذ اليوم الأول لانتقالي إلى الحبس الجماعي، أن ذلك الوضع السيء لم يتغير منه شيئا على الإطلاق على مدى سبع سنوات كاملة، بل إنه لمن الصدق أن أقول أنه كان يزداد سوءا يوما بعد يوم، كما أن الإهمال المقصود وعدم الاهتمام بوضعنا البائس،، بل عدم الاكتراث بأرواحنا ، كانت كلها تزداد بنفس الوتيرة من البطانية التي تقينا البرد الشتاء إلى حبة الدواء ورغيف الخبز الذي يرد عنا غائلة الجوع.

و منذ منتصف عام 1984 م. تزامنت علينا عدة كوارث في وقت واحد، فقد أطلق العنان " للجان الثورية " التي شكلها القذافي خصوصا للتنكيل بخصومه ومعارضيه، أطلق لها العنان لكي تعتقل وتعذب وتقتل من تشاء، وكما تشاء، دون أن يحاسبها أحد، أو يقف في طريقها أحد، لأنها تتلقى أوامرها من القذافي مباشرة وشرعيتها هي شرعية الثورة التي لا يعرف أحد لها أي معنى أو قيود أو حدود.

كانت الكوارث الرئيسية ثلاث وهي:

الجوع والمرض وعمليات تنفيذ أحكام الإعدام في البعض منا، وقد مرت علينا فترة مجاعة قاسية، لمدة ثلاث سنوات بين عامي 84 ـ 87 م. وقد أطلقنا عليها اسم (سنوات المجاعة) كان الهدف من تجويعنا هو إجبارنا على تقديم طلبات استرحام وإعلان التوبة إلى العقيد القذافي، بقصد إذلالنا وإهانتنا وتحطيم كرامتنا، وقد عرضت علينا بالفعل نماذج مكتوبة من طلبات جاهزة للتوقيع، غير أن معظمنا رفضها رفضا باتا، وكنت من بين الذين رفضوا بشدة، لأن ذلك بمثابة اعتراف بجريمة ـ في نظرهم هم على الأقل ـ لأنه لا يوجد عندهم في ملفات التحقيق أو غيرها بالنسبة لي ـ رغم التعذيب والعذاب ـ أي دليل مادي أو قول يدل على اعترافي بالتهمة التي وجهت لي.

المقدم آدم الحواز وزير الدفاع السابق

النقيب عمر الواحدي

الأستاذ الجامعي عمرو النّامي

محمد هلال

عبدالله المسلاتي

حسن الكردي

فتح الله العريبي

السيد أحمد عون

صادق الشلادي ،، وكثيرون غيرهم...

وانتشرت رائحة الموت في كل مكان من السجن، وتحوّل سجن الحصان الأسود إلى مقبرة حقيقية من الداخل، وإلى معتقل رهيب من الخارج يشبه إلى حد بعيد معتقل (العقيلة) الشهير الذي أقامه الجنرال " غراسياني " الفاشستي ، لإبادة الشعب الليبي إبان الاستعمار الإيطالي لليبيا.

بالنسبة لي فإن حالتي الصحية في تلك السنوات قد بدأت تتدهور بالتدريج، وخاصة بسبب قرحة المعدة التي أصبت بها بعد الإضراب عن الطعام، إذ لم أجد الغذاء المناسب للقرحة، ولا الرعاية الطبية، ولا الدواء. وفي السنوات الأخيرة ساءت صحتي إلى حد صرت معه لا أستطيع النهوض بمفردي في بعض الأحيان،، وفي وقت من الأوقات من السنة الأخيرة على التحديد، شعرت بأنني لا يمكن أن أخرج حيا من سجن الحصان الأسود، وبأنني سوف ألحق برفاقي الآخرين إلى العالم الآخر عما قريب... غير أن الأمور جرت على نحو آخر،، إذ تم إطلاق سراحي قبل أن تنتهي تلك السنة التي قدرت فيها نهايتي.

البــلاغ بإطــلاق ســراحي من السجـن:-

في السنتين الأخيرتين أي في عامي 86 - 87 م. تعرض نظام القذافي نتيجة التصرفات الطائشة وممارسة الإرهاب الدولي و السلوك الذي يتنافى مع القوانين والأعراف الدولية، تعرض إلى نكسات عنيفة و هزات قوية كادت تطيح به وبنظامه، وأصبح وضعه السياسي في غاية السوء.. سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

وهناك ثلاثة أسباب رئيسية أو مباشرة في اعتقادي، أوصلت العقيد القذافي إلى تلك الحالة المتردية، وجعلته مأزوما إلى حد الاختناق،، وتلك الأسباب الثلاثة هي :-

1- الغارة الأمريكية على مدينتي طرابلس وبنغازي في أبريل من عام 1986 م. حيث أودت بحياة العشرات من الضحايا الليبيين الأبرياء.

2- الهزيمة العسكرية المخزية في تشاد في مارس من عام 1987 م. أمام خصم ضعيف وفقير ومسالم، ومُعتدى عليه في نفس الوقت.

3- السّخط الشعبي والتذمر العام الذي انتشر بين أوساط الشعب الليبي، وكذلك بين جنود وضباط الجيش بسبب ضحايا الغارة الأمريكية، والهزيمة العسكرية المخجلة في تشاد مصحوبة بآلاف القتلى و الأسرى.

و قد حمّل الشعب الليبي العقيد القذافي مسؤولية الخسائر البشرية والمادية والمعنوية في الحالتين، وخوفا من القذافي من أن يتطور السخط الشعبي والتذمر العام إلى انتفاضة شعبية أو عسكرية تقوض نظام حكمه، فقد أسرع قبل أن ينفلت الزمام من بين يديه، وذلك باتخاذ بعض الخطوات التكتيكية التي تسمح له بالتقاط أنفاسه، وإحكام قبضته على مقاليد الأمور من جديد.

وكان إطلاق سراح بعض المساجين السياسيين إحدى تلك الخطوات التي أعلن العقيد القذافي يوم 2 مارس 1988 م. عبر الإذاعة والتلفزيون بأنه قرر الإفراج عن حوالي أربع مائة سجين، أمضى معظمهم في السجن أكثر من عشر سنوات.

الحلقة التاسعة والأخيرة:-

حاشيــه :-

(عدد المساجين السياسيين في ليبيا غير معروف على وجه الدقة، ولعل أقرب التقديرات إلى الصحة أن عددهم يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف سجين سياسي ...)

قبل أن يعلن العقيد القذافي نبأ الإفراج عن بعض السجناء بثلاثة أيام، وبالتحديد في مساء يوم 1988/2/28 م. ، تم استدعائي فجأة إلى إدارة السجن، لأول مرة، وآخرها أيضا.. دون أن أعلم شيئا، رافقني حارس واحد غير مسلح - على غير العادة - إلى مكتب آمر السجن الرائد « مبارك أكسوه» الذي لم أره من قبل إطلاقا، وهناك عرفت كل شيء ،،، ولا أجد الآن الوقت للحديث عن مشاعري، وعن بعض التفاصيل الأخرى خوفا من الإطالة.

لقد وجدت أمامي خمسة من ضباط الجيش، ثلاثة منهم يشكلون لجنة عسكرية للإشراف على إطلاق سراح السجناء الذين تقرر الإفراج عنهم،،، واثنان من ضباط المخابرات لإعداد الملفات وإجراءات التوثيق الأمنية.

وأبلغتني اللجنة العسكرية المكونة من المقدم خليفة حنيش القذافي "رئيسا " والعقيد خيري خالد "عضوا " والمقدم عبدالله السنوسي المقرحي "عضوا " ، أبلغوني بأنه تقرر الإفراج عني، وبأنه سيتم إطلاق سراحي من السجن بعد أربعة أيام، حين تنتهي جميع الإجراءات الضرورية - ولم تكن تلك الاجراءات الضرورية في الواقع - غير إجراءات تخص الأجهزة الأمنية المتعددة.

ثم نقلت إلى قسم آخر، والتقيت فيه مع الذين تقرر الإفراج عنهم.

في فترة انتظار الخروج من السجن، أرسل في طلبي « خليفه حنيش » وعرض عليّ أن استعمل هاتف المكتب لأزف إلى أهلي نبأ الإفراج عني لكي تسعد الأسرة بالنبأ المفرح، والغير مُتوقع حقيقة،،، فقلت له:

إن مدة ثمانية عشر عاما ونيّف تفصلني الآن عن أهلي الذين لم يكن لديهم هاتف بمنزلنا عندما تركتهم، علاوة على أنني لم أرهم، أو أتواصل معهم منذ إيداعي في السجن، ولا أدري إن كانوا أحياء أم أمواتا؟ ،، و لا أعرف إن كان من بقي منهم موجودا في ليبيا أو لا.....؟؟!.

وقبل خروجنا من السجن فرضوا علينا (تعهدا) مكتوبا، نتعهد فيه بعدم المساس بالثورة، أو القيام بأي عمل من شأنه الإخلال بأمنها أو استقرارها، وإلا فعلينا تحمل مسئولية عملنا.

وكلمات أو عبارات " المساس بالثورة " أو " القيام بأي عمل " هي عبارات غير مقننة أو محددة، بل هي كلمات وعبارات مفتوحة تقبل أن تندرج تحتها أية تهمة، وفي أي وقت،، ويمكن أن توجه تهمة ضدك ولو لمجرد كراهيتك للون الأخضر الذي اختاره القذافي شعارا له.

كما وجه المقدم « خليفة حنيش » وهو ابن عم العقيد القذافى وآمر لإحدى كتائب أمنه، وجه تحذيرا خاصا للعسكريين من أصحاب الأحكام المرتفعة (مؤبد أو إعدام)، وذلك في اجتماع خاص بنا، وبحضور كل من: العقيد خيري خالد، وهو شقيق زوجة العقيد القذافي الأولى، و آمر الشرطة العسكرية، والمقدم عبدالله السنوسي المقرحي، وهو عديل القذافي و أمين سره، ورئيس جهاز المخابرات.

وقد حذرنا المقدم خليفه حنيش في هذا الاجتماع ـ مرة واحدة ـ من مغبة المساس بالثورة، أو الإخلال بأمنها واستقرارها، وذلك بعد مقدمة طويلة منّ علينا فيها بالإفراج عنا، وبإخراجنا من السجن الذي لا يستحقه البعض ـ أي أن البعض لا يستحقون الخروج من السجن ـ .. ونظر نحوي، وفهمت بأنني واحد من الذين يعنيهم .!.

وبعده انتقل إلى صيغة أو لهجة أخرى تشبه الترغيب بأنهم يتوقعون منا أن نكون جنودا مخلصين للثورة، وحتى نثبت هذا الإخلاص علينا أن نقوم بالتبليغ عن اي سيء يكون فيه خطر على الثورة.

وفي حالة اتصال أي شخص يكون معاديا للثورة، علينا أن نقوم بالتبليغ عنه فورا، وإلا تم اعتبارنا شركاء له في جريمة.. سواء وافقناه أم لم نوافق.

وأشار المقدم حنيش في حديثه إلى تعدد الأجهزة الأمنية التي تقوم بحماية الثورة، وأوضح بعبارات صريحة: بأنه ربما يقوم أحد باختباركم للتأكد من مدى صدقه وإخلاصه ،،، وإلا فلا يلوم أحدا إلا نفسه.

قبل أن أخرج من السجن بساعات، أدركت بأنني إنما أخرج من سجن صغير ضيق، إلى سجن كبير واسع،، هذا هو الفرق وهذا كل ما في الأمر، طفقت أفكر في الأمر الجديد الذي سأجد فيه نفسي.. فكيف سأتعامل معه؟.. وكيف سأعيش آمنا فيما تبقى من عمري ؟ !!!.. وكيف سأحتفظ بكرامتي، ولا أتحوّل إلى (مخبر) لنظام القذافي الاستبدادي على أبناء وطني، أو أعود للسجن من جديد ؟ !!.

أجل، كيف .. و ألف كيف؟..
ولكن كل تلك الأسئلة راحت تتلاشى تحت ضغط الألم البدني، فقد كانت صحتي السيئة لا تسمح لي ـ إذ ذاك ـ بالتفكير في أي شيء سواها.

يــوم الفقـــدان : (يوم الخروج من السجن)

ما من شيء يمكن تعاطيه وقت الخروج غير الهمس المخنوق في بلد تُصلب فيه الكلمات الحرة فوق الشفاه، فعند منتصف النهار اختلط الحابل بالنابل،، حيث فتحت الأبواب الحديدية فجأة، وأخذت تقذف بالسجناء المفرج عنهم إلى الساحة، حيث تدفقت حولهم - في اضطراب وفوضى - الجموع التي كانت في انتظارهم من الأهل والأقارب والأصدقاء، من كل مكان جاءوا... ومن كل الأعمار كانوا،، شيوخ ورجال وشباب ... نساء وصبايا وأطفال، يحملون على أجسادهم مشاق السفر، وفي عيونهم أشواق السنين المترعة بالحزن والألم والانتظار الطويل،،

في حين خرج المساجين كمن يخرج من مقبرة حقيقية مسكونة بالموت و الوحشة... وجوههم كتب مفتوحة تقرأ في سطورها آثار العسف والتعذيب والعذاب، وسنوات القهر والحرمان والانتظار الطويلة ،، الطـــويلة...

بعضهم دخلوا السجن شبابا وخرجوا كهولا،،، امتصت الجدران الرطبة رحيق أعمارهم.

كان يوما حافلا بالأسى على نحو ليس إلى تصويره من سبيل.. وكانت السماء تسحّ أمطارها فوق الجميع، فاختلطت دموع البشر بدموع السماء، وليس في مقدور أحد أن يرسم ذلك المشهد المثير، وذلك اللقاء المشحون بالعواطف الجياشة..

العيون المدرّبة فقط وحدها استطاعت أن تلتقط من هذا الحشد الهائل حجم المأساة بكل ذاك العدد الذي غيّبته السراديب وأقبية التعذيب الرهيبة عبر سنوات وسنوات.

غير أن ما يدعو للأسى حقا هو أن دموع الحزن كانت أكثر من الفرح،، لأن الذين فُقدوا كانوا أكثر من الذين وُجدوا...!.

وكان خليقا بمن شهد ذلك اليوم المشهود ،،والمعبأ بالحزن والقتامة، ،،،

أن يسميه: ((يــوم الفقــدان)) !!!.

وهناك.... في السّاحة : التقيت بعد سبعة عشر عاما، وأربعة أشهر، وأربعة عشر يوما بالمقدم «موسى أحمد » الذي كان بجانبي بالزنزانة وعلى بعد خطوات، ولم أره ولم يرني طيلة تلك المدة،،، لقد طلب زيارتي ونحن بالسجن عدة مرات، وطلبت أنا زيارته كذلك، ولكنهم رفضوا... طيلة سبعة عشر عاما.. بأيامها و لياليها.. بأحزانها وعذاباتها ومآسيها..

و عندما التقينا لم أكد أراه، أو يراني من فيض الدموع..

وسألني بدهشة بعد لحظات،، ولكن أين الحواز..؟ وأين الواحدي..؟ فأشفقت عليه في يوم مكفهر مثل ذاك اليوم، لا يمثل سوى الفجيعة لكل من فقدوا أحباءهم وأعزاءهم ، فلم أشأ أن أخبره باستشهادهما، وإعدامهما سرا، بعد أحداث (العزيزية) يوم 8 مايو 1984، مع آخرين أعدموا ممن ذكرت جزءا منهم فيما سبق، ولكنه لاحظ فيما بعد تهرّبي من(جلال) ابن« آدم الحواز» الذي كان يلاحقني و يمطرني بالأسئلة عن أبيه عندما لم يجده بالساحة....!!.

كان يوما حزينا دامعا.. وكانت السماء فيه ما انفكّت تسحّ أمطارها فوق الجميع،، فامتزجت دموعنا بدموع السماء..!

الخـــروج من السجـــن:-

حين خرجت من سجن الحصان الأسود يوم 3 مارس 1988 م. كانت صحتي في غاية السوء،،، خرجت ضعيفا شاحبا، وممتقع اللون، وغير قادر على الحركة بصورة طبيعية، بل أنني خرجت مجرد (جلد على عظم)، كما عرفت فيما بعد بأن أحد الزوار قد وصفني بهذا الوصف بعد أن رآني على تلك الحالة، وكانت ملامحي مشوهة وممسوخة بحيث تعذّر على الكثيرين معرفتي... ويكفي للدلالة على حالتي حينذاك أن أختي التي انتظرت بصبر نافذ بعد وصولي إلى البيت بقليل، ثم أنها اندفعت لتسلم عليّ وهي تنتحب وسط الرجال خلافا لعادتنا وتقاليدنا، بأن يسلم الرجال أولا وبعد ذلك النساء، ولما سألتها النسوة جلية الأمر عند نحيبها، قالت بأنها سلمت على رجل، ولكنها لا تعتقد بأنه أخوها،، ربما يكون فيه بعض الشبه فقط..! بينما أجاب أخي حين سألوه رأيه عني في اليوم التالي قائلا: " لم تبق منه غير الذاكرة "... في حين رضيت والدتي التي كانت تناهز السبعين من عمرها، والمدرّبة على الانصياع للقضاء والقدر، لمجرد خروجي حيا، إذ كانت تعتبرني ميتا منذ سنوات.

وفي حديث خاص مع أحد أقربائي بعد خروجي بعدة أيام الذي صارحني القول بأنني لو بقيت في السجن شهرا واحدا لقضيت نحبي.

إذن كيف بقيت على قيد الحياة ونجوت من مكبّ الموت الشهير (بالحصان الأسود)؟.. أنا نفسي أستغرب كيف بقيت حيا،،، لقد سألني الكثيرون هذا السؤال بعد خروجي من السجن: - لماذا بقيت حيا بينما أعدم الكثيرون من زملائك أو انتحروا، أو ماتوا بسبب الأمراض والأوضاع السيئة والإهمال المتعمد..؟؟.

فقلت لهم:- أن الإجابة ليست عندي فيما يتعلق بعدم تنفيذ الإعدام وإنما عندهم.. عند السلطات الحاكمة ربما لأنهم يدركون بأنه لم يثبت عليّ شيء يدينني، وبالتالي أرادوا التخلص مني بهذه الطريقة البشعة، أقول ربما لأنني لست على يقين من مقاصدهم ونواياهم السيئة نحوي، كما أن هذا لا يعني بأن زملائي كانوا مذنبين، ولذا فإني أعتقد أنه من الحكمة أن أقول:

لا أعرف لهذا السؤال إجابة محددة،،، الذي أعرفه فقط : هو أن نصف عمري ضاع في السجن،،، معمّدا بالحزن والألم والعذاب و الد موع.

خرجت من السجن لتوّي بعد أن كتبت لي الحياة من جديد... وبسبب تأثري بطول المدة والانعزال الطويل بالسجن، والانقطاع الكامل عن الدنيا في الخارج ومن فيها، فقد كنت كمن يسافر جوا من قارة إلى قارات بعيدة، فيصاب بما يسمى باضطراب الرحلات الطويلة (jet Lag) فتختل ساعته البيولوجية وتضطرب وظائف النوم فيتأثر الإدراك، يحتاج معها لمدة سكون وراحة كي يستعيد قدراته للتكيف مع وضعه الجديد، وذلك ما جعلني ألتفت إلى أقربائي حين احتوتنا السيارة " وسألتهم : إلى أين نحن ذاهبون ..؟ فانفجروا جميعا ضاحكين.. ثم صمتوا فجأة، و خيّم عليهم الوجوم طوال الطريق. و أظن أني لا ألام في ذلك، فقد انسلخ ما يقرب من نصف عمري في السجن، وخرجت منه نحيفا هزيلا شاحب اللون...

وبينما كانت السيارة تلهب ظهر الطريق، كنت لا أفتأ أنظر إلى كل اتجاه مثل طفل صغير، وأنا لا أدري إن كانت السيارة تسير على الطريق أم تطير في الهواء.. وفي لحظة ما خيّل إليّ أن العالم واسع إلى حدود تفوق التصور.. مما جعلني أتعجب من أن أحلامي في السنوات الاخيرة باتت لا تغادر أسوار السجن!!

و حين اقتربنا من منزل أسرتي الواقع في أطراف القرية.. انثالت في أعماقي أطياف الحنين والذكرى،، ثم أخذتني الدهشة وأنا أنظر إلى المواقع التي عشت فيها سنوات طفولتي وصباي، و جزءا من شبابي، وكأني أراها لأول مرة في حياتي.. و على نحو غامض داهمني شعور جارف بحب الأرض والوطن،، لكنني حين أبصرت الناس الذين ينتظروننا أمام البيت، حاولت جاهدا أن أتصامد كيما أزمّ فيض العبرات المتحفز للاندفاع.

في صباح اليوم التالي مباشرة، أخذتني الدهشة مرة أخرى من منظر الشروق الرائع.. وسمحت للدموع كيما تهبط برفق فوق أعشاب الربيع الأخضر الندية التي حرمت من رؤيتها منذ زمن ما عاد يذكره أحد،، رغم أنني تظاهرت أمام الآخرين بأن ذلك إنما حدث بتأثير أشعة الشمس..!

في تلك الأيام تحول بيت الأسرة إلى عرس ومأتم في وقت واحد،، العرس من أجل الذين خرجوا من السجن، والمأتم من أجل الذين شُيعوا نحو المدافن أو من ظلوا في غيهب الظلمة.

الخـروج من ليبيـا وطلب اللجـوء السيـاسي :-

لقد مكثت في ليبيا بعد خروجي من السجن ستة أشهر فقط (من مارس وحتى سبتمبر) قضيت معظمها في التنقل بين المستشفيات في كل من مدن: البيضاء، ودرنه ، وبنغـازي، ومع تلقي العلاج تحسنت صحتي إلى حد ما مقارنة بما كانت عليه، ونصحتني بعض التقارير الطبية بالذهاب إلى الخارج لعدم وجود الأجهزة والمعدات الطبية المتقدمة في المستشفيات الليبية،،،، فغادرت ليبيا يوم 1988/9/14...

وفي شهر يناير 1989 م، تم قمع مظاهرة سلمية بالمدينة الرياضية بمدينة طرابلس بصورة وحشية، وقد تناقلتها الوكالات العالمية ووسائل الإعلام في حينها، حيث سقط خلالها العديد من الضحايا، وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أشهر أي في شهر أبريل من نفس العام (89 م) شن القذافي حملة أخرى من الاعتقالات وسط أجواء من الإرهاب والتخويف في معظم المدن الليبية، وما زالت الاعتقالات متواصلة بشكل أو بآخر في ليبيا حتى اليوم، وخير شاهد عليها تقارير المنظمات الإنسانية المعنية بحقوق الإنسان كالرابطة الليبية لحقوق الإنسان، والمنظمة العربية لحقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية.

وخلال وجودي باليونان تأكد لي بما لا يدع مجالا للشك، بأن القذافي قد تراجع عن خطواته القليلة التي اتخذها في مارس 1988 م، وتنصل من جميع وعوده التي قطعها على نفسه أثناء وبعد خروجنا من السجن بالانفتاح وإطلاق الحريات، وحنث بكل عهوده وتعهداته الموثقة في الإعلان الذي أطلق عليه اسم: (الوثيقة الخضراء لحقوق الانسان) الصادر بمدينة البيضاء في شهر يونيو من العام 1988 م، وبالتالي فإنني لن أكون آمنا على نفسي من أجهزة القمع القذافية إذا ما رجعت إلى ليبيا، فإذا أضفنا إلى ذلك تحذيرات وتهديدات ابن عمه (خليفه حنيش) قبل مغادرتنا السجن، أصبحت العودة إلى ليبيا بالنسبة لي تشكل خطرا حقيقيا ـ لا شك فيه ـ على حياتي.

لم يكن أمامي من مفر سوى تحطيم جسور العودة إلى وطني طالما بقي نظام القذافي الدكتاتوري قائما في ليبيا، كما لم يكن أمامي بدّ من طلب اللجوء السياسي

في البلد الذي أتواجد فيه، ولهذا تقدمت رسميا إلى السلطات اليونانية طالبا حق اللجوء السياسي في اليونان.

وما زلت في انتظار الرد الرسمي من السلطات اليونانية على ذلك الطلب حتى اليوم، وهو تاريخ إنهاء كتابة هذه المذكرة.

عبد الو نيس محمود سعيد الحاسي

أثينـــا في 27 سبتمبر 1992 م.

****

بنهاية الصفحة الماضية ، فقد انتهت مذكرات «عبد الونيس» التي نقلتها مما كتبه في سبتمبر سنة 1992 م، وقد حرصت على نسخها كما كتبها بالحرف والشكل والترتيب، لم أغير فيها شيئا، ولم أشأ أن يطرأ عليها أي تعديل.

كانت تلك المذكرة هي إحدى المستندات الهامة التي تقدم بها للهيئة اليونانية المختصة بالنظر في طلبه الحصول على حق اللجوء السياسي، وقد دأب بعد ذلك على مواصلة كل الجهود وبدون كلل أو ملل، حتى اقتنعت السلطات المختصة بعد ذلك بحقه في الحصول عليه بعد تقديم تلك المذكرة ومرفقاتها.

ومن المشاهد المثيرة أيضا لمشاعر الأسى والتي سُجلت يوم الخروج من سجن الحصان الأسود، ما أتى به وصف تلك اللحظات من السيد «عمر المختار الوافي» أحد ضحايا ذلك السجن الرهيب لمدة خمس عشرة سنة، حسب ما صوره في الحلقة الأخيره من سلسة حلقات نشرها بتتابع على الموقع الاكتروني « ليبيا المستقبل» سماها (بين الألم والأمل)،،، يقول فيما كتب وصفا للحظات الخروج من السجن:

(وحدثت مشاهد مؤسفة حين حضر من أهالي المسجونين الذين تمت تصفيتهم خلال السنين الماضية ولم يجد قريبه، صار الكثيرون يسألون رفاقهم أين فلان ؟ ولا يقوى أحد على الجواب... كما حضر للسجن جيران أحد السجناء للسؤال عنه وأخذه معهم، وحين سأل عن أهله أبلغله الجيران بأن أهله فارقوا الحياة جميعا في غيبته الطويلة.

العناق والبكاء والفرحة والحزن والاستبشار والتجهّم والشرود والأسئلة الصعبة (وين فلان، وين علان، ماسمعتش عنه شي حي والا ميت) أصعب سؤال خاصة وأنت تعرف أنه فارق الحياة من سنين...

الجميل أن شابا يافعا جاء يسأل عن أحد المساجين،،، وحين قدموه له أخذ يعانقه ويقبله والدموع تنهمر من عينيه قائلا له: ألا تعرفني يأبي أنا أبنك،،،، حين اعتقل والده كان طفلا صغيرا ولم ير أحدهما الآخر منذ ذلك الحين، منذ ثمانية عشر عاما !.)

،،،،،،،،،

يقول نيلسون مانديلا :

(إن العظمة في هذه الحياة ليست في التّعثّر، ولكن في القيام بعد كل مرة نتعثر فيها).

اللجوء السياسي ،، و حياة الاغتـراب

دعنا قبل البدء في تناول هذه المرحلة، ـ مرحلة الاغتراب واللجوء ـ أن ننقل هنا فيضا من الكلام الراقي، والمشاعر الرقيقة، ونبل الحب للوطن،،، ذاك الذي انساب به قلم عبد الونيس فيما كتبه عن نفسه مصوّراً اللحظة الفارقة التي استفتح بها مرحلة أخرى من عمره ناهزت الستة والعشرين عاما التالية لخروجه من السجن،،، وهي لحظة الإقلاع من مطار طرابلس عند الشروع في رحلة الاغتراب، ولحظة بداية المشوار في خطواته الأولى مع مسار الغربة.... وارتأى أن تكون الصيغة في كلامه منسوبة إلى شخص غائب ،،، فيقول على لسانه فيما كتب :

(ظل ينظر إلى الأرض الطيبة على نحو متواصل.. فيما كانت الطائرة ـ بعد إقلاعها بقليل ـ تحلق في أجواء المطار ماتزال.. هو ذا الوطن المغدور والمسجّى بين الرمال والرمال.. رمال البحر الأبيض ورمال الزيت الأسود.. فهو يغرق ويحترق في آن معا.

وما لبثت المرئيات أن أخذت تصغر وتتلاشى من العلو الشاهق،، وكان آخر ما شاهده ذوائب النخيل وهي تسبح في الفضاء الفسيح.. ومفاوز الصحراء وهي تنداح أمام البصر حتى تعانق الأفق،،، وتتأجج في أعماقه أطياف الذكرى والوداع والاغتراب الوشيك،، وتنفتح الجراح القديمة .. ويتدفق النزيف بغير ما انقطاع).

،،،،،،،،

وما إن حطت الطائرة في مطار الغربة، حتى بدأ الخطى على رصيف المنفى... في دولة (سويسرا) للعلاج، ولإيجاد الوسيلة المناسبة للهجرة الطويلة عن الوطن، والمخبأ الآمن من ملاحقة رجال النظام ومخبريه... لكن طبيعة المعيشة وغلاء الأسعار بتلك البلاد، شكلت صعوبات من بداية مشواره جعلت الإقامة الطويلة بها غير مناسبة بالمرة بالنظر إلى ظروفه المادية و إمكانياته شبه المعدومة، خاصة وأن احتياجه للعلاج الطبيعي لإعادة التأهيل لوظائف الأطراف في جسمه نتيجة لما طالها من تعذيب خلال فترات التحقيق وفي عذابات السجن، قد يحتاج إلى وقت طويل، وإلى مصاريف لم يكن في الواقع يملكها....

علاوة على أنه تلقى دعوة خلال وجوده هناك، من الدكتور « رافع التاجوري» يدعوه للانضمام للحركة الوطنية الليبية، وهي إحدى فصائل المعارضة التي تكونت في الخارج كشأن بعض الفصائل الأخرى التي ظهرت في تلك الآونة..

أساس الحركة الوطنية الليبية (بعثيّ) نسبة لحزب البعث المعروف، وهذه الحركة ذات توجه قومي، وقد ضمّت إليها قوميين، وبعثيين، ووطنيين ليبيين، وأمازيغ، وبالتالي فقد اعتبرها

«عبد الونيس» موائمة لمعتقداته السياسية، وهو الذي كان منتميا في الأساس، وقبل محنته، إلى حزب القوميين العرب كما عرفنا...

في هذا الشأن، وعلى الفور قام «الدكتور رافع التاجوري » بإبلاغ أمين الحركة الأستاذ «محمد السكّر» الذي كان حينذاك متواجدا بإسبانيا.

وسرعان ما تم الاتفاق على أن ينتقل «عبد الونيس» إلى أثينا، للاجتماع بأمين الحركة الذي سيحضر من اسبانيا في تاريخ محدد يلتقيان فيه هناك، فإذا توافقت وجهات النظر بينهما، فسيتم تثبيته في اليونان حسب احتياج الحركة له في السّاحة اليونانية.

وبعدها بمدة وجيزة، ارتحل إلى اليونان،، ومن مطار« أثينا الدولي » ركب سيارة التاكسي دون أن يتوجّس خيفة من أن يكون سائقها مخبرا...ونزل في قلب المدينة العريقة (أثينا) ،، حيث ميدان (سانداغما) ومبنى البرلمان، وقبر الجندي المجهول..

ويصف «عبد الونيس» لحظات وصوله هناك، بلسان الغائب مرة أخرى فيقول:

(شاهد الناس يطعمون الحمام وهو يحطّ على أيديهم آمنا... ورأى طفلة تتألق وتزرع البهجة في النفوس المتعبة،،، شاهد محلات الزهور وهي تعبق بالأريج، ثم مضى مع شارع الجامعة يتأمل ويفكر.. هناك تماثيل ونقوش وشرفات تتعانق فيها الزنابق والورود.

وقد مرّ بجانب الجامعة، أو بيت اليونان الوطني كما وصفها (كولوكوترونيس) منذ ما يقرب من مائتي عام.. وتذكر المواقف الجسورة للطلبة ضد النظام العسكري في اليونان في عهد مضى.

وقف ذاهلا ينظر إلى الحياة الضّاجة بالحركة والنشاط في شوارع أثينا،، وتداعت إلى ذهنه صور شتى للحياة الهامدة والصمت الرهيب و " المقولات" المحنّطة، والشوارع المدفونة تحت أكداس القمامة في مدينة طرابلس عندما غادرها،، مدينة طرابلس التي كانت تعرف بعروس البحر الأبيض قبل أن تجتاحها الرياح الهمجية..!!.

تجاوز المكتبة الوطنية، وشارع (أبوقراطس) ... وتسارعت خطاه هبوطا مع الشارع، واقترب من ميدان (أمونيا)... وفجأة توقف عند أحد الأكشاك، وتسمّرت عيناه على باقة مزدهرة بمسكات الشعر الملونة،،، فخطرت بباله ابنة أخيه «راجيه» الطفلة التي طالما تمنّت أن تحصل على مسّاكة شعر حمراء على هيئة فراشة رأتها يوما على رأس طفلة هندية رفقة والدتها العاملة في إحدى المستشفيات الليبية، ورغم إلحاح الطفلة البرينة على أهلها، وبكائها للحصول على مساكة مثل تلك التي أعجبتها، إلا أن أسواق بلادها لم توفرها للأسف ...!

والطفلة « راجية » هذه ولدت خلال وجود عمها «عبد الونيس» بالسجن، وقد كانت الأسرة في شوق وانتظار للغائب، لذلك ارتأت أن تسمي الطفلة باسم «راجية» كرمزية لانتظار رجوعه.

مدّ يده إلى مساكة حمراء وهّاجة الجناحين، ودفع ثمنها دونما سؤال، وبغير ما تردد.. تأملها بحنان وتحسسها برفق قبل أن يدسها في جيبه، وتراءى له حينذاك وجه «راجيه» في غبشة الغسق، وهي تبتسم وتبكي في آن معا..!

ظل واقفا لا يريم.. ينتظر، ولا ينتظر،، وشعر ببرودة المساء، وجف العرق البارد دبقًا على عنقه.. وتناهى إلى سمعه نغم قيثارة حزين، فاندفعت إلى الذاكرة ألحان الرعاة الحزينة على المزمار خلف القطيع، وأهازيج جزّ الأغنام.. و مواويل السّاهرين في الخلاء في ليالي الصيف.. وأشواق الحصّادين بالمناجل لأعناق السنابل.. و مواسم هطول الأمطار والفرح بالغيث.. وأغاني الحرث والبذار.. وغناوي (العلم) الدامعة على الدوام.. ومناجاة الأمهات الودودة للأحباب أثناء الطحن على الرّحى.. و رائحة أرغفة التنور.. وجدائل عراجين البلح.. وشذى أزاهير الشّيح والزعتر.. ومشاتل النعناع العابقة بالأريج.. ومواكب الأعراس.. وخيام العزاء.. و مراثي الجهاد.. وضحايا الحروب الخاسرة في أوغندا و تشاد.. و مشانق شهر رمضان بالمدن، وبالمدن الرياضية.. وحملات الاعتقال والقمع و الإرهاب.. ورفاق السجن بالحصان الأسود.. و زغاريد الرجوع.. و دموع الفراق .....؟!).

هذا المشهد التصويري الزاخر وضعنا فيه «عبد الونيس » عندما صوّر قلمه ببراعة ما كان يحس به في لحظات مغادرة الوطن، وما شدّه في اللحظات الأولى لمدّ خطواته مع بدء مشوار الاغتراب، فمن ألِف حياة اجتماعية ذات منشأ ريفي تأسست فيها العلاقة العائلية لخلية الأسرة بأقوى الأواصر وأقربها، وتتسع فيها العلاقات الاجتماعية مع باقي الأسر في الحيّز القروي بما يشبه الاندماج والتواصل اليومي المكثّف في كل الأحوال بأفراحها وأتراحها، ومن تواصلٍ مع الجيران، و مع أتراب العمر، وقرناء الدراسة، وزملاء العمل ،، ما يجعل المتربّي في هذه النشأة أسيرا لنستولوجيا اجتماعية قوية في كل أحواله، وعلى امتداد مراحل عمره، أينما كان وحيث ما حلّ، فإذا ما قُدّر لإنسان تأسست نشأته بهذه الكيفية، أن تنفيه الأيام في غلواء أحداثها وتقلبات ظروفها، لاجئا في مجتمع غريب عنه في اللغة والتركيبة الاجتماعية، وفي مكونات العرف، وطرق المعيشة، حيث لا يتوافق عنصر واحد من أساليب العيش فيه مع ما تربّى عليه واعتاد أن يعيشه،،، فإن التكيّف التام بينه وبين هذه المستجدات الحياتية، وخاصة الجانب الروحي يصبح مستحيلا، لأنه إن تصنّعها أصبحت معيبة، وإن ازدرد مرارة هذه المستجدات و حاول معايشتها جسديا وهي منبوذة فيه وجدانيا، فقد تدخله في جحيم ازدواج الشخصية .

فذاك الرجل الذي نما وترعرع في بيئة مفتوحة، و بعقلية تأسست على إطلاق حريات الفهم في الجهات الأربعة والاستيعاب والتفكير والكتابة ، وتطير بكل أجنحة الخيال، وتنهل من خصوبة الفكر المتجدد، صار مغتربا ووحيدا في بلاد لا يعرفها ولا يتكلم بلسان أهلها، تحاصره مضائق العيش الضّنك في محدودية اللجوء، مع هواجس الريبة والشك في كل من يلاقيه أو يحاول الاتصال به من بني وطنه، فأصبح كمن يُحبس في غرفة مقفلة والعدو يبحث عنه في الحجرات

الأخرى، فهو لا يخشى من أن يراه فقط، وإنما يكتم أنفاسه أيضا خشية أن يغلبه السّعال فينكشف مكانه !

لقد قلبت معطيات الظروف الإناء، وأصبحت آراؤه وثقافته ووسع مداركه مقصلةً يطارده بسببها شبح الموت، وما عليه اليوم سوى الهروب،، ثم الهروب، ولا يصحبه في ذاك الهروب سوى قراءة الوجع بكل التعابير، والشعور بالفقد واليتم الإجباري، والوحدة والعزلة.... كل هذا، من أجل أن يتنفس ليبقى حيا فقط،، و ما أصعب أن تكون الأنفاس محسوبة لاسترسال الحياة فينا.....؟!

أجبره الظلم في بلاده على الخروج منها، وأثار الاغتراب فيه لواعج الحنين للبلاد والأهل والأحبة والصحبة....

ومن قبله بعقود نظّم الشاعر« أحمد شوقي» من منفاه بالأندلس قصيدة طويلة تصف معاناة الغربة المكانية والزمانية، نختار منها مختصرا من أبيات متفرقة من القصيدة تقول :

اختلافُ النّهارِ والليل يُنْسي ... اذكُرَا لي الصّبَا و أيّامَ أُنسِي

و صِفَا لي مُلاوَةً * من شبابٍ ... صُوِّرَتْ من تصوّراتٍ و مَسّ

عَصَفَتْ كالصّبا اللّعُوبِ و مَرّتْ ... سِنَةٌ حلوةٌ و لذّة خِلسِ

كلما مَرّتْ الليالي عليه ... رقَّ، والعهد في الليالي تُقَسّي

أحَرامٌ على بَلابِلِهِ الدّوْ ... حُ حلالٌ للطيرمن كل جِنسِ؟

وطني لو شُغِلتُ بالخُلدِ عنهُ ... نازَعتْني إليه في الخُلدِ نفسي.

---

* مُلاوَةً تعني: فترة.

إن طبيعة الحياة التي عاشها بالمهجر، ووسائل معيشته خلال الفترة التي طواها الزمان في ربع قرن، بين تاريخ رحيله عن الوطن في (1988/9/14) ، وتاريخ رجوعه إليه في (2014/2/24) لم يصورها « عبد الونيس » بأيّ كيفية فيما سبق، إذ لم يشأ حتى تاريخ لقائنا، أن يودعها أسطر أية مذكرة، أو يطرحها للناس بأي صورة، كما لم يتطرق إلى تفاصيل أحداثها عندما كان مختبئاً في أقبية المباني المعتمة على أطراف مدينة أثينا مع أحد ،،، وهي بدون شك من أهم الفترات التي اجتاز فيها الكهولة عابرا أعتاب الشيخوخة، بمقتضيات حياة اللجوء في بلد غريب ، قبل وبعد حصوله على حق اللجوء السياسي .

وكان لزاما أن ألج في ذكرياته بكل تعاريجها في تلك الآونة، مستمعا إليه شخصيا فيما يرويه عنها، رغم زفرة قوية انثالت منه مع بداية التسجيل، لا أدري عما عبّرت به من مكنونات، لكنها كانت ملحوظة وبوضوح... ولسبب ما، اقتنعت بعدم سؤاله عن سببها ،، خشية أن يكون ردّه لي : أو لم يكن سببا واحدا مما عرفت وسمعت مني كافيا لمزيد من الزفرات...؟؟!.

أحسستُ أن الرجل قد فتح كهف المخزون - الذي لم يجتاحه الضوء من قبل مطلقا إلا في تلك المرة - عندما بدأ الحديث عن تلك الفترة المجهولة من السّيرة، ،، فذلك المفعم المليء بحب الوطن والمثقف الواعي، والضابط المرموق، والشخصية المنافسة للأتراب في مقتبل العمر، قد أصبح طريدا من نظام بلاده القمعي، و صار مخالفا لقانون دولة أجنبية مختبئاً فيها خلال السنوات الثلاث الأولى بدون إجراءات قانونية للإقامة.

كان ظرف التضييق الذي واجهه من البداية، أن تأشيرة العبور (Transit) التي دخل بموجبها إلى اليونان أجازت له مدة إقامة لا تزيد عن أربعة أيام فقط ، وعليه أن يغادر البلاد قبل انتهائها....!.

وعلى أية حال، فقد حضر أمين الحركة الوطنية الليبية « الأستاذ محمد السكر» من إسبانيا، و تقابل الرجلان حسب الاتفاق، وكان اللقاء في فندق متواضع لا يلفت النظر في أحد أحياء مدينة أثينا، وهناك في اليونان جدد الأستاذ « محمد السكّر » الحديث الذي ابتدأه الدكتور «رافع التاجوري » من قبل في شأن دعوته للانضمام للحركة، و تناقشا باستفاضة.

وفي النهاية أبدي «عبد الونيس » موافقته على الانضمام إليها ، على أن توكل إليه مهمتان في السّاحة اليونانية:

<u>الأولى</u> : مهمة إعلامية ضرورية تمارس بها الحركة نشاطها في اليونان، متمثلة في النشرات والمقالات، والإصدارات الدورية التي توضح ممارسات القمع من قبل النظام القائم ضد المواطن الليبي في وطنه، ووسائل التنكيل والعسف، وتكشف المستور عن تلك الفظائع التي كانت تجري في ظلمات السجون، والإعدامات السرية، وإعداد قوائم بأسماء من كان حينذاك لا يزال حيا بالسجون، أومن توفى، تمهيدا للتوثيق التاريخي اللازم بمنظمة حقوق الإنسان، علاوة على تحرير و إصدار مجلة وطنية للحركة تسمى (الطليعة) لتكون رسالتها بمثابة الإفصاح عن صوت الشعب الليبي المأزوم لنقل معاناته للرأي العام الخارجي، وقد كانت المجلة المذكورة تصدر سابقا في لندن، ولكن جابهتها بعض المشاكل المادية وظهورالاختلافات السياسية بين أفراد التنظيم... وعلى أية حال، فقد تغير مكان إصدارها إلى أثينا بدلا من لندن، وقد كانت تصدر بصفة دورية وتوزع بمحلات بيع الصحف في أثينا، بالإضافة إلى أرسال إصداراتها بالبريد إلى عناوين سكنى أفراد الجالية الليبية، وتتناول المواضيع المنشورة فيها معلومات وبيانات وافية ودقيقة تخص الممارسات الخاطئة للنظام الحاكم في ليبيا ، والتبذير والفساد في مقدرات وأموال الشعب الليبي التي كانت تصرف في كل الجهات دون رقيب أو حسيب، وأسرار المعارك الخاسرة والهزيمة النكراء للجيش الليبي في (تشاد)

بنار الأسلحة والمعدات الليبية التي سلمت لأطراف أخرى أدارت ظهرها وواجهت أبناءنا المعوزين ساعتها لقيادة رشيدة، فماتوا وتشردوا غدرا من جراء الفوضى والطيش وعدم تقدير المسئولية.

و الأعضاء الآتية اسماؤهم هم الذين تألفت منهم مجموعة التحرير لكل من مجلة الطليعة، وصوت المواطن الليبي في أثينا :

1 - زكري العزابي 2- عاشور الإمام

3- علي سالم شكيب 4 - عبد الونيس محمود 5- فوزي امنينه

وقد اضطلع السيد زكري العزابي بمهمة طباعة المجلة والنشرة الدورية في بيته.

وفي البداية شارك معهم في التحرير كل من السيد المحامي عمران بو ارويص، وزوجته السيدة نعيمه جبريل، وذلك في فترة ما قبل رجوعهما إلى ليبيا.

ومن العراق ساهم معهم أيضا كل من:

1- محمد أحمد السكّر 2- عمر الأبيض

3- المبروك الغنودي 4- خالد الغنودي

كما شارك معهم في التحرير وعلى فترات مختلفة كلّ من:

1- محمود دخيل من السّويد، أيضا كان يقوم بتحرير نشرة من السويد إسمها «المغترب الليبي»
2- عثمان العالم من ألمانيا 3 - مفتاح لملوم من بريطانيا.

4- عبدالحفيظ بن صريتي من أمريكا

وقد كانت مسئولية « عبد الونيس » فنية من حيث البحث والتحرير، وإدارية من حيث التعرف على عناوين سكنى أفراد الجالية، واتخاذ كل التدابير لإيصال إصدارات المجلة إليهم.

والمهمة الثانية: هي السّعي لاستقطاب المزيد من الأفراد والشخصيات الموثوق بولائها للوطن للانضمام للحركة.

و قد تزامن ظهور الحركة الوطنية الليبية مع فصائل المعارضة الأخرى المتواجدة بالخارج في ذلك الوقت، ولكنها كانت تختلف عن غيرها بالتأني والتدقيق في شأن من يرغب في الانتساب أليها، ولا تتسرع بقبول كل من يطلب الانضمام لكوادرها، إلا بعد فترة من الدراسة والمتابعة للشخص

وتاريخه، وكل ما يتعلق بماضيه وبما يدّعيه من النضال في المعارضة للنظام القائم ، إذ كان (الكمّ) والكثرة في عدد منتسبيها لا يهم الحركة الوطنية الليبية ، بقدر ما كانت حريصة على سلامة كوادرها من الأخطار، و ضمان عدم اختراقها من قبل الجواسيس وأعضاء مخابرات النظام الذين استطاعوا اختراق بعض فصائل المعارضة الأخرى بالفعل، ونتج عن ذلك سقوط ضحايا مغدورين للأسف، بجانب كشف الكثير من مستنداتها وجميع شئونها لأجهزة الأمن في ليبيا.

رجوعا إلى موضوع استقراره باليونان،،، فقد كان من بدايته عصيبا، إذ أن مدة تأشيرة العبور لا تؤهله بالبقاء لأكثر من أربعة أيام كما قلنا، وبمجرد انقضائها أصبح مخالفا لقوانين البلاد، فإذا ما تم ضبطه من السلطات المحلية فسيبعد فورا، ويتم ترحيله إلى البلد الذي يحمل جواز سفرها (ليبيا)، ولذاك السبب، فقد كان مضطرا للاختفاء عن أعين السلطة اليونانية أيضا، ومن سوء الطالع أيضا أن الحزب الحاكم حينذاك في اليونان، هو الحزب المسمى (الباسوك) الاشتراكي الذي كان يرأسه (أندرياس باباندريو)، كان مواليا للنظام في ليبيا باعتباره قد أمدّه بإمكانيات مادية هائلة حتى تمكن بالفوز على منافسيه، وقام بتشكيل الحكومة اليونانية.

و بالتالي فإن القبض على «عبد الونيس » سيفضي إلى تسليمه مباشرة من قبل النظام الموالي في اليونان إلى سلطات النظام في ليبيا، وذلك أمر حتمي قد يقع في أي لحظة إن تم العثور عليه. ..؟!

وهكذا،، وجد نفسه محاصرا بين جهتين، إذ عليه أن يكون في منتهى الحذر طيلة تلك المدة خوفا من أن يقع بين يدي الشرطة اليونانية المخالف لقوانين بلادها، أو أن تتمكن الأجهزة التابعة للنظام الليبي من الاهتداء إلى مكانه.

وتحسبا لخطورة وضعه، فقد اقتضى رأي الشباب المنتمين للحركة أن يبعدوه عن مدينة أثينا، ريثما يتم التدبير اللازم بإيجاد مكان آمن له في العاصمة، فنقلوه سرّا إلى بلدة صغيرة تسمى: (أنافسو) ليختبئ بمسكن أحد الليبيين هناك، ويدعى « علي محمد سالم الفيتورى » وهو رجل شهم لم يتردد في القيام بالواجب عند الحاجة، وقد كان متزوجا من امرأة يونانية وساكنا في تلك البلدة.

ورغم خطورة مسئولية تلك الأسرة بالمساءلة القانونية عن إخفائهم لأجنبي مخالف لقوانين ونظم الدولة، إلا أن كرمهم ورغبتهم في حمايته و إكرامه، تفوقت على الهواجس وكافة الاعتبارات المعيشية من حيث سعة البيت ومحدودية مصادر عيش الأسرة،،،

ومن الطبيعي أن تكون تلك الوضعية ومعطياتها قد سبّبت الكثير من الحرج لشخص مثل «عبد الونيس»، حين أضحى عبئا على الغير رغما عنه، وفي ظروف معيشية عصيبة. ورغم كرم الأسرة واحتفائها به ، إلا أن مساحة المساكن في أوروبا بصفة عامة مساحة ضيقة في الأساس، ومحدودة المرافق كالحمامات وغيرها، ضف إلى ذلك حالة المستوى المعيشي لرب

الأسرة التي تستضيفه وهو في الأساس مغترب أيضا، وبالتالي فقد كان على الضيف المتواجد بينهم على الدوام ،أن يحسب ألف حساب لكل حركة، أو خطوة يخطوها، أو أية كلمة يتفوه بها.

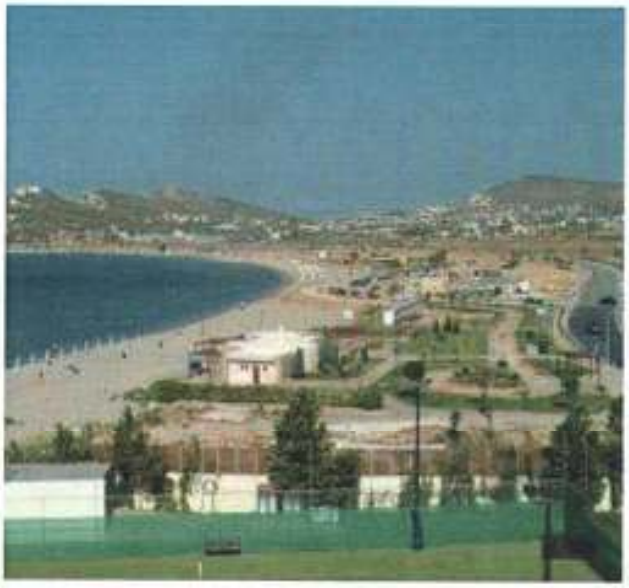

منظر عام لبلدة (أنافسو) التي يحتضنها الجبل، وتلامس رمال الشواطئ فيها مياه البحر الأبيض المتوسط.. و تبعد عن مدينة أثينا مسافة ستين كيلومتر نحو الجنوب الشرقي، وهي شبيهة بمدينة (درنه) الليبية إلى حدّ ما، مع افتقارها طبعا للشلال الشهير كأحد المعالم الرائعة بمدينة درنه، وأما النباتات الجبلية من حولها تطابق تماما أشجار غابة الجبل الأخضر، (البطوم والخروب والشمارى والكليل ، وتفاح الشاي والزعتر) وتعبق بنفس الروائح المنتشرة في جبالنا ... وفي هذه البلدة أختبأ «عبدالونيس» مدة شهرين ، من 26 يناير وحتى نهاية شهر مارس سنة 1989.

وقد كان شباب الحركة على اتصال به في منزل تلك الأسرة، إما بالهاتف، أو بالزيارات المباشرة، إلى أن تم تدبير مكان آمن له بعد ذلك بشهرين في العاصمة فانتقل إليه، ووجد نفسه مرة أخرى مختبئاً عن أعين الشرطة في أقبية المباني بمدينة (أثينا) بمساعدة الشباب الذين يعرفون أين تكون الأماكن الآمنة.

في حيّ فقير و مزدحم بمدينة " أثينا " يسمى حيّ (كبسيلي) وفيه أرخص الأماكن للإيجارات السكنية باعتباره منطقة سكن الفقراء ، وهو مكتظ بالسكان بكثافة عالية، ويُصنّف عالميا بأنه من الأماكن المكتظة جدا ، وكان أحد الأقبية بالمبنى رقم " 30 " بشارع (تينو) هو مخبأ «عبدالونيس » منذ تاريخ رجوعه من بلدة (أنافسو) حتي منتصف عام 1991م.

ثم انتقل بعد ذلك إلى قبو آخر في المبنى رقم " 71 " بشارع (كيركيراس) بنفس الحي الذي لم يغادره على الإطلاق حتى رجوعه ... وفي سنة 2001 بيع القبو لمالك جديد، فانتقل «عبدالونيس» إلى قبو آخر بنفس المبنى واستقر فيه طيلة المدة حتى تاريخ سفره راجعا إلى بلاده في 23فبراير 2014 ... وتظهرالصور الآتية صورة المبني ورقمه، ولافتة اسم الشارع الذي يقع فيه :

(وراء هذا الباب وهو مدخل المبنى رقم (71) إختبأ «عبدالونيس» زهاء ثلاث وعشرين سنة : من سنة 1991 وحتى سنة 2014 في أقبية هذا المبنى لا يخرج منه ولا يدخل إليه إلا خلسة تحسّبا لرصد ومتابعة أجهزة النظام في ليبيا له)

صورة شارع (كيركيراس) الذي يقع فيه المبنى رقم (71).

ΟΔΟΣ
ΚΕΡΚΥΡΑΣ
KERKYRAS
ΑΠΟ 67 → 75

وفي شهر أبريل 2017 حضر «عبدالونيس» في مهمة سريعة لليونان قادما من بلاده، فذهب لزيارة ذلك المبنى الذي اختبأ به زهاء ثلاث وعشرين سنة،،، وبالتالي تمكن - بعد تغيير الحال وتبدّل الظروف أن تُلتقط له هذه الصورة واقفا أمام باب ذات المبنى الذي كان يتحاشى طيلة ذلك الزمان المنصرم أن يظهر فيه للعلن ...!!!

(و تغيرت الظروف، وظهر صاحبنا سنة 2017 ليقف جهارا أمام باب ذلك المبنى !)

ورغم صعوبة تلك الظروف التي قاساها في المهجر، فإن شدّتها لم تحدّه عن القراءة ومواصلة الاطلاع طيلة الفترة، فقد كان كان حريصا على مداومة الاطلاع على مجلتين ثقافيتين هامتين وهما مجلة العربي الكويتية ، ومجلة (المختار) وهي عبارة عن نسخة مترجمة من المجلة ذائعة الصيت و ذات الأصل الأمريكي (Reader's digest) التي كانت قد توقفت فيما بعد عن الصدور تقريبا في أواسط التسعينات لصعوبات مالية.

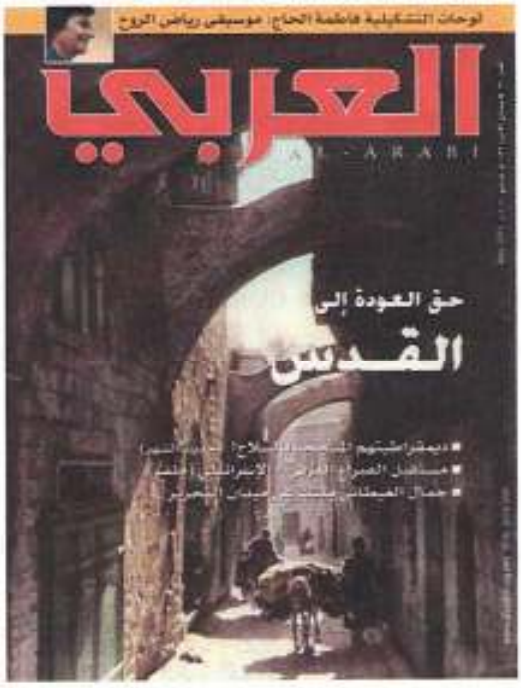

وفي المجلتين المذكورتين تمكّن ـ كما يقول ـ من زيادة رصيده الثقافي والمعرفي، نسبة لأهمية المواضيع والتحاليل التي كانت تنشر بهما.

ولقد انشغل من مخبئه حينذاك بأمرين:

الأول – المساهمة بالكتابة في مجلة الطليعة (صوت الحركة)، مع إصدار نشرة أخرى مكتوبة تسمى (المواطن الليبي) كما ذكرنا، وتصدران دوريا، ولكن تحديد زمان الإصدار لا ينتظم في كل الأحيان بسبب عدم توفر الإمكانيات في بعض الأوقات، مما قد يسبب الاحتجاب المؤقت.

الثاني ـ التواصل مع الرابطة الليبية لحقوق الإنسان،،، وبالتحديد مع الدكتور : «سليمان بو اشويقير » في سويسرا، ومع الدكتور «منصور الكيخيا» الأب الراعي والمؤسس للرابطة الليبية في أمريكا، حيث كانا يبعثان إليه قوائما بأسماء الأسرى الليبيين في سجون النظام لغرض أن يقوم بتحديد عددهم الصحيح ، والحصر والتدقيق فيمن خرج من السجن ، و فيمن توفى أو تم اغتياله سرا، أو من هو باق رهن الاعتقال... وذلك الإعداد والتدقيق الذي يقوم به تعتبره الرابطة هو أساس توثيق المعلومات التي تحال إلى منظمة العفو الدولية، والمعروفة دوليا باسم:

« Amnesty International ».

في تلك الأونة كان التواصل مع أي شخص ـ من أبناء الوطن أو من غيرهم ـ غير مأمون، إذ كان النظام في ليبيا يبحث عن معارضيه بالخارج ويرصد تحركاتهم، ويحاول بكل الوسائل أن يتعرف على أماكنهم، سواء بإرسال أعضاء الأمن والمخبرين، أو بأفواج أعضاء اللجان الثورية الذين يجوبون جميع الأقطار، وهم على استعداد تام لاغتيال أي ليبي يظنونه في المعارضة، بل واستطاع النظام أن يجند من رعايا الدول الأخرى ومن معظم الجنسيات مرتزقة ومخبرين يتجسسون عن الليبيين المتواجدين بالخارج، و تغريهم الأموال التي تدفع لهم بسخاء ليقوموا باغتيال من يؤمرون بقتله، علاوة على أن بعض الأحزاب والأنظمة الحاكمة في بعض الدول التي كانت في الأساس مُستمالة من النظام في ليبيا وأصبحت بالتالي موالية له، وعلى استعداد بمداهنته والتقرّب إليه بأكباش الفداء من الضحايا الليبيين المتواجدين على أراضيها، ويعرف الليبيون حالات عديدة ثبت فيها تواطؤ قادة بعض الدول بتسليم أفراد المعارضة المحتمين بأراضيهم بناء على طلب النظام...؟؟!

ذلك الحرص الشديد من الحركة، ومنه أيضا، جعل عدد الأشخاص المدعوين للانضمام إليها محدودا، وجعل التواصل مع الآخرين يتمّ في أضيق الحدود، ولم يستطع أحد من خارج المجموعة الضيقة من أعضاء الحركة، أن يعرف عنوان «عبد الونيس » أو رقم هاتفه، وإنما كان هو الذي يتواصل مع من يريد بطريقته الخاصة، دون أن يعرف الطرف الآخر مكانه أو عنوانه، لأن السّر في رأيه إذا تسرب لأكثر من اثنين فقد ذاع. وهو يعتبر أن سبب ضياع المناضل الدكتور« منصور الكيخيا » راجع لعدم اهتمامه بالجانب الأمني، حسب ما رواه له السادة : «مفتاح لملوم » و

«الدكتور عبدالحفيظ بن صريتى » و «محمد السكر»، الذين أجمعوا على أن «منصور الكيخيا » رحمه الله لم يكن يهتم بالجانب الأمني كما يجب ، فتمكن المتربّصون به من أن ينالوا منه.

ولقد قام الأستاذ « عاشور الإمام » الذي كان منظما في الأساس للحركة الوطنية الليبية سرّا، والذي كان يعمل و قتذاك بالسفارة الليبية في أثينا، قام بدور هام جدا وأساسي بطريقة سرية و هادئة نحو حماية المجموعة باليونان، بحكم اطلاعه على ما يجري في السفارة وما يدبّر ضد عناصر المعارضة من قبل المسئولين و أعضاء الأمن فيها ، والذين لم يتركوا وسيلة إلا ومارسوها ليتمكنوا من التعرف على أفراد التنظيم ومقر اجتماعاتهم، وأماكن تحرير المنشورات ومجلة صوت الطليعة..

كان الأستاذ «عاشور الإمام » هو المنذر الذي بيده جرس الإنذار كلما اقترب منهم الخطر، وقد كان يجتمع مع أعضاء المعارضة بكل من السيد « السنوسي المقرحي» واثنين شقيقين من عائلة « بوجازيه» هما: إبراهيم و فكري، وقبلهما بسنوات عمران بوجازيه في مكان خاص في منطقة (قليفادا GLIFADA) .. وكان معرضا لخطر جسيم بدون شك جراء ذلك الدور الشجاع. ففي أحدى المرات،، جمع أمين المكتب الشعبي أعضاء السفارة، وشدّد لهم القول باستغراب: كيف يكون للمعارضة وجود في هذه البلاد ولم نكتشفها، بل وتصدر صحيفة ومنشورات هنا بجانبنا في أثينا ولم نستطع اكتشافهم ؟؟؟

وكان الأستاذ «عاشور» متواجدا في ذلك الاجتماع، ولم تستطع أجهزة النظام الأمنية أن تكتشفه.... وفي موقف آخر،، جاء أحد موظفي السفارة على عجل لاهثا ويحمل بيده نسخة من مجلة الطليعة وصلته على عنوان مسكنه، وبدا منزعجا جدا بسبب تعرف المعارضة على عنوان بيته ،، فانبرى له الأستاذ «عاشور » بهدوء قائلا: ولم الاستغراب؟،، فأنا كنت قد انتقلت في الفترة الأخيرة إلى سكن آخر، وسرعان ما وصلتني المجلة على عنوان سكني الجديد...؟!!. كما أن بلاغا وصل إلى السفارة عن عنوان الشقة التي يجتمع بها أعضاء المعارضة لتوضع تحت المراقبة، لكن الأستاذ « عاشور» حذّرهم بسرعة وأنقذ الموقف مرة أخرى... و عندما حاول أحد عناصر النظام اغتيال بعض الليبيين من عناصر المعارضة، ورتّب أموره الهروب من البلاد، كان الأستاذ « عاشور» متابعا يقظا فبادر بإبلاغ السلطات اليونانية عنه، وتمكنت بالفعل من القبض عليه في المطار قبل هروبه بلحظات.

لقد ساهم ذلك الرجل (الأستاذ عاشور الإمام) بثبات وشجاعة في الوقت الصعب، وقام حينذاك بدور فاعل لم يكن سهلا.

صعوبات المعيشة وقت الاختفاء

يعبّر أحدهم فى «قذّارة» شعبية تقول (**العقل غير عَزْما زَينْ لَيَامْ فيه ياما مَرْمَدَنْ**)..!

من المفارقات المفزعة ، أن يجد الانسان نفسه في بلاد لا يعرفها، ولا يتكلم لغة أهلها، وليس في يده ما يغطي احتياجاته، ويكون وجوده في نفس الوقت مخالفا لقوانينها،، عند ذاك يصبح وضعه سينا لأبعد الحدود...

تلك الفترة هي أقسى المراحل التي مرّ بها « عبد الونيس » في غربته قبل حصوله على حق اللجوء السياسي، لقد كانت الحركة الوطنية الليبية تساعده ماديا من حين لآخر بالحد الأدنى الممكن لكي يعيش به في حدود تلزمه ظروفها أن تكون ضيقة، وأن تكون مصروفاته في ما هو أهم قبل المهم، وقد امتدت تلك الفترة بين الحاجة والكفاف، في الفترة ما بين تاريخ خروجه من البلاد، و تاريخ صدور الموافقة على منحه حق اللجوء السياسي في شهر نوفمبر 1992، أي ما يزيد عن ثلاث سنوات ،،، وفي الإجمال، فإن التعسير لم يكن محصورا في الجانب المعيشي فقط، بل كان الهاجس الرئيسي هو تواجده بأرض دولة أجنبية وهو مخالف لقوانينها في نظم الإقامة، مما استوجب منه الاختفاء بعيدا عن أعين السلطات طيلة تلك المدة.

و زادت ظروفه تعسيرا عندما قاربت صلاحية جواز السفر الليبي الذي خرج به من البلاد على الانتهاء، وهي مشكلة أخرى ليست بالهيّنة، إذ لا إمكانية أمامه للتقدم بطلب تجديد الجواز من السفارة الليبية (سفارة النظام) الذي يبحث عنه ويطلبه حيا أو ميتا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الموافقة على حق اللجوء لا يمكن أن تصدر على جواز سفر منتهي الصلاحية... والأدهى من ذلك، أنه أذا سقطت صلاحية الجواز قبل أن يحصل على الموافقة على حق اللجوء، فسيُضم إلى ما يسمونهم بعديمي الجنسية، التابع شأنهم إلى الأمم المتحدة، وهم من يصنفوا دوليا بأنهم عديمي الجنسية أوالانتماء لأي وطن... حسب التعبيرالمعروف « STATELESS».

على حافة هذه الوضعية الحرجة جدا غشي« عبد الونيس » كابوس صعب ومرير، وكان بينه وبين ذاك المنزلق الخطير برهة من الوقت ضيقة ومحدودة، إذ كان يمكن أن يهوي فيه لولا أن تداركته رحمة ربه في اللحظات الأخيرة، كما سنرى في السّرد القادم.

في تلك الفترة الحرجة عرضت عليه الحركة أن تؤمن له ملاذا بالعراق، وتقدم له إقامة ومساعدة مالية تعينه على ظروف حياته، ولكنه ولسبب ما، لم ترق له الفكرة ، كما اقترح عليه البعض فكرة الزواج فيقترن بامرأة يونانية للحصول على الإقامة، ولكنه وبالنظر لما رأى عليه ظروف المتزوجين من أجنبيات، وما آلت إليه حالة الأولاد الذين لا ينتمون لأصلهم ولا لدينهم ولا يتكلمون لغة أهل بلدهم، بل وتصحبهم أمهاتهم للكنائس، ما جعله يصرف النظر تماما عن ذلك الخيار.

وبالتشاور مع الأستاذ « محمد السكر» أمين الحركة، فقد اتفقا على أن أفضل الخيارات هو تكرار المحاولة للحصول على حق اللجوء السياسي باليونان، كمخرج جذري من تلك الأزمة، واستمر في متابعة الأمر بإصرار وعزيمة، إذ لا ملاذ له في تلك الوضعية الصعبة إلا بحصوله على حق اللجوء قبل انتهاء صلاحية جواز سفره، وقد كان اختياره للمحامي الذي تولى شأنه أمام السلطات المحلية اختيارا موفقا، ذاك الذي اجتهد في عمله وأخلص للمهمة بحماس.

وفي شهر نوفمبر 1992 م . حانت اللحظة المرجوّة و منح له حق اللجوء السياسي، بعد جهد جهيد ، تظافرت فيه عوامل عديدة ،، منها :

1- نجاح حزب الديمقراطيين في الانتخابات، ووصولهم لحكم اليونان بديلا عن حزب (الباسوك) الموالي لنظام القذافي.

2- الثبات، وحسن العرض الذي أبداه «عبد الونيس »أمام الهيئة المشكلة للنظر في طلب اللجوء،، ومن ذلك مثلا، الإجابة التي أبداها عندما سألته الهيئة: لماذا تأخر طيلة هذه المدة في طلب اللجوء ما بين تاريخ دخوله لليونان، وذلك التاريخ ... ؟ أجابهم قائلا:

أ - كان من الحكمة ألا أتقدم بطلبي إلا بعد وصول حزب الديمقراطيين الجدد للحكم، باعتبار أن منهجهم ديمقراطي في الأساس، وهذا هو سبب كل ما عانيته من شقاء طيلة عمري باعتباري معارض يطالب بتحقيق الديمقراطية في بلاده ، وليس من الحكمة أن أتقدم بطلبي خلال فترة حكم الحزب الموالي للنظام الاستبدادي في وطني، و هو حزب «باباندريو» السابق.

ب - حاولت من قبل، و سأستمر في محاولاتي للحصول على حق اللجوء السياسي، مع نبذي للعنف أو التدخل في الشئون اليونانية.

3- كما أن جدّية و مثابرة المحامي الذي تولى عرض الطلب على الهيئة كانت مؤثرة.

4- والسبب الرئيسي الفاعل هو وقوف فرع ليبيا لمنظمة حقوق الانسان في أمريكا بجانبه بقوة، وتأييد مصداقية الطلب في احتياج واستحقاق مقدمه «عبدالونيس» لحقّ اللجوء،، حيث بادر رئيس الفرع في أمريكا «منصور الكيخيا » خلال انعقاد جلسة الهيئة المختصة بالنظر في طلب اللجوء في أثينا، بإرسال الرسالة المبرقة (الفاكس) من أمريكا إليها أثناء جلستها للنظر في الطلب. ومن حسن الحظ أن كان من بين أعضاء الهيئة من يعرف « منصور الكيخيا » شخصيا، مما ساعد على تسهيل قبول الطلب.

وفي النهاية، لاحظ ارتياح اللجنة لما أبداه أمامها من ردود أثناء الاستجواب ، كما أن الفاكس الذي وصلهم في وقت الاجتماع من الرابطة الليبية لحقوق الانسان، كان هو مصدر الارتياح الأكبر الذي ساهم مباشرة في إثبات أحقيته في الطلب، وطمأن اللجنة نحو إصدار الموافقة له على حق اللجوء.

وعند الخروج من المقر، قال له المحامي باغتباط كبير :

(لقد كنت فخورا جدا بك اليوم)...!
وبعد أسبوعين على وجه التقريب من ذلك التاريخ، اتصل به المحامي هاتفيا ليقول له: عندي لك أنباءاً مفرحة في هذا اليوم ...
((لقد وافقت اللجنة على طلبك، وتم منحك حق اللجوء السياسي ..!))

والحصول على حق اللجوء يحمل ميزة،،، ويأتي بمشكلة في آن معا... وأما الميزة فهي اطمئنان اللاجئ بأن إقامته أصبحت شرعية، وأن له الحق في التعليم والعلاج، وفي الحصول على فرصة عمل، سواء في نشاط حر، أو في العمل الوظيفي.
أما المشكلة فقد تمثلت في أن الدولة التي تمنح حق اللجوء لأي أجنبي بأرضها، ملزمة بأن تخطر الدولة التي كان اللاجئ ينتمي إليها ويحمل جواز سفرها ،، وهذا يعني أن النظام الذي هرب منه صاحبنا واختبأ عنه كل هذه المدة سيصبح على علم بمكانه، وذلك باب آخر قد يفتح عليه الخطر، بالرغم من مسئولية الدولة التي منحته حق اللجوء على سلامته، إلا أن حالات عديدة مشابهة في العواصم والمدن الأخرى، تمكن فيه المأجورون من النّيل من بعض الضحايا حتى وهم يتمتعون بحق اللجوء والحماية في دولة أخرى للأسف.

*****

ملخص مبسّط لمعنى وتاريخ حق اللجـوء *

حق اللجوء في الأساس جاء ثمرة للإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صاغتة اللجنة المكونة من ثمانية عشر عضوا من مختلف الجنسيات والخلفيات القانونية والثقافية بعيد الحرب العالمية الثانية، والتي ترأستها السيدة « اليانور روزفلت زوجة الرئيس الأمريكي الأسبق روزفلت»، نتيجة لما تسببت به الحرب المذكورة من تبعات انسانية وسياسية، وبالتالي أصبح اللجوء مُعرّفا بأحد الصّنفين : إما اللجوء السياسي، أو اللجوء الإنساني... وقد اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم (217) بتاريخ 10 ديسمبر 1948 في جنيف، وفي سنة 1951 وقعت عليه (130) دولة، وأصبح يعرف بعد ذلك باتفاقية جنيف لحقوق الإنسان محددة بثلاثين بندا، بشأن استقبال اللاجئين ومنحهم مزايا المعيشة والسكن والتعليم والعلاج... ويقصد باللاجئ الشخص الأجنبي الذي يحتمي ببلد آخر عندما يكون معرضا للاضطهاد بسبب نشاطه السياسي أو رفض اشتراكه في الحرب، أو بسبب الجنس أو القومية أو المعتقد الديني، والشرط الأساسي لحق الفرد على طلب اللجوء السياسي حدده البند (14) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في بندين :

1- لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى، أو يحاول الالتجاء إليها هربا من الاضطهاد.
2- لا ينتفع بهذا الحق من قُدّم للمحاكمة في جرائم غير سياسية، أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة.

وقد أوجبت المادة الثانية من الإعلان على المجتمع الدولي أن يهتم بحالة اللاجئين الذين ينطبق عليهم هذا التوصيف مع عدم المساس بسيادة الدول.. وفي كل الحالات، فإن منح حق اللجوء عمل سيادي للدولة التي تمنحه للأشخاص الفارّين إليها من بلاد أخرى، رغم أن بعض الدول - الفارين منها طلاب اللجوء - لا زالت تنظر إلى أن قبول اللاجئ بدولة أخرى ومساعدته أو منحه حق اللجوء عمل غير ودّي، بل وتفسره أحيانا بأنه عمل عدائي ،والفرق في المزايا بين حق اللجوء في الحالتين (السياسي والإنساني)، أن اللجوء السياسى مرتبط بإقامة غير محددة، ويتمتع بحق الحماية من الدولة المتواجد على أراضيها، لأنه مطارد وملاحق في بلده، والتي لن يحصل على أية مكافأة لنهاية خدمته السابقة بها بالطبع، بينما اللاجئ لأسباب إنسانية تتجدد إقامته في بلد اللجوء سنويا أو كل ثلاث سنوات وفقا للنظم المعمول بها في كل دولة . ومن حقه (عندما تنتهي حالة الحرب أو الاضطرابات مثلا) العودة إلى بلاده وحصوله على كافة مستحقاته.

* المصدر : نشرة موقع الأمم المتحدة - الصفحة الرئيسية .

السيدة (اليي نور روزفلت زوجة الرئيس الأمريكي الأسبق روزفلت) رئيسة لجنة الصياغة تستعرض نسخة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عند إعلانها. (منقول)

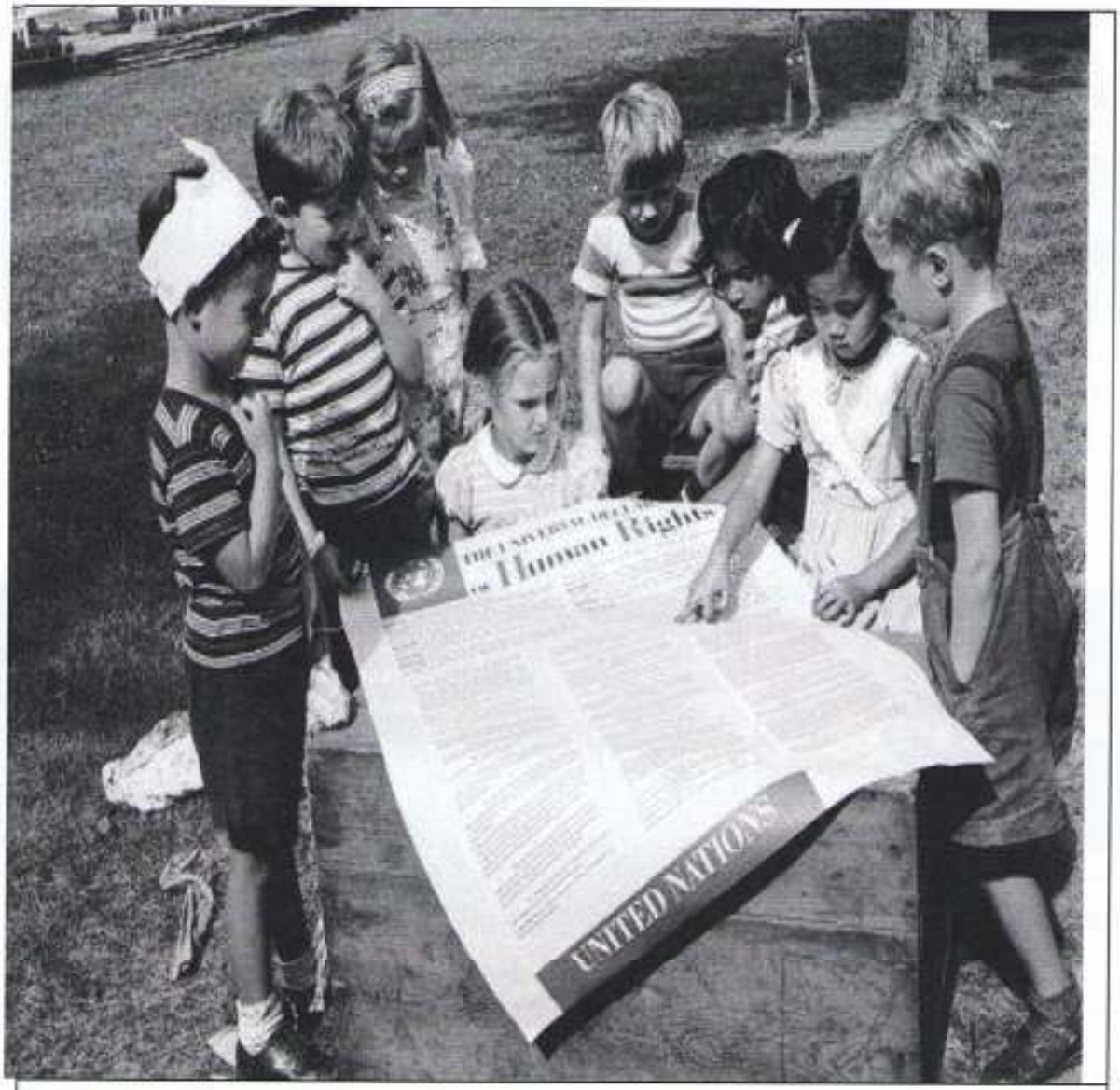

مجموعة تلاميذ في الحضانة الدولية التابعة للأمم المتحدة في نيويورك يطالعون الوثيقة التاريخية سنة 1950 في الذكرى التاريخية الأولى لاعتمادها بعد توزيعها وشرحها في المدارس والمؤسسات التربوية بدون تمييز . (منقول)

The Drafters of the Universal Declaration of Human Rights

Dr. Charles Malik (Lebanon) لبنـــان

Alexandre Bogomolov (USSR) الاتحاد السوفيتي

Dr. Peng-chun Chang (China) الصيـــن

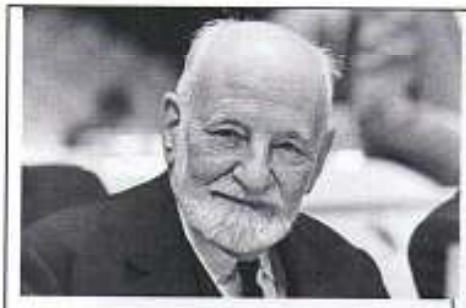

René Cassin (France) فـرنســا

Eleanor Roosevelt (US) زوجة الرئيس الأمريكي روزفلت

Charles Dukes (United Kingdom) بريطانيا

William Hodgson (Australia) اســتراليــا

Hernan Santa Cruz (Chile) شيـــلي

John P. Humphrey (Canada) كنـــدا

لجنة تحرير وثيقة حقوق الإنسان (منقول)

الاستقـرار والبحث عن عمـل

بعد إصدار الموافقة له بقبول اللجوء السياسي ، تم منحه وثيقة سفر يونانية محررة باللغتين اليونانية والانجليزية حسب اتفاقية جنيف سنة 1951 بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كما صرفت له بطاقة إقامة رقم: 602617 ، وأخرى شخصية تحمل الرقم: 137767.

صورة جواز السفـــر أو بالأحرى وثيقة السفر التي منحت له.

صورة بطاقة الإقـــامة

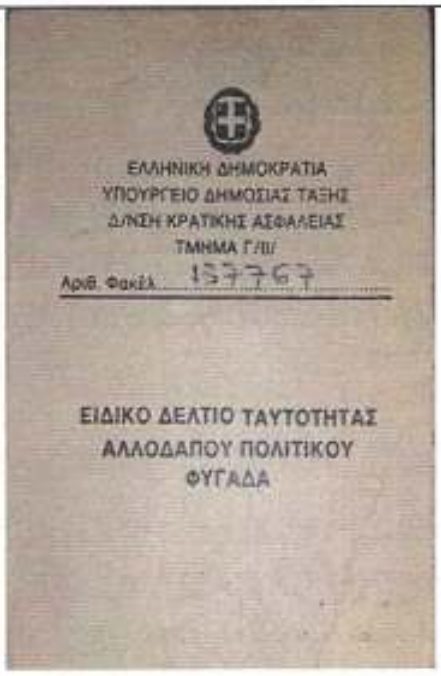

صورة البطـــاقة الشخصيـــة

وبعد أن أصبحت إقامته بالبلاد مجازة حسب القانون، فقد كان عليه أن يبحث حينذاك عن عمل، لكن دولة اليونان بعكس الدول الأوروبية التي تستوجب أحكامها ضرورة توفير فرصة العمل للآجئ، أو أن يحصل العاطل عن العمل ـ حسب أنظمة الضمان الاجتماعي بها ـ على المساعدة المادية المريحة له إلى أن تتوفر له فرصة العمل المناسب ، أما اليونان فهي بلد فقير أصلا ، ولا تتوفر به الإمكانيات التي تغطي هذا الالتزام، وبالرغم من وجود مكتب يسمى مكتب البطالة يقوم بتسجيل العاطلين الراغبين في الحصول على فرص عمل، ولكن الأولوية في ظل انعدام الموارد وقلة الفرص، ستكون لليونانيين بالطبع، أما الأجنبي ففرصته شبه منعدمة، إلا في بعض الأعمال المتدنية جدا مثل: تنظيف البيوت أو تنظيف حظائر الحيوانات أو ما شابه، وعلى العموم فإن اليونان بلد تضيق في الأساس بأهلها بحسب نقص الإمكانيات وقلة الموارد.

وبالرغم من وجود باحثين اجتماعيين وباحثات بمكتب الأمم المتحدة يقومون بتسجيل العاطلين عن العمل من اللاجئين، ويبحثون لهم عن فرصة عمل تتوافق مع خبرة اللاجئ العملية السابقة، لكن احتراف « عبد الونيس » السابق والمحصور في مهنته كرجل عسكري، لم تؤهله للحصول على عمل في مجال مطابق، حتى أنه عندما اشتد في نقاشه مرة مع إحدى الباحثات، ردت عليه بسؤال محرج لا إجابة له،، قائلة: ومن أين لي أن أجد لك عملا في مجال السلاح؟ ... أنسيت أنك رجل عسكري ..؟!!.

وأمام هذه الظروف، فقد كان مضطرا للعمل أحيانا في أعمال صغيرة، ومنها على سبيل المثال، أنه عمل كموزع بنزين للسيارات بالمدينة، وعامل في محطة غسيل وتنظيف الآليات والمركبات، و كذلك عامل مساعد لأحد التجار في محل تجاري.

كما قام بتدريس اللغة العربية في بعض الفرص القليلة التي أتيحت له إما لأولاد العرب المتزوجين من يونانيات، أو لبعض اليونانيين الراغبين في تعلم العربية بهدف الحصول على فرص عمل في البلدان البترولية العربية.

وقد حاول الحصول على فرصة عمل كمدرس في بعض المدارس العربية المحدودة المتواجدة حينذاك و التابعة لدول الخليج ولبنان، ولكن لم تتح له أية فرصة فيها، كما طاف ببعض السفارات العربية لنفس الغرض، آملا في إمكانية وجود فرصة للتدريس لأولاد أعضاء البعثات بها، لكن ذلك لم يُجد أيضا ،،

ومن طرائف المواقف التي مرّ بها أثناء تجواله بين السفارات العربية، أن دخل السفارة السعودية سائلا الشخص الذي كان متواجدا ساعتها، ولعله كان رجل أمن أو موظف استقبال،، سأله عمّا إن كانوا في حاجة لمدرس للغة العربية، لكن ذاك الذي وجده لم يعره انتباها، وبالتالي آثر الرجوع من حيث أتى، ولقد لفت نظره وهو في طريقه للخارج، إعلان مكتوب على الحائط باللغة العربية مبدوءً بكلمة (نرجوا) ولاحظ أن بنهاية الكلمة حرف (ألف) زائدة، فرجع لذلك الموظف المتعالي

ورجاه أن يقوموا بحذف الحرف الزائد عن الكلمة والمعلّق بقاعة مدخل إحدى سفاراتنا العربية...!! لكن الموظف كان كمن أخذته العزة بالإثم، و قد رد عليه بجفاء، تعاليا و تسفيها لملاحظته، و محاولا التبرير بأن من كتب الكلمة ليس عربيا... وبالتالي فقد كان العذر أقبح من الذنب كما يقال، إذ كيف يسمح لأجنبي أن يكتب في صدارة السفارة إعلانا بلغة تسيء إلى أصول لغتها..؟؟؟!!.

واستمر ذاك التجوال أوقاتا طويلة في البحث عن عمل مناسب، مع الاضطرار أحيانا بقبول الأعمال الصغيرة كما ذكرنا..

توالت السنون تتمطّى في رتابة مريرة، فبالإضافة إلى سوء أحواله المعيشية وظروف سكناه البائسة والانعزال الجبري عن الوطن والأسرة والأقارب، فقد طالت مدة بقاء النظام في ليبيا عقودا لم تكن متوقعة، وبالتالي امتدت فترة هجرته وعزلته وحيدا غريبا لفترات لم تكن في الحسبان،،، و من الطريف، أنه كان يردد بينه وبين نفسه بيتين من الشعر من قصيدة المتنبي الشهيرة (العيد)، كلما شاهد الحسناوات اليونانيات حفيدات «أفروديتي» آلهة الخصب والجمال في الميثولوجيا الأغريقية، إذ يقول الشاعر:

لم يترك الدّهر من قلبي ولا كبدي   شيئا تُتَيِّمُـهُ عيـنٌ ولا جيـدُ

أصخرةٌ أنـا ؟ مـالي لا تحـرّكني   هَذي المُدامُ ، ولا هَذي الأغـاريدُ؟!

وبدأت سنوات الشيخوخة تطل بما يصاحبها من أمراض استجدّت إلى ما كان يعانينه أصلا من علل في الأرجل ومشاكل القرحة بالمعدة، من آثار التعذيب و الرطوبة في مباني السجن في ذاك الزمن الطويل.

وبدأت محاولات النظام في ليبيا باستمالة المعارضين والإغراء بالرجوع للوطن مقابل العفو عنهم، والتلويح بإغراءات مادية أخرى، فيما كان يسمى حينذاك بمشروع : (ليبيا الغد)، والوعود بتحسين الأوضاع السياسية والديمقراطية،،،

لقد اقتنع بعض أعضاء المعارضة ـ فيما يبدو ـ بالاتجاه نحو إصلاح النظام من داخله وفقا للرؤى المطروحة بمشروع (ليبيا الغد)، ونزحوا من المهاجر عائدين للبلاد..

ورفض البعض الآخر منهم هذا الاتجاه لاقتناعه بأن لا أمل في التّفاهم والتّعاطي مع النظام تحت أي مسمّى، ولكن الهدف هو اجتثاث النظام من جذوره، ولا يرون خيارا آخرا غير ذلك...

فتشظّت المعارضة بالتالي ، وانقسم تكتل أعضائها إلى ما يسمى (جذريّين و إصلاحيّين)،، وكان أن ابتهج النظام بذلك الانقسام في صفوفها، حتى أن « معمر القذافي» وصف تخلي البعض عن

مواقعهم في المعارضة والرجوع في أحضان النظام (الإصلاحي المزعوم) بأنه بداية تساقط أوراق الخريف...!.

فالجذريّون هم البقية التي آلت على نفسها أن تبقى متشبّثة بخيار مواصلة النضال حتى اجتثاث النظام بالكامل.

بعد اغتيال « موسى أحمد» في مزرعته، كتب « عبدالونيس » مقالا شهيرا عنوانه (من قتل قائد الانقلاب ؟) قاصدا أن « موسى أحمد » هو قائد الانقلاب الفعلي في سبتمبر 1969 ... وأتبعه بسلسة مقالات مجزّأة بعنوان (وداعا ياموسى)،،، بيّن فيها معلومات تنشر لأول مرة عن تفاصيل الأحداث وقت وقوع ذلك الانقلاب، وكيف كان قادة الانقلاب الحقيقيون هم الذين أُبعدوا عن الصّدارة وعن عضوية (مجلس قيادة الثورة).

كان لتلك المقالات ردود فعل في الأوساط الليبية، وتهامس الناس حولها،،، مما كان له الأثر الشديد على النظام في البلاد ، فذلك الذي يكتب ويبيّن الأمور على حقيقتها شاهد عيان لا يزال حياً، ولا يزال يقول ويصرّح للناس بما لا يسمح النظام بمثله أن يقال أو يُعرف عن وقائع الانقلاب، وبالتالي يجب إسكاته طوعا أو كرها...!.

وفيما يلي نورد (صورة جزئية من مقال كتبه الصحفي الأستاذ ناصر الدعيسي فيما بعد في شأن آخر، مستدلاً بمقال «عبدالونيس» الذي نوهنا إليه سابقا) .

من قتل قائد الانقلاب ؟

ناصر الدعيسي

هذا عنوان مقالة شهيرة كتبها أحد ضباط محاولة موسى أحمد وآدم الحواز كما سميت في أول السبعينيات . السيد عبدالونيس محمود . وكان ضابطا مغمورا ذا كفاءة عالية مثقفا، وقد شارك في انقلاب سبتمبر 69 المشؤوم . وشارك في محاولة الانقلاب الثانية مع وزيري الدفاع والداخلية آنذاك .وكان محكوما بالإعدام ثم خرج من السجن فيما سمى أصبح الصبح منتصف الثمانينيات . نشر المقال قبل الثورة بخمس سنوات وكان مقالا أزعج القذافي كثيرا وطلب من أسرة عبدالونيس في شحات أن يتم إيقافه عن هذا الخط ضده .. المقال جاء على إثر اغتيال موسى أحمد في مزرعته في طرابلس واتهم كثيرون النظام بتصفيته ومنهم عبدالونيس محمود الذي قال في مقالته إن موسى أحمد اغتيل وهو القائد الحقيقي لانقلاب سبتمبر وهو الذي استولى على معسكر القوات المتحركة في قرنادة وأبطل قدرتها على إفشال الانقلاب السبتمبر ى آنذاك .

والثّابت أن «القذافي » استدعى « عبدالعزيز محمود » أخ «عبد الونيس» بصحبة ابنه «عادل» في أكتوبر 2007 في محاولة منه لتسخيرهما لإقناعه بترك المعارضة والرجوع للوطن، وكان سيغدق عليه ـ حسب ماوعدهما به ـ الكثير من أسباب الراحة والعيش لو قبل ذلك... ولكنه كما نعلم، فهو ذاك المنشقّ العنيد (ولد العجوز) الذي لا تلين قناته ،، فلا يعبأ بالتخويف، ولا يسيل لعابه للطمع...

في تلك الأثناء لم تتوقف محاولات النظام في ليبيا عن إقناع « عبدالونيس » بالتخلي عن موقع المعارضة والرجوع للوطن مقابل مغريات كبيرة يعرضها، أو على الأقل بأن يتوقف عن كتاباته ضد النظام وفضح أساليبه، وفي هذا الغرض جرى الإعداد لإرسال وفد من قبيلة الحاسة (التي ينتمي إليها) لإقناعه بالحضور أو الوعد بالعدول عن استمرار كتاباته ضد النظام..

وعند محاولة إبن أخيه إيجاد كيفية للتواصل معه في هذا الشأن ، فقد أشار عليهم بتوجيه الإيميل المتعلق بهذا الأمر على عنوان بعيد في دولة (السّويد)،، إلى الصديق المغترب « محمود دخيل» المقيم هناك، إمعانا في تمويه السلطات عن مكان وجوده،،، وقد دبّر الصديق الذي استلم الإيميل كيفية إرساله مرة أخرى ووضعه بين يدي « عبدالونيس » في اليونان ...

وفيما يلي صورة من الإيميل المذكور :

E-post | Adresser | Kalender | Anteckningar | E-postalternativ

Läs e-post | Skriv | Sk i e-post | Sk på webben

Mappar [Lägg till - Redigera]
Inkorgen (21)
Utkast
Skickat
Massbrev [Tm]
Skräp [Tm]

Billigare block till skrivare!
Hitta kärleken på Match.se
Privatpersoner Kartor

Föregående | Nästa | Tillbaka till meddelanden | Utskrivbar vy - Fullständiga rubriker

Ta bort | Svara | Vidarebefordra | Spam | Flytta...

Det här meddelandet är inte flaggat. [Flagga meddelande - Markera som oläst]

Datum: Thu, 4 Aug 2005 12:21:24 -0700 (PDT)

Från: "fathi saleh" <asad_cyrene@yahoo.com> Lägg till i adressboken
Yahoo! DomainKeys har bekräftat att det här meddelandet skickades av yahoo.com. Läs mer

Ämne: رسالة

Till: abdelwanis_m@yahoo.se

بسم الله الرحمن الرحيم

عمي العزيز

انا ابن اخيك محمود عبد العزيزمحمود

اولا.... اريد ان اطمئن على اخبارك فنحن لا نعرف عنك شيئا

ثانيا..... لا اريد ان اقول لك شيئا عن المقال الاول والثاني (من هم الرجال الذين انتزعو استقلال ليبيا

وقد ذكرت دور المجاهدين في نيل استقلال ليبيا و ذكرت العديد من الاسماء ولم تذكر اي مجاهد من قبيلة الحاسة الجميع يسئل ويستغرب منك هذا فانت ابن هذه القبيلة المجاهدة فلا نريدك ان تنكر عليها حقها لمجرد ان كتبت يقولون انك قبليا فاعطيها قليلا من حقها بقلمك الذي يشهد له بالصدق والامانة

ثالثا.... لقد تم استدعائنا من قبل جهاز الامن الداخلي فقد استدعينا من قبل السنوسي الوزري رئيس الامن الداخلي بمدينة بنغازي ورئيس الامن العام على مستوى المنطقة الشرقية و ذلك بطلب من رئيس الامن العام على مستوى ليبيا صالح رجب المسماري باعاز من القذافي هذا ما علمناه وقيلا لنا فهم يريدون ان يرسلوا اليك وفدا من قبيلة الحاسه على راسهم الحاج حفيظ بوعلجيه (الحاج خيرات) من اجل مطلبين هما ...1 - ان ترجع الى ليبيا ويعطونك جميع الضمانات و المزايا المالية.... 2 - لاتريد الرجوع الى ليبيا تتوقف عن الكتابة وفي هذا الشان قلنا لهم وان لم يمتثل او ينصاع الى مثل هذه المطالب فقالوا لنا لا نؤخذكم بجريرته فهو حر بما يفعل ولستم عنه بمسؤولين . وهذا باختصارا شديد

عمي العزيز ان كنت تحتاج الى مثل هذه المعلومات وتريد الاستفادة منها فيجب ان تبقينا على اتصال ولكي اطمئنك فقد حصلنا على تصريح بذلك . ولك مني كل احترام و تقدير

ابنخيك / محمود عبدالعزيز بوعلجية
04/08/2005

asad_cyrene@yahoo.com

كتب عبدالونيس بخط يده على ظهر ورقة الإيميل ملاحظاته على فحوى ما جاء فيها كما يتضح من الصورة التالية:

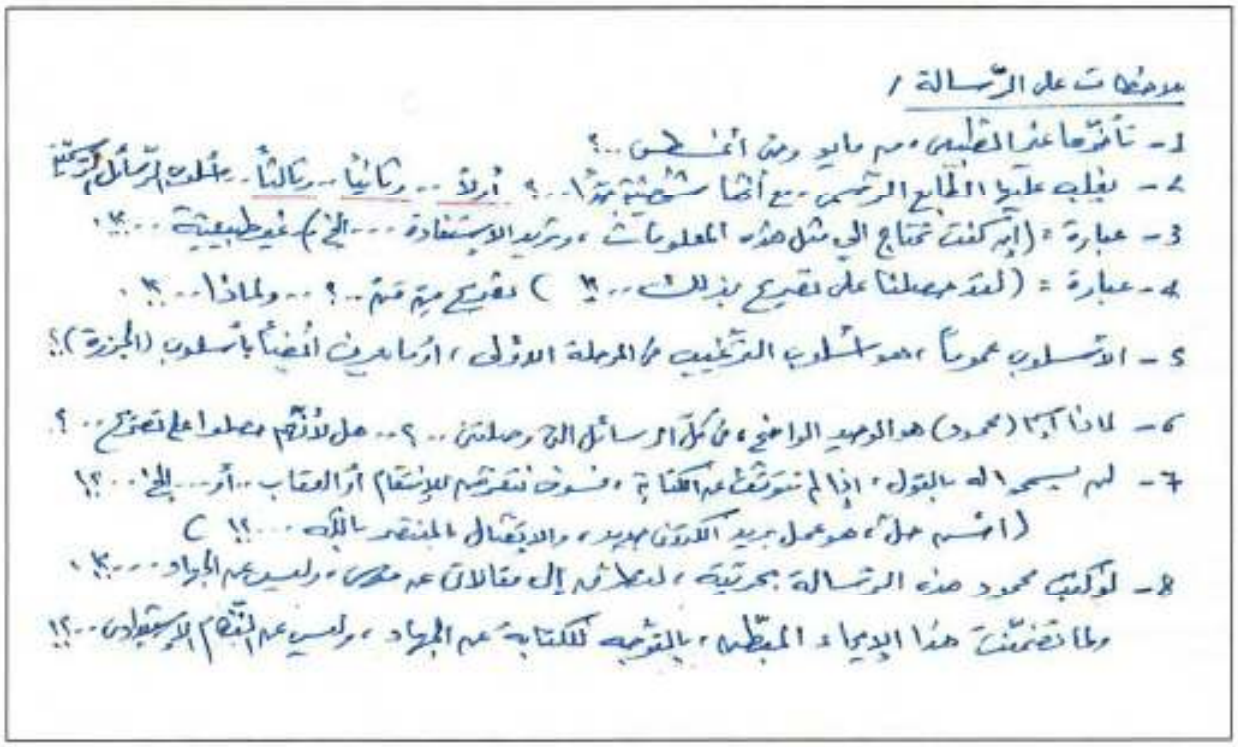

ومن يعرف «عبد الونيس» أو درس سيرته، يعلم جيدا أنه لم يكون ليعبأ بهذا الهراء باستقبال وفود قبلية لمناقشة أبجديات المبادئ التى صبغت كل سنوات العمر بطابعها، ولا كان الإغراء بالمزايا ليستهويه، ولا التبشير بـ (الضمانات) يلقى لديه تصديقا، وهو الذي اكتوى بنار العذاب وصنوف الإهانة والإيذاء الشخصي والبدني في الوقت الذي نصّت فيه بنود الدستور المؤقت على تحريم ذلك... وكيف لدولة لم تحترم دستورها أن تُصدَّق بعد ذلك في وعودها بتقديم (ضمانات) السلامة ..؟؟ خاصة وأنه قد عايش وقائع التّصفية الجسدية لبعض الزملاء، ورأى المساجين في سجن الحصان الأسود يُجرّون في غياهب الظلام ليُغتالوا أمام سمعه وبصره..؟ أولم تكن الملاحقات والاغتيالات قد جرى بعضها بعد إعلان ما يسمى بالوثيقة الخضراء لحقوق الإنسان..؟!... وقد اغتيل في أثينا نفسها التي يتواجد فيها كل من: صالح الشطيطي ـ محمد افحيمه ـ صلاح عطيه الفرطاس ـ عبدالمنعم شعبان الزاوي ،ونجا من الاغتيال بأعجوبة كل من مصطفى القريتلي ـ يوسف عقيله المجبري فكيف له بعد هذا أن يصدق ما جاء ت به تلك الرسالة..؟!

وبكل إباء رفض الاعتناء بما وصله في فحوى ما جاء (بالإيميل)،، وقرّر أن لا تزلّ القدم في آخر العمرعن ثبوتها.

كان عندما يضيق به الحال ويغشاه الوجع، يصعد لأعالي المرتفعات في المدينة، فمدينة أثينا كما نعلم جبلية التضاريس، وكان يجد في ارتقاء المرتفعات وتنسّم هوائها متنفسا لما يضيق به صدره، ومسار الطريق للمرتفعات نسميه بلغتنا المحلية (صعودَه) وهي تسمية مشتقة من تأنيث كلمة (الصّعود) في الفصحى، وبين ضيق الحال في حياته، وبين أساس الإباء المتأصل في

الجوانح بالرفض المطلق لأي تصالح أو تقارب مع النظام بأي شكل مهما اشتدت عليه الظروف، ومهما قُدّم له من إغراءات، بين الإثنين مساحة لا تلتقي فيها التوافقات، لأن الأساس في الخلاف هو حرية وكرامة الوطن، وليس الحصول على غنائم.

ولأن ثمة نقطة توازن دقيقة وفارقة بين التّمسك بالأفكار المبدئية الصّائبة والدفاع عنها ، والصمود ضد الاكراهات التي تفرضها السياقات المختلفة، فإن النّاي عن انحيازٍ لمصلحة خاصة للعيش والارتزاق واجبٌ تمليه المبادئ.

وهكذا يلفي نفسه بين ما يرد من الخواطر حول تلك الاغراءات، ومحاولات التّصالح مع النظام، ووضع حد لمعاناة طال أجلها، وبين المتأصل فيه بالرفض المطلق لأي إذعان كيف ما يكون،،، فبين هذا وذاك، ما يؤجج الوجدان ...فتنساب من مخزونات الذاكرة (قذّارة) بدوية من التراث الشعبي كان قد سمع زميله بالسجن « عبد الكريم عبدربه» يرددها في ظلام الزنازين في سنين خلت، تقول: (**صعوده اتهابي فيه خطا عزيز يا عين كايدك**) ... فيترنّم بها « عبد الونيس » على مرتفع (الليكافتوس) في أثينا وحيدا، حيث يجد في مضمونها جمعا بين الحال والمكان في آن واحد،،، وفي ذلك توظيف لوصف المشقّة في الحالين: حال الصعود بمشقته في الارتقاء جسديا، وحال الرفض المطلق للتخلي عن أسس المبادئ في مشقةٍ للضمير لا تحتمل،، فكلاهما (صعوده) بمفهومين مختلفين تجمع بينهما الصعوبة ويُفرّق بينهما الغرض....!.

ومرتفع أو تبّة (الليكافتوس) الشهيرة الشامخة تقع في وسط أثينا، وتبدو القمة الناتئة منها كصخرة ضخمة على رأس الجبل ،،، وترجع تسمية (الليكافتوس) تاريخيا إلى أن هذا الجبل كان يبعد نسبيا عن أثينا القديمة، وتحيط به الغابات والنباتات البرية، وتسكنه الذئاب المفترسة، فأطلقوا عليه هذا الإسم المركب من كلمتين، فكلمة (ليكوس) وتعني الذئب، وكلمة (فتوس) وتعنى طريق أو ممر أو معبر .

يقول « عبد الونيس» : تلك (الصعودة) طالما مشيتها على الأقدام من قاعدتها إلى قمتها،، وأتذكر وأنا لاهث الأنفاس أن مسمى مأوى الذئاب القديم هنا، يذكرني بالذئاب الجديدة في بلادي، ويطفو من مخزون الذاكرة بيت من قصيدة للشاعر الغنائي « مصطفى خرفي» يقول:

ربعنا بالأمس ، ربع الذكريات ... إنه مأوى لذئاب كدّرت صفو الحياة.

،،،،،،،،،

هكذا ،،، تبدو في الصورة تبّة (اللّيكافتوس) وسط مدينة أثينا ،

التي كان يصعدها للتنفيس عن نفسه عندما كان يضيق به الحال

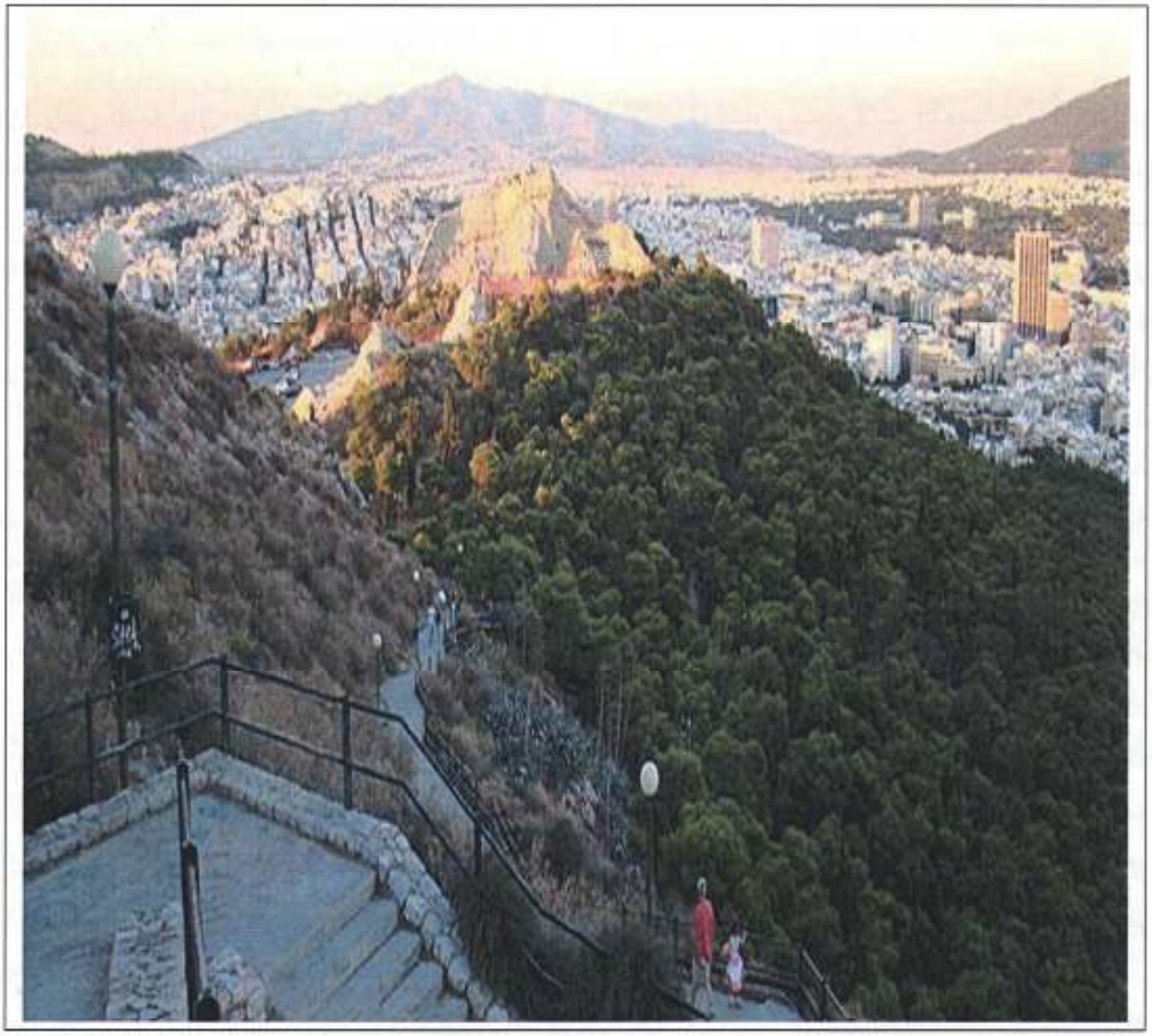

يقول « محمود سامي البارودي» من منفاه في (سرنديب) وهو اسم قديم لمدينة كولومبو عاصمة سيرلانكا التي نُفي إليها بعد فشل ثورة « أحمد عرابي»، وبقي فيها منفيا سبعة عشر عاما، يقول

في قصيدة شعرية ننتقي منها الأبيات التالية باعتبارها حالة شبيهة، و تطابق في نفس الوقت هذا المضمون الذي نكتب عنه :

ومن رام نيل العزّ فليصطبر على لقـــاء المنـايا واقتحـام المضـايقِ
فما غيّرتني محنـةٌ عن خليقتـــي ولا حوّلتني خُـدعةٌ عن طـرائقي
ولكنـي بـاقٍ علـى مـا يسـرُّني ويُغضب أعـدائي ويُرضي أصادِقِي
فما أنا ممّـن تقبـلُ الضّيْمَ نفسُـه ويرضى بما يـرضى به كلّ مـائِقِ
ولكنني نـاديتُ بالعـدل طالبـا رضا اللـه واستنهضْت أهل الحقائقِ
أمرت بمعروفٍ وأنكرتُ مُنكرا وذلك حكمٌ في رقـاب الخـلائـقِ.

وعلي أية حال، فقد استمرت ظروف « عبدالونيس» المعيشية الصعبة - في كل الأوجه؛ ماديا وصحيا وأمنيا واجتماعيا ونفسيا - على ذاك المنوال طيلة خمس عشرة سنة أخرى...

وأخيرا ، أي في العشر سنوات الأخيرة من مدة إقامته باليونان، أمكنه الحصول على عمل في أحد معسكرات اللاجئين، وهو عبارة عن مخيّم تابع لمفوضية شئون اللاجئين بالأمم المتحدة، وكانت نوبة عمله في فترة مسائية تبدأ من الساعة الثالثة إلى العاشرة ليلا كمسجل في استقبال اللاجئين الوافدين على المخيّم ، إما من التّائهين الباحثين عن مأوى، ممن يقذف بهم البحر فيصبحوا لاجئين على الجزر اليونانية، أو ممن تأتي بهم السلطات بعد أن يتم تجميعهم من هنا وهناك ، ومعظم أولئك اللاجئين ينتمون إلى جنسيات : أفغانستان أو العراق، أو من كردستان العراق أو من إيران...ومن بعض الجنسيات الأخرى.

ورغم أن التعامل مع تلك الشرائح من البشر متعب إلى حد كبير، علاوة على أن موقع ذلك العمل بعيد نسبيا عن مقر سكناه ، إلا إن المرتب الذي يتقاضاه من وراء ذلك العمل كان مجزيا نوعا ما، وأنه لا يستطيع استبدال مسكنه الذي يقطنه منذ زمن، حفاظا على قيمة الإيجار القديم، فالقانون يلزم المالك بعدم الزيادة في الإيجار على الساكن إلا بنسبة مرخصة، ولكن المالك غير ملزم بأي حد عندما يبرم عقد إيجار حديث لذات العقار، حتى وإن كان مع نفس الساكن القديم فيما لو خرج من المسكن وعاد إليه من جديد،، وعلى أية حال فإن نوع السكن التي اضطر « عبد الونيس» أن يقطنه، عبارة عن قبو تحت الأرض تحدده مساحة ضيقة جدا لا تتسع لأكثر من مساحة السرير، وجزء من نفس الحيّز يستعمل كمطبخ لا يفصله عن باقي الغرفة باب أو فاصل، مع حمام صغير جدا، وفي الإجمال فإن ذاك المكان لا يتفق مع الحد المقبول في المواصفات القياسية لمعيشة إنسان بشكل مريح،،،

ولقد زاره في إحدى المرات السيد « سعود سالم » وهو أحد المعارضين الليبيين المتواجدين في فرنسا، وعندما شاهد حالة مسكنه قال له: إن مثل هذا المكان ممنوع منعا باتا في فرنسا، باعتباره يتنافى والحد الأدنى لسكن الآدمي.

يقول «عبد الونيس» :

(معاناة الإنسان في الغربة ليس لها حدود، فحتى وإن توفر لديه الجانب الاقتصادي، أو انفرج في الحال المعيشي، فإنه لا يسعد في الغربة بأي شكل، وخاصة عندما تكون حياته مهددة ويفتقر للأمن والأمان، وانظر إلى ما جاء في القرآن الكريم في سورة قريش : الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، فلا نفع للطعام إذا كان بدون أمان ،،، لقد كنا متابعين باستمرار من قبل أجهزة القذافي و من المأجورين لتصفيتنا،،

ويحضرني في هذا المقام مثل صوّره أحد المجاهدين ضد الإيطاليين واصفا ما كانوا يعانونه في صقيع الليالي الباردة يقول فيه: أننا كنا نرتعش من شدة الصّقيع ونحن في الغابة والحطب أمامنا بكثرة، ولكننا لا نستطيع إشعال النار للتدفئة، خوفا من أن يكشفنا العدو،،،

وهكذا ترى أنه في غياب الأمان، لا تستطيع العيش براحة واستمتاع حتى في وجود الشيء المادي المطلوب ...).

والأمر المخيف فعلا، أنه قد كان في القبو الذي يقيم فيه معزولا وحيدا ... لم يكن يعلم به أحد إن ألمّ به مرض، أو باغتته المنيّة... باستثناء نفر قليل سواء من أعضاء الحركة، وعلى كل حال فإن عددهم لا يزيد عن عشرة أشخاص، هؤلاء النّفر هم الذين كان له اتصال بهم، وكانوا يلتقون من حين لآخر، في المناسبات الدينية والأعياد، أو خلال شهر رمضان عند أسرتين ليبيتين، وقد كانت أسرة السيد « زكري العزابي» في الغالب هي دار الملتقي، وقد أكرمتهم تلك الأسرة كرما بالغا، مما جعلهم يسمونها (بيت العائلة)، ولكن حضور أفراد المجموعة لتلك المناسبات، كانت تحكمه ظروف كل أحد منهم.

وكان من بين أفراد المجموعة ؛ الدكتور عبدالرزاق الحنوشي، والدكتور يوسف الدلالي وهما ايضا أعضاء بالحركة الوطنية الليبية.

لكن الناحية الأمنية بالطبع تجعل من الصعب توسيع دائرة المعارف، مما جعل عددهم لا يتجاوز خمسة عشر، ولم يصل العدد إلى هذا الرقم إلا في الفترة الأخيرة فقط .

وعلى سبيل التوضيح لما كان يخشاه «عبد الونيس» من تسريب المعلومات عن أماكن تواجد المعارضين - حتى ولو كان بحسن النية - أن كان من بين المتواجدين في اليونان من الرعايا الليبيين السيد «يحي الثّني» ، الذي تربطه علاقة عائلية بكل من السيدين: «ابراهيم صهد» و

الدكتور «محمد المقريف»،، فالأول خاله، والثاني زوج خالته، وهما من المؤسسين لجبهة الإنقاذ الوطني كما هو معروف،

وقد انضم إليها السيد « الثني» بطبيعة الحال وبحكم صلة القرابة، وقد حصلت بالجبهة عدة اختراقات أمنية لكثرة العدد، ولعدم اتخاذ الاحتياطات الأمنية اللازمة، و كان السيد «يحي الثني» يدرس بالبحرية التجارية باليونان،،،، وفي الفترة الأخيرة توفى والده، فاضطر«عبد الونيس» للذهاب مع المجموعة لمواساته، في الوقت الذي كان طيلة المدة الماضية يتجنب اللقاء معه لذات السبب الأمني وليس لسبب آخر، فما إن تعرّف عليه السيد «يحي الثّني » حتى قال له: (منذ ما يقرب من عشر سنوات وأنا أبحث عنك ولكني لم أجدك، وأعرف أنك هنا باليونان لأن خالي السيد إبراهيم صهد أخبره الدكتور « منصور رشيد الكيخيا» سرًا بأنك موجود هنا)...

(المحامي والحقوقي منصور رشيد الكيخيا هو رئيس التحالف الوطني الليبي، ومؤسس الرابطة الليبية لحقوق الإنسان بجنيف، وهو من تم اختطافه من القاهرة وتم اغتياله في ليبيا) وتلك بلا شك - في نظر «عبد الونيس » - هي نقطة الضعف الشديد عند المرحوم «منصور رشيد الكيخيا » الذي لم يكن يهتم كما يجب بالناحية الأمنية، حتي كان النّيل من شخصه سهلا للأسف...

ولهذا السبب تحديدا، كان «عبد الونيس» يذهب مباشرة لمن يريد الاتصال به، تحاشيا للاتصال المسبق، فلا يعرف الآخر مكانه ولا عنوانه ولا رقم هاتفه، وأدّى ذلك الحرص إلى أن يكون في معظم أوقاته وحيدا ، و مع ذاك الانفراد في تلك السنين الطوال فإنه - كما يقول - في خلوة دائمة اعتاد معها على التفكير الهادئ، وتنمية قدراته في التأمل والتّدبر، بجانب القراءة طبعا ،،، وهذا ما جعله لا يعبأ كثيرا عندما ينعزل في أي وقت عن الآخرين، بل لازمته هذه الحالة حتى أصبح لا يستطيع القراءة أو الكتابة إلا إذا كان في خلوة هادئة.

ومع الولوج في سن الشيخوخة، فإن الجسم الذي حمّلته سوءات الزمان مالا يطيق، بدأ يضعف ويستسلم للوهن، وطفقت تهاجمه الأمراض؛ المزمنة منها والمستجدة، وارتاد المصحّات الحكومية بحثا عن علاج للعيون، ولتلك القرحة المزمنة في المعدة نتيجة إضرابه عن الطعام مدة عشرين يوما بسجن الحصان الأسود، ولتضخم غدة البروستات المصاحبة عادة لسن الشيخوخة ، فالبعض من هذه العلل عولج بعد صبر وطول أناة في المستشفيات الحكومية اليونانية، و اصطبر على البعض الآخر حتى استطاع تجميع المبلغ المالي المطلوب من التوفير القليل المتواضع من مرتبه الشهري، لإجراء العملية الجراحية لإزالة (الماء الأزرق) - كما يسمونه - من العيون.

وتراءى له في وقت ما، أن حقه في التعويض عما أصابه في بلاده واضح ومضمون جرّاء ما ألمّ به من أضرار جسمية ومعنوية ومادية واجتماعية وأسرية، فيما لو رفع قضية ضد نظام القذافي - وهو لايزال خارج بلاده - واحتكم لدى المحاكم في الخارج حيث لا سلطان لزبانية النظام عليها، لحكمت لصالحه بدون أية صعوبة أو مماطلة، فالضرر بيّن، وصاحب الحق لا يسكت عنه.

تواصل مع المحامي الليبي الدكتور «سامي الأطرش» والمتواجد حينذاك باليونان، والذي لم توافق السلطات اليونانية على منحه ترخيصا يخوله مزاولة مهنة المحاماة باسمه مباشرة عندما حاول فتح مكتب قانوني خاص به، واحتدّت معه في شروط لا تجيز له مزاولة المهنة بطريقة مباشرة، أي بمعنى أن يعمل بالباطن مع المحامين اليونانيين، وفي ذلك إجحاف في حقه، وحصول للغير على ثمار جهده، وإن كان ذلك ما يشترطه القانون في أغلب الدول.

درس «الدكتور الأطرش » القضية ومستنداتها، ووجدها مضمونة النتائج في الغالب، ولكن العائق أمام رفعها هو الاحتياج لمبلغ مالي يستلزمه الأمر في شأن رسوم رفع الدعوي، والمصاريف الأولية للمكتب المحلي الذي ترفع من خلاله القضية، وتكاليف الانتقال والسفرإلى مدينة جنيف عدة مرات حيث مقر لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وهي المعنية بتقدير الأضرار وقيمة التعويضات، وقُدّر المبلغ الأولي المطلوب بحوالي عشرة آلاف دولار،،، ولكن وللأسف، فإن ذلك المبلغ اللازم لمباشرة رفع الدعوى، لم يكن متوفرا في حينها، سواء لدى المحامي أو عند موكله ..!،،

وبالتالي ، فقد اضطر المحامي لترك القضية لعدم توفر الإمكانيات، كما تراجع الموكل : « عبد الونيس» مرغما عن رفع الدعوى..!

وبالفعل، فقد كان الدكتور «سامي الأطرش» صادقا، لأن حصار اليونانيين من حوله حال دون حصوله على الترخيص لمزاولة مهنته على أرضهم، مما اضطره للرجوع للوطن بالفعل.

******

محاولاتي للتواصل معه في تيه الغربة

كنتُ قد حاولتُ، وعلى مدى سنوات طوال أن أعرف مكانه في المهجر، وقد سألت كل فرد التقيته ممن كانوا في المعارضة من الليبيين المغتربين، ولكن لم يعط أحدهم إجابة تدلني عليه،، لقد تحفظوا جميعا، والكل يجيب بأنه لا يعرف.

وقد أخبرني «عبد الونيس» عند عودته للوطن فيما بعد ، بأن من سألتهم كانوا جميعا يخبرونه بأنني أبحث عنه، فقد كان إذا على علم بذلك ... !!!

وعلى أية حال فإني لا ألومهم اليوم ولا ألومه،،، فقد كان الظرف حينذاك عصيبا، والخطر يحدق بهم من كل جانب.

وخطر على بالى مرة، في خلال فترة احتجابه تلك أن أكتب له رسالة، رغم أنني لا أعرف مكانه ولا عنوانه، لكني أفرغت ما امتلأ به خاطري وازدحمت به المشاعر، في مكتوب طويل يحتوي على ما أردت قوله منذ فرصة لقاءنا الأول والوحيد الذي جرى في أبريل سنة 1988 ، والتي قد قاربت عن عشرين سنة خلت. ..!.

و عندما أكملت الخطاب، قررت أن احتفظ به ريثما يصفو الزمان، وتتغير الأحوال، وقد نتمكن يوما من التواصل فأبعثه إليه ... واخترت لذلك المكتوب «المحفوظ » عنوانا فأسميته : (تواصل وجداني بعد أن عزّ الاتصال المكاني) ، ولما كان ما في الإناء يطفو، وكان الوجدان مزدحما صاخبا في تلك الظروف القاسية، فقد أفرغت على أسطره كلمات ملتهبة، و نحيبًا صامتا، و مناجاة تنطق وَلهاً بحبّ الوطن والخوف عليه.

ولعل من المناسب أن أنقل للقارئ هنا بعضا من فقرات ذلك الخطاب الطويل، لمجرد التّذكر لما كتبته، وللتعرف على ما كان يدور في التفكير،، ففي فترات غيابه سواء في السجن أوالمهجر، كان يسوؤنا واقعٌ نعيشه في الحياة اليومية وما كنا نجده ونلمسه من تدنٍّ شنيع في سلوكيات الكثير من الناس، واستعداد الغالبية للسقوط في أفخاخ الطمع والغواية وممارسة التّعصب والجهالة في فضائع التصعيد، ومهاوي مسيرات المبايعة والتأييد.... وقد كتبتُ في إحدى الفقرات مواسياً له، ومهنّئا في نفس الوقت على أن الله منّ عليه بعدم رؤية ذاك القَذى، فخاطبته قائلا :

(واظبت على قراءة كل ما كتبته في الخارج، وما تمّ نشره على " الإنترنيت " ابتدءا من ليلة مبيتك في طرابلس استعدادا للسفر في اليوم التالي، وارتدائك للحذاء الواسع بالخطأ - حذاء زميلك « موسي أحمد » الذي جاء لوداعك في تلك الليلة - ورغم معاناتك خلال السفر من عدم ملاءمة مقاس الحذاء الواسع لمقاس رجلك، إلا أن الشكر لله واجب على نعمة أنك لم تخرج من بلادك - على الأقل - حافيا...!!.

صديقي العـــزيز

لقد تجاذبتُ مع المرحوم والدي أطراف الحديث في وقت مضى حول ما يقع في بلادنا من إعدامات وسجون وتأميمات لأملاك الناس ،،، فقال لي : " إن هذا الوطن قد كلّف أهله أثمانا باهظة من الأرواح والممتلكات في عهد الاحتلال الإيطالي، واليوم وحسب ما أرى، فإني أقسم لك أنه سيكلف أهله نفس الأثمان الباهظة من جديد لكي يتخلص من هذا الكابوس الذي نعيشه ويصبح وطنا لنا من جديد ".

فلك الشرف يا صديقي أن تكون بِضعاً من ذلك الثمن، ولا غرابة في أن يضمّ حضن الوطنية واحدا ممن ازدانت بهم علوة (أم احنيّه) إحدى علاوى الجبل الأخضر في ليبيا فسقته من برّ الانتماء إليها عندما بدأ الحبْوَ فوقها، ثم الدّبيب على أديمها في أولى خطواته في هذا الكون.

أخي عبدالو نيس؛ كتب الله أن نعيش زمانا رأينا فيه الأفق يحضن ميت الطيور، والنّحل يلثم ميت الزّهر رغم ما قرره الشاعر« أبو القاسم الشابي » في قصيدته المعروفة التي تأثرنا بها جميعا في مستهل شبابنا " قصيدة إرادة الحياة " . فنعمة خروجك غير حافٍ من بلادك، رادفتها لك نعمة أخرى،- وفي اعتقادى أنك لم تشعر بها بعد - وهي أن سُكنى محبة الوطن في وجدانك أوجد لأهله في أعماقك رصيدا هائلا في تحسين الصورة المشرقة التي يعكسها داخلك، عن ودّهم وتميّزهم عن غيرهم، تفاعلا على الأقل مع ما تعلمناه وما سمعناه في الصغر من ملاحم البطولة والفداء في جهادهم - وهي حقيقة لا ننكرها، بل ونعتز بها ونعتبرها المعين الذي لا ينضب والذي يروي جذور نبتة انتمائنا - أعني ؛ أنك دخلت السجن يافعا مُفعما بتلك الصورة المشرقة، ورافقتك بقوة وفعالية في غياهب ظلماته طوال تلك السنين، فعفاك الله بتغييبك من رؤية الحقيقة كما كانت ظاهرة في بني قومك من ورائك ، واستعداد الكثير منهم للسقوط ،، تماما كيف ما استخفّ فرعون قومه من قبل في عهود غابرة فأطاعوه، كما أن هجرتك المبكّرة بعد الإفراج عنك قد أجارتك من رؤية الكثير من ممارساتهم... لقد كنت قابعا بالسجن ومستأنسا بإشراق الصورة في خيالك، ولما هاجرت مبكرا بعد الإفراج عنك، كانت تلك الصورة رفيقة وجدانك في صفائها مشرقة كما كانت ، ولم تعكرها تجارب المعايشة ومرارة المشاهدة اليومية وفقا لما كان واقعا في صدق المشهد الذي عفاك الله من رؤية ما لاتودّ أن تراه فيه. وثق أننا لم نحظ من بعدك بأي ميزة تعتبرها قد فاتتك سواء في تغييبك أو في غيابك.

وهانحن نرجو مع ابنة أخيك « راجيه» ... التي أتمنى أن تكون قد حصلت على (فراشة الشعر الحمراء) ،، أوعلى أقل تقدير، أن يكون قد حصل أحدٌ منا على ما يتمناه، فراشتها الحمراء في أمنيتها، أو أمنيتنا نحن في بلادنا،،، فكلٌّ من عالمه يتمنّى،، و يا لها من مقارنة..!!! فسبحان الذي أودع في كل قلب ما أشغله،

وكم سرّني عندما سمعت أنك تنزّهت ولم تأبه بإغراءات مصيدة (ليبيا الغد)، فليس مثلك من تغريه الجزرة !... طاب مسعاك، وهنيئا لعلوّ همّتك، و بورك ثبات مبادئك،،، فليست أمّ التاريخ ولودا، فإنجابها للرائعين قليل، وإخصابها بالخيرين من أبنائها محدود... فابشر بذلك ياصديقي، فلم يرُم الصّمود إلا طلاّب المعالي، وثق أن فهم عمق المبادئ عصيٌّ على غير القلّة من روّاده).

الفقرات السابقة عبارة عن أجزاء مما كتبته في تلك الرسالة التي كانت ترجمة حقيقية لما كان مهيمنا على مشاعري وقتذاك، وهي - وإن طال الزمن واختلفت أحداثه - اعتبرها مما صدقتُ فيه مع نفسي فيما بيّنت، استجابة لانفعالات شتّى وعديدة لما كنا نعيشه في وطننا في تلك الآونة ، وهو ما يصعب شرحه لمن لم يعشه أوعاصر أحداثه.

وكان مما تطرقت إليه في تلك الرسالة المطولة شأن يخص والدته، وأتبعتُ ذكرها في النّص بعبارة: (يرحمها الله) حيث أنها كانت بالفعل قد توفت قبل ذلك بزمن طويل، ولا أدري كيف غاب عني، ولم استدرك بأن الرجل ربما لم يكن قد علم بوفاة أمه من بعده،، وعلى أية حال ، فقد ظلت تلك الرسالة حبيسة بعد كتابتها مدة خمس سنوات ونصف تقريبا، تنتظر اليوم الذي أتمكّن فيه من التعرّف على مكانه.

وبعد انتفاضة ثورة 17 فبراير بسنة ونصف، التقيت بالأستاذ « مفتاح رمضان الطيّار» المعارض المعتّق، وأحد أقطابها القدامى، التقيته بدولة الإمارات، حيث جاءها من ليبيا في زيارة قصيرة،، وسألته - كعادتي مع كل من أصادفهم من أعضاء المعارضة - عن «عبد الونيس»، باعتبار أن التعرف على مكانه لم يعد اليوم سّرا، ولا يشكل خطرا عليه كما كان قبل أن يزول النظام، فوعدني بأن يبحث عن عنوانه ورقم هاتفه بمجرد وصوله إلى ليبيا، و سيطلعني على ما يتوصل إليه.

وبعد مدة شهر تقريبا، هاتفني قائلا: أنه تأكّد من أن «عبد الونيس » متواجد باليونان، ثم أرسل لي رقم هاتف أرضي في أثينا، موضحا أن ذلك الرقم قديم، ولا يعلم إن كان لا يزال صالحا للتواصل أم لا، كما أخبرني بأن «عبد الونيس » متحفظ في العادة، ولا يردّ على الهاتف كثيرا، وبالتالي سيكون الأمر مجرد محاولة قد يحالفها الحظ.

وبدأت سلسلة محاولاتي بإدارة قرص الهاتف بين الحين والآخر، طالبا ذات الرقم في (أثينا) دون إجابة من الطرف الآخر... حتى قارب اليأس أن يثنيني عن ذلك، ويقنعني بعدم جدوى التكرار فأضطر إلى ترك المحاولة من أساسها،،، ولكني كررت المحاولة في إحدى الأمسيات، وشعرت بأن أحدا رفع سماعة الهاتف من الناحية الأخرى، لكنه بقي صامتا مستمعا دون أن يتكلم ،، فكررت عبارة التنبيه الهاتفية.. (هالو.. هالو)، وإذا بصوت واهن ومتحفظ جدا يجيبني... وخوفا من أن يقفل الخط ، بادرته من جانبي قائلا بسرعة وتلهف: إن كنت أنت «عبد الونيس محمود » فأرجو ألا تقفل الخط ،، فأنا فلان ...

ومن حسن حظي أنه تعرّف عليّ و أجابني،، فالتقينا عبر الأثير..!

و استمر التواصل بيننا بعد ذلك بالهاتف، وبعثت له أخيرا بصورة من تلك الرسالة المحفوظة (التواصل الوجداني) والمكتوبة منذ خمس سنوات مضت !.

وعندما حان أوان نهاية الاغتراب (مع بداية 2014)، كان الأمر في خاطره يراوح بين الرغبة في الرجوع للبلاد وبين التّردد، نتيجة لما كان يسمعه عن سلبيات مشينة بدأت تظهر بجلاء بُعيد انتخاب المؤتمرالوطني، وبعد أن كُشف المستورعن نوايا أصحاب الأيدولوجيات العديدة والمتناقضة، وبان جليّا أن المسار قد انحرف....! وبدأ التاريخ يميل بأحداثه نحو النّهج الأعوج مرة أخرى، فجنحت الثورة الجديدة أيضا عن سبيلها كما جنحت الأولى سنة 1969 عن مسارها من قبل، ولكلٍّ أسبابها وحيثياتها بالطبع ...

ولكن سوءات الغربة ، وإطالة أمدها، وما قاساه فيها، وهبوب رياح خريف العمر، مع شظف العيش ومعاناة التشريد،،، كلها عوامل ولّدت ضغوطا بشكل أو بآخر،،، وما انفكّت تخلق لديه القناعة وتزيدها لحظة بلحظة، بأن يضع حدا فاصلا ونهائيا لكل هذا...

ولعله أدرك الاستنتاج المهم من دروس حياته بأن الانسان محكوم بين الحرية والضرورة أنىّ يعيش، فكما أنه لا يحيا بالخبز وحده، فهو أيضا لا يعيش بالورد وحده..!

وهكذا كان المَد والجزر في التفكير، حتى انتصرت الفكرة في خاطره عمّا سواها، فقرر الرجوع لبلاده بعد غياب طويل ، ومنذ تاريخ ابتعد أوانه عن الحاضر ،،، ولم يعد يذكره إلا القليل ....

(خمس وعشرون سنة وخمسة أشهـر) .....!.

وكما ارتفعت به طائرة الهجرة من بلاده يوم 14 سبتمبر 1988 م.

فقد حطت به طائرة الرجوع للوطن ،، يوم 24 فبراير 2014 م

كتب شيئا مما أحسّ به، و رآه لحظة وصوله إلى الوطن في ذلك اليوم فيقول:

(ثمة فرق كبير بين الغربة والمنفى، أعني ثمة فرق شاسع بين أن تعيش في الغربة وأن تعيش في المنفى، رغم أنك في كليهما تعيش غريبا وبعيدا عن أهلك ووطنك. ولكنك في الحالة الأولى (الغربة) تملك قرار العودة إلى أرض الوطن في أي وقت تشاء، عندما تشتد بك حمى (النّوستالجيا) ويطويك الحنين الجارف إلى مهد الطفولة ومراتع الصّبا والشباب.. في حين يتعذّر عليك في الحالة الثانية (المنفى) لأنك في الواقع وببساطة متناهية، مجرد لاجئ جاء يبحث عن ملاذ آمن من حاكم مستبد و ظالم،، مجرد طريد مثل عبد آبق مهدور دمه حيثما كان، وينبغي قتله دون خوف من مساءلة أوعقاب... وليس بمقدورك مجرد التفكير في الرجوع إلى ربوع الوطن قبل زوال الاستبداد والطغيان، وهو أمر مجهول يجعل جميع أبواب

الاحتمالات مفتوحة على مصاريعها... ويضعك تحت ضغوط نفسية هائلة لا حدود لها أمنيا واقتصاديا، ليلا أو نهارا ...؟!

وهكذا أمضيت خمسة وعشرين عاما من عمري في المنفى باليونان، في انتظار يوم طال انتظاره حتى أصبح قدومه على الصعيد الذاتي بلاجدوى... كنت خلالها مصداقا لقول المتنبي :

أعلّلُ النّفس بالأوهام أرقبُها ... ما أضيق العيش لولا فُسحةُ الأمل .

أجل،،، ربع قرن كامل من الزمن التهمت سنواته العجاف ما تبقى من كهولتي وقوّتي، قبل أن تتركني في أحضان الشيخوخة دون اعتذار، أو كلمة وداع واحدة لعمري الغارب....؟! ولم يبق في حوزتي في نهاية المطاف سوى أمل المتنبي... الأمل من أجل الوطن الحبيب وليس من أجل الذات الفانية التي طفقت تتلاشى تحت أعباء السبعين عاما ...؟!.

حين اندلعت انتفاضة 17 فبراير 2011م.... كان الأمل هو الخط الوحيد الذي مازال يربطني بالوطن،،، وأقول انتفاضة ولا أقول ثورة، لأن شروط الثورة الرئيسية الثلاثة لا تتوفر فيها:

1 – القيادة المسبّقة التي تخطط لها، وتحدد توقيتها، وتضبط مسارها، وتتولى قيادتها.

2 – البرنامج المسبق الذي يتضمّن النظام المدني الديمقراطي المعاصر، بديلا للنظام الديكتاتوري القائم.

3 – الثورة لا يصنعها إلا الفكر التقدمي المستنير الذي يتطلّع نحو المستقبل ، مواكبة لهذا العصر المتحضر المتنوّر .

ولعل أوضح ما في هذه الانتفاضة العشوائية الفوضوية، هو أنها بدون برنامج : لا مُسبق ولا لاحق، وأن قيادتها التحقت مصادفة بعد اندلاعها... كما أن بعض قياداتها كانت من رموز وقيادات النظام السابق .

ثم ازدادت وضوحا في انتفاء أي صفة للثورة عنها، عندما تبيّن لاحقا أن التيار الديني هو الذي كان يوجّهها سرا لصالحه، بمساعدة دول خارجية مثل قطر وتركيا والسودان، مكّنته من السيطرة على مفاصل الدولة مبكرا، حتى سقطت ليبيا كلها في نهاية المطاف لقمة سائغة في أشداقه...؟!

كل هذه الأفكار والرؤى والخواطر والهواجس عن المشهد الليبي العام الغامض بالخارج، والصور الضبابية عن حقيقة الوضع على أرض الواقع بالداخل،، وخاصة المصير البائس

والمجهول الذي بات واضحا أن بلادنا راحت تنحدر إليه حثيثا وعلى نحو مفجع لأبعد الحدود... أجل، كل تلك الأفكار والظنون كانت تضطرم في أعماقي على نحوٍ ما من سبيل إلى تصويره الآن،،، ومعها أسئلة كثيرة أخرى حائرة وتائهة بلا إجابات عن دروس مستفادة ضائعة من سنوات القهر والقمع والاستبداد على مدى ما يزيد على أربعين عاما، عن شهداء ضاعت أرواحهم أدراج الرياح،،، عن دماء مازالت تسيل وتسفك كل يوم بلا مبرر واحد معقول،، عن أموال تُسرق و تنهب يوميا وتضيع هدرا بغير حساب ،، عن أغبياء يدمرون وطنهم بأيديهم ثم يتهمون الآخرين أو يلعنون الغير،، عن سنوات الجمر ومعتقلات الموت الرهيبة بالداخل، والتصفيات الجسدية خلال أكثر من أربعة عقود من الزمن ... وعن الحلم الذي تبدّد بإقامة البديل الديمقراطي على أنقاض النظام الاستبدادي،، وهو المُسوّغ الوحيد والمشروع لانطلاق أية انتفاضة شعبية أو ثورة على الإطلاق و عبر التاريخ البشري كله... فمن العبث أو الجنون أن ينتفض شعب ما، أو يثور ضد نظام شمولي أحادي الفكر كنظام القذافي، لكي يحل محله نظام شمولي آخر إحادي الفكر كأي نظام ديني (ثيوقراطي) لأن جوهرهما واحد،،، ألا وهو الاستبداد..!.

كانت هذه هي الخواطر والهواجس والأسئلة الحائرة التي تدور في ذهني بغير ما انقطاع وعلى نحو موصول من مطار أثينا إلى مطار عمّان، إلى مطار بنينه... وأعترف الآن بالعجز عن التعبير، وبأنه ما من سبيل ممكن لتصوير تلك المشاعر الفياضة، والأحاسيس الذّاتية والموضوعيّة،، النّفسيّة والوطنيّة التي كانت تضطرم وتمور في أعماقي في تلك اللحظات الغريبة والنادرة من حياتي عندما كانت الطائرة تحلق في سماء بنغازي، وهي تستعد للهبوط بمطار بنينه وقت الظهيرة... لحظات نادرة حقا وجميلة ورائعة،،، ولكنها كانت ممزوجة بمرارة الغربة ولوعة الغياب.. ومُترعة بالألم وأحزان الفراق وأشواق السنين الموؤودة بلا رحمة في تراب المنفى، والتي تستعصي الآن عن الوصف والتعبير والتصوير... هل من سبيل للجمع بين الضّدّين لكي يصبحا شيئا واحدا...؟! هل من لغة جديدة تجمع بين النقيضين في كلمة واحدة يختفي فيها التناقض..؟ أنّى لي بتعبير واحد جامع يصوّر الفرح والحزن في آن معا...

أعني هكذا بالضبط،، كنت إذّاك أشعر بالفرح والحزن في وقت واحد،،، أشعر بالفرح وأنا أعود إلى أرض الوطن بعد غياب عنه دام ربع قرن من الزمن،، وأشعر بالحزن وأنا أعود إليه وهو يتشظّى ويتمزّق إربا بين المليشيات والعصابات،، وينتظره مصير غامض ومجهول...

كم تمنيت في تلك اللحظات النادرة التي هزّتني من أعماق أعماقي، وبعنف يفوق الوصف والخيال،، كم تمنيت حقا أن أردد مع ذلك الشاعر العربي الذي عاد يوما من منفاه إلى وطنه الحبيب بعد غياب عنه طويل،، عاد إليه مزهوّا وهو ينشد:

أعود،، والعـود أحمد..

أعـود عودة السيف إلى غمـده والحر إلى عـرينه ،،

وعـودة الوالـد إلى فلذة كبـده والمؤمن إلى كعبة دينه.

ولكن الإحباط، وخيبة الأمل الكبيرة التي كانت تعصف بي جرّاء المشهد المأزوم والصراع الدموي وانسداد الأفق، والمستقبل المظلم الذي ينتظر بلادنا، جعلتني أقطع حبل أفكاري وأخنق هواجسي وألوذ بالصمت المغلف بالذهول، إلى أن صفّق الأطفال فرحا حين لامست عجلات الطائرة مدرج المطار،،، وشرع الركاب يتبادلون التهاني بسلامة الوصول.

حين نزلت من الطائرة أصابتني الدهشة من منظر مطار بنينه البدائي،،، إذن مازال مطارنا البائس القديم مثل (شارعنا القديم كما يقول أولاد بنغازي)، مازال المسكين على حاله كما تركته لم يتغير، وكما عرفته قبل أكثر من نصف قرن من الزمن... شيء لا يصدق، مقارنة بمطارات العالم الحديثة، وبوفرة المال لدينا...ولكن لا وقت الآن للتأمل أو النّقد أو حتى للتفكير، فهناك إبنا أخي عبدالعزيز (عادل و محمود) في انتظاري، وهما وحدهما من يعرف بقدومي حسب ما طلبته منهما قبل الشروع في رحلة العودة بأن لا يخبرا أحدا إلا بعد وصولي لأرض الوطن، ويتعين عليّ الآن أن أعود بذاكرتي سنينا طويلة إلى الوراء، وأن أبذل جهدا ذهنيا مضاعفا لتصوّرهما والتّعرّف عليهما من بين المستقبلين، بعد أن تركتهما صبيين صغيرين قبل أكثر من ربع قرن من الزمن..

وعندما لاح صفّ المستقبلين عن بُعد خلف منصة الجوازات، شرعت أركّز ما تبقّى من نظري وأتفرّس مليّا في الوجوه التي تتطلع نحو القادمين باهتمام شديد،،، ولكنني رغم كل الجهود المضنية والمخلصة التي بذلتها، فشلت في نهاية المطاف فشلا ذريعا في التعرف عليهما،، كما لوكان ذلك الفشل يمثل خاتمة الفشل في حياتي البائسة...؟!.

لم أعرفهما لأن الصّبية أصبحوا رجالا، بهيئة أخرى غير التي كانوا عليها حين هاجرت،، ولم أتخيل في أيّ منهما كيف هي هيئة الرجل الجديدة .... في حين تمكن كلاهما من معرفتي بمنتهى السهولة ودون عناء يذكر... وتدفّق بيننا فيض المشاعر بلا انقطاع، وعلى نحو موصول طوال طريق طوله أكثر من مائتي كيلومتر من(بنغازي إلى شحات)، وخلال منعطفاته الخطرة ودروبه الملتوية كالثعابين عبر وديان و غابات الجبل الأخضر التي تتعرض للإبادة على نحوٍ فظيع،،، و هالني حقا ما رأيته من دمار لغابات الجبل الأخضر يندى له جبين الحضارة والمدنية والإنسانية...؟!.

وعقدت مقارنة سريعة بين ما كنت أشاهده باليونان من حرص شديد على ثروة الغابات رغم مساحاتها الشاسعة، وبين هذا الإعتداء الهمجي الذي أشاهده أمامي على إحدى ثرواتنا الوطنية، وهو نفس الشعور بالحسرة وبشيء من الذهول لمّا رأيت فيما بعد، حجم الدمار الذي

حلّ بآثار مدينة شحات (قورينا) الخالدة،،، أيقونة العلماء الباحثين، وجوهرة التراث العالمي الإنساني، وعاصمة المدن الخمس (البنتابولس).

لقد اعتاد ـ وفي كل مراحل العمر ـ أن يستعجل مروره في الطريق كلما قصد قريته، إذ يسوقه شوق جارف للقاء والدته، كي يراها ويسعد بلقائها، سواءاً في :

- طفولته راجعا من المدرسة الداخلية في مقتبل العمر.
- أو في شبابه قادما من الكلية العسكرية، ومن مقر عمله بها.
- أو عند رجوعه من أي سفر قاصيا كان أو قريبا.
- أو بعد عذابات السنين الطوال في سجنه ، وخروجه من بين فكّي الموت من سجن الحصان الأسود سنة 1988.... ولقد آنس طيلة العمر، أن يكون :
- لقاؤها قِبلته بعد كل غياب..
- واحتضانها ارتوائه من كل ظمأ..
- وجوارها مصدر طمأنينته..

فهي منشأ التّكوين،، وهي العشّ الحاضن،، والملاذ الآمن. كبُرت سنه، ولم يتحرّر من مهد أمومتها، ولم يزل لرأسه بين يديها في كل لقاء ملجأ.

لقد كان لرجوعه (لعلوة أم احنية) دائما طعما خاصا به وحده لا يشاركنه فيه أحد،،، أما في هذه المرّة فلن يجده للأسف...! وكيف له أن يجده وقد انطفأت منارته،،، فلن تخرج أمه اليوم من المنزل لاستقباله كما تعودت، و لن تكون هناك مدى الحياة... ؟ فلن يشتمّ رائحتها اليوم، ولن يشمها مجددا أبداً،،،

- كان يُتمه المُبكر من أبيه مُعوّضا بها.
- ويتمه في سجنه الانفرادي بانتظار الموت مُستأنسا بأمل الرجوع إليها.
- و عُقمه الإجباري ـ طوال العمر ـ مُستخلفا بحنانها... وأما اليوم ، فقد تكامل يتمه الحقيقي، وأطبق عليه من كل الجهات،، وها هوذا في السبعينات من عمره يتيما بحقّ.....!.

ويقول واصفا بنفسه تلك اللحظات :

(كم قهرني الزمان فيما مضى بسوءات مريرة عشتها، لكن فقد أمي أصابني في مقتل، وهو أكبر هذه السّوءات وأبلغها، وأمضاها..

لقد كانت اللّواعج الحارقة بسبب فراقها تعصرني إلى حد يفوق التصور طوال الطريق من بنغازي إلى قريتي.

وعند الاقتراب - ولأول مرة في العمر - حاد طريقي عن الدّرب المعتاد نحو بيتنا، كي أقصد مهجع الرّقاد الأموات في مقبرة (بو بجّوده) ببلدة شحات، حيث استعجل رحيل والدتي، وحُملت إلى مثواها الأخير بها قبل رجوعي للبلاد بزمن بعيد...!

فطلبت من (عادل و محمود) أن يمرّا بي أولا على المقبرة، حيث ترقد أمّي منذ عشرين عاما معمّدة بحزنها ودموعها وعذابها في نومها الأخير الأبدي،،،

احتوانا في البداية صمت ممزوج بالخشوع ، ثم قال محمود :

« كانت بالنسبة لي الجدّة والأم في وقت واحد » ، وقال عادل : « أعطتني ما عندها من حليّ الذهب لكي أشتري بثمنه سيارة أذهب فيها إلى الجامعة بدلا من الوقوف على قارعة الطريق في انتظار سيارة أجرة غير مضمونة المواعيد، أو فاعل خير قد يأتي وقد لا يأتي،، وكانت لا تنام إذا ما تأخرت بسيارتي ليلا إلا بعد أن أعود ، وعندما بدأنا ندخل مدينة شحات من حدودها الغربية، داهمني شعور جارف بالحنين إلى الماضي، وعلى غير انتظام ازدحمت في الذاكرة صور شتى من الماضي والحاضر معا..! لحظات مشحونة بالرهبة والعواطف الجياشة، وقد هزتني من أعماقي بعنف شديد ليس إلى تصويره الآن من سبيل... وتوقّف كل شيء إلا نبضات القلوب .

دخلنا المقبرة بهدوء وصمت ووقار، ومطرقين خاشعين أمام رهبة الموت وجلاله، ووسط قبور مسّها الموت تباعا فصعدت أرواحها مجنّحة إلى السماء وإلى جوار ربها إلى يوم البعث والنشور...

كنت أسير خلفهما واجما عبر ممرات المقبرة الملينة بالأعشاب،، إلى أن وقفا بهدوء أمام القبر مباشرة،، وشرعا على الفور بقراءة الفاتحة،،، ثم انسحبا بعيدا وبهدوء أيضا وبحزن جليل صامت،، وتركاني وحيدا أواجه قبر أمي، لكي أناجيها وأسفح أمامها حنيني وأشواقي بحرية، وأعتذر لهاعمّا سبّبته لها من آلام ومن عذابات السنين الطوال... وأطلب منها أن تسامحني، ومن قلبها الطيب أن يصفح عني، وهي الودود التي لا تعرف غير العطاء، وصاحبة القلب الكبير النّابض بالحب على الدوام،،، وأخيرا ولكي أذرف أمامها وحيدا ما شئت من الدموع عرفانا بعطائها ووفاءا لحبها ووداعا لرحيلها.....؟!.

أجل، هذا الرحيل الذي قرأته بصعوبة بالغة وسط فيض الدموع مكتوبا على قبرها وهو عام 1994م. ،،، إذّاك بالضبط عرفت حقيقة مؤلمة وحزينة كنت أجهلها زمنا طويلا، وهي أنني لم أعرف بوفاة والدتي إلا بعد مضي ثمانية عشر عاما على وفاتها،،، وكان ذلك مصادفة عام

2012م. وأنا أعيش بالمنفى باليونان، حيث خاطبني الصديق « محمد عبدالله حنيش » في رسالة مطوّلة تطرّق فيها إلى ذكر اسم والدتي، وألحق الإسم بعبارة (رحمها الله)، على اعتبار أن الخبر قد صار معروفا، ولا بد أن يكون قد وصلني منذ سنوات عديدة... ولكن الحقيقة التي اتضحت لي فيما بعد، هي أن الجميع كان يزْوَرّ وينأى بنفسه عن إخباري بخبر محزن وفاجع كهذا....!!. ولعل هذا يقودني الآن إلى القول بأنني بقيت إثنين وعشرين عاما من (1989 إلى 2011) في حالة انقطاع تام عن أسرتي، لم أتواصل خلالها معها لا من قريب ولا من بعيد، ولا يعرفون مكاني ولا في أي بلد أعيش،، وإنما كنت أكتفي بتسقّط أخبارهم عن بُعد، دون ترك أي أثر يقود إلى ما بعده... وهذا يُعرف أمنيا : بالعمل المضاد للمخابرات،، أي قطع السلسلة المترابطة عنها، لكي لا تتمكن من متابعة الحلقات المتصلة ببعضها حتى تصل في النهاية إلى هدفها..

وفي ذلك الموقف الحزين أمام قبرها، حضرتني بعض أبيات متفرقة للشاعر «محمود سامي البارودي » نظمها في رثاء أمه، تذكرت بعضا منها، وأسوقها هنا على نحوٍ متفرّق دون انتظام حسب ترتيب أبيات القصيدة :

لعمري لقد غـالَ الـرّدَى من أحبُّـهُ — وكان بــودّي أن أموتَ و يَسْلمـا

وأيُّ حيـاةٍ بعـد أمٍّ فقدتُـها،، — كما يفقد المـرءُ الزُّلالَ على الظَّمَـا

وكانت لعيني قُـرّةً و لمُهجـتي — سـروراً، فخابَ الطّرفُ والقلبُ منهما

وقد كنت أخشى أن أراكِ سقيمَـة — فكيف و قد أصبحتِ في التُّربِ أعظُما ؟

فيا ربّةَ القبـر الكريم بما حَوَى — وقَتْكِ الـرّدى نفسي وأين ؟ و قَلّمـا

وهل يستطيع المرءُ فِديَة راحلٍ — تَخَرَّمَهُ المِقدارُ فيمـن تَخَـرّمـا ؟

سَقَتْكِ يدُ الرّضوان كأسَ كرامةٍ — من الكـوثر الفيّـاضِ معسولةَ اللّمـى

فوالله ؛ لا أنسـاكِ مـا ذرَّ شـارقٌ — ومـا حـنّ طيـرٌ بالأراكِ مُهينِمَـا

عليك سـلامٌ لا لقـاءةَ بعـده — إلى الحشـر إذ يلقى الأخيـرُ المُقدّمـا.

وبعد،، هاأنذا أودع قبر أمي التي ترقد هنا منذ عشرين عاما،،، ودموعي ما جفّت ولن تجف... ونظراتي وحدها بلا جدوى بدون نظارات،، وخطواتي ثقيلة مرهقة، ومع الشيخوخة ستزداد،، وليس في جعبتي عائدا بعد التّيه في المنافي غير حصاد مرّ من الفشل.

لقد تساوى عندى في تلك اللحظات الحزينة البائسة، أن أعود من غربتي الطويلة مناضلا أو شريدا خاسرا .. لا فرق على الإطلاق. فما زلت في حضرة الموت والفناء والسكون داخل المقبرة،، مما جعل الإحساس عندي بتفاهة الحياة والاستهانة بها يطغى على كل ماعداه...

ولازمني حقا هذا الإحساس الغريب الطّاغي، إلى أن غادرت المقبرة، ولسان حالي يردد مع «سليمان الحكيم» :

(الكلّ باطل ، و قبض الرّيح ...) !.

*****

الخـاتمـــــة

تم اللقاء بيننا كما أشرنا من قبل، في يوم 2015/10/28 بمقر سكنى عائلته بعلوة (أم احنيّه)، حيث أمضينا أوقاتا طيبة وممتعة عبر أربع أمسيات طويلة وحافلة بالنقاش في شتى المواضيع، كانت إحداها في ضيافة عائلة (الأربد) الكرماء بمدينة شحات، حيث اجتمعت العائلات الثلاثة مباشرة في وقت وفي مكان واحد وفي أمسية رائعة ، بعد أن كان من المستحيل تحقيق ذلك اللقاء في وقت قد مضى.... لقد التقى الجميع يوم 2015/11/1 في بيت الصديق « مبارك الأربد » الذي كان له الفضل في تعريفي لأول مرة باسم « عبد الونيس محمود » في منتصف ستينات القرن الماضي..!!.

وهناك تأكد لي مصداق القول الصادر عن أحد معارف «عبد الونيس» القدامى، الذي عبّر حسرةً في زمن اختفائه بالقول : (من سبق له أن عرف «عبد الونيس » من قبل، سيندم لأنه عرفه)، بمعنى أن غيابه عن الأنظار صعب على من كان يعرفه ..!

أما في جلسة الليلة الأخيرة من أوقات ذلك اللقاء الممتع بمنزل عائلة «عبد الونيس»، طلبت من الحاضرين معي أن نفسح له المجال لأكثر وقتٍ ممكن لنسمع منه كل ما لم يفصح عنه من قبل ، فالرجل كثير الإخفاء لبعض التفاصيل المؤلمة في السّيرة، خاصة الجانب الشخصي والعاطفي ، رغم أن قلبه مشرعٌ على مصراعيه للوجع بدون شك، لكنه أخفى كل ما في مضمون الذّات الخاصّة، لقد تشبّعت حصيلته بقضية الوطن فهيمنت على ما سواها، أو أن انعزاله وغربته، ومثالب المعتقل وآلامه، أو اكتشافه لاحقا أن المجتمع الذي حفظت له الذاكرة صوراً مشرقة ومُبهجة قبيل اعتقاله ، قد اعتراه انتكاسٌ مُحزن لما وجد عليه حال الناس و تصرفاتهم بمجرد أن بُعث للحياة الاجتماعية من جديد، سواء إثر تخطيه بوابة السجن، أو بعد رجوعه من تيه الغربة...

وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة قد اختزلت كل المشهد، ولم تعد تسمح لسواها بالظهور.

واستخلاصا من الحديث، فقد حاولت أن أربط بين ما في تلك الملحمة الفريدة من مواقف وتفاصيل، وبين الشخصية التي أمامي، والتي شغلتُ نفسي بها و بسيرتها سنينا طويلة ، ولكن ثمة توازٍ في الخطوط رسم به «عبد الونيس » حيّز مساحةٍ تقيّد اقتراب الآخرين منه ، فأحسست بشكل ما أن ثمة مكنونات بالخاطر، وأن أمورا عظيمة موغلة في هولها : سجنا وتعذيبا ومهانة هاله أن رآها،

ومن بعدها غربة قاتلة موحشة ، أو فوق كل ذلك ما يقصد أن يخفيه على الناس فيما يحسه من حرمان من حقه البشري في تكوين أسرته الخاصة مع زوجة سبق وأن اختارها قبل السجن ، وقد راودته أحلام اليقظة بآمال كثيرة بالعيش الهانئ قبل المحنة، فحرمته الأيام في سجنه، وأحكمت موانعها وضاعت أمانيه ،، بل وكم تخيّلتُ حجم الألم الحبيس في ثنايا وجدانه من أحاسيس دفنها وأداً و قِسرا، يكبّلها قيدُ حرمانٍ صَلدٍ لا ينفكّ ولا ينكسر،،، وعلى طول الزمن... وما أصعب مقاومة الإحساس فينا....؟!. لقد قاسى في تلك التضحية هجيرا حارقا لم يعرفه أو يحسّ به أحد غيره، وحده قاساها، وفي أعماقه اختزن مشاعرها، وكأنها صُبّت كلها في حضن يومٍ حجبت الغيوم شمسه ،،!

بلا شك،، فإن فيض تلك المشاعر مجتمعة، قد تزاحمت في حيّزه البشري، فاعتصرته ردحا طويلا من الزمن، ثم استقرت في اللاشعور وآثرت سُكنى الباطن، وبالتالي أحسست بأن الرجل لا يزال يطوي الكثير في داخله من مواقف وأحداث لا يريد أن يعيد استذكارها، أو أنه قد أُسقط في يده ممّا وجد عليه الناس - الذين قاسى من أجل قضيتهم - سلوكا وتصرفا فيما كان عليه الحال بعد اختلاطه بهم ،، مصداقا لقول الشاعر معروف الرّصافي:

لا يخدعنك هتاف القوم بالوطن فالقوم في السّر غير القوم في العلن... !

وفي الدقائق الأخيرة من تلك الجلسة، حيّرني عجزُ التفريق بين أيٍّ من الاحتمالين يرجع استنتاجي؟... وأردت أن استوضح الأمر بطريقة مباشرة، فقذفتُ سؤالا صعبا ومحرجا، وأعترف الآن بأنني لم أتمهّل للتفكير فيه جيدا قبل طرحه أمام الحاضرين ، كما لم يكن ثمة داعٍ لطرحه من الأساس في وجودهم حسب تقديري الذي جاء متأخرا،،

سألته قائلا: وبعد كل هذا،،، هل يعتريك اليوم أي شعور بالندم حيال أي شيء؟؟

وفجأة،،، ظهر عليه ردّ فعل فسيولوجي واضح، وأدركت أني قد نكأت جراحا غائرة... لقد تهدّج صوته، وبدا وكأن ثمة تضخّم قد طرأ على وجهه النحيل الشاحب ،،، فامتقع ،،، وتدفّق فيه احمرارُ دمٍ لا أدري من أين جاءه... وهو على ذلك الذّبول والشحوب ؟! ،،، و احمرّت عيناه استعداداً لسَحّ ما تبقّى بهما،،، لكن رصيد الإباءِ المتأصّل بالجوانح قفل مجاريهما، أو كما حَسبتُ: فإن ما تبقّى بهما كان قد تحجّر منذ زمن ولم يعد فيهما ما يسيل..!! لقد كان للذاكرة وشمٌ بيّن على جدار العقل...!

يا إلهي ما أمرّ الحياة أحيانا ...؟!

يقول مثل فرنسي : (الحياة كالبصلة ،،، عندما نفتحها تنهمر الدموع ...!).

حينذاك،، استشعرتُ حجم المرارة فيه بكل الأبعاد، وقد تزاحمت أمواجها بخاطره ، ولكنها آثرت الجَزْر... فاختفت بداخله كما كانت تألف ، ومنذ نصف قرن من الزمان..؟! فأشفقتُ عليه، و

ظننت أن سؤالي كان خاطئا ... و نهضنا بعدها للانصراف بعد جلسة ليلية طويلة، وخرج معنا وأخواه لتوديعنا،، وبعدما استوينا في الركوب، التفتُ إليه لأبثّ شعوري بالأسف عن سؤالي الجارح وما سبّبه له من إثارة شجون جارفة، ولكن السيارة كانت قد باشرت حركتها، و مع سرعة انطلاقها، فإن انسياب الظلام أيضا كان قد قفل المشهد.

تركته وقد اعتراني النّدم على سؤالٍ آلمه،،، كما آلمني أنا أيضا من بعده وبشدة... ورغم ذلك ، فإن حاجتي لمعرفة أيّ من الاحتمالين أثّر في عمق الرجل إلى هذا الحد الذي أراه واضحا، أضحت ملحّة، وتشغلني بصفة مستمرة، وصمّمتُ على إتيان المستحيل معه لاستجلاء الأمر عاجلا أم آجلا، رغم عناده وصعوبة مراسه الشديدين، لأن السؤال الحائر ما انفكّ يتردد في ذهني، وكان لزاما أن أسعى معه من جديد للحصول على الإجابة اللازمة :

ولكن متى و كيف .....؟

كان الطريق في الظلام يتلوىّ أمامنا، وبالكاد يتتبعه ضوء مصابيح السيارة ، وكان رفاقي يتناقشون في أمور أخرى ، لكني كنت لا أزال أعيش الموقف، وما دار في تلك الجلسة، واستذكر الأحداث والتواريخ والمواقف ، وما قال الرجل وما لم يقله ،، وما كتبه وأفصح عنه، وما لم يكتبه... وخاصة خسارته في تكوين أسرته الخاصة التي كانت على وشك أن يبنيها، حيث حطّمت أحكام الإعدام و جدران السجن الصّلدة، وتوالي السنين، وأحاسيس اليأس بالنجاة من الموت، حطمت كل معقولية تُتصوّر ، بأي أمل كان في خروجٍ له غير متوقَّعٍ على الإطلاق من ذاك السجن حيًا.

وجدتني وأنا قابع في كرسي السيارة الخلفي في تلك الليلة الظلماء أردّد مع نفسي لحظتها بيتًا من الشعر من قصيدة عاطفية للشاعر بشارة الخورى «الأخطل الصغير » يقول فيه :

قل للدّجى : مـــات شهيد الوفـــــا و انثُرْ على أكْفـــانِه أنْجُمَــك.

و رجعت إليه بعد ذلك بثلاثة أشهر ،،

وفي نيّتي أن أفلح هذه المرة في إقناعه بأية وسيلة ، ليجيب على استفساري عن النقطتين اللتين انفضّ اجتماعنا الفائت بدون التوصل إلى بيان واضح في شأنهما،، وهما:

الأولى : ما يحسّ به اليوم على ضوء ما وجد عليه الناس والبلاد بعد رجوعه، و عمّ إذا كان قد اعتراه النّدم بشكل أو بآخر، تجاه ما لقيه من صنوف العذاب والتشرد والاغتراب فيما مضى في سبيل قضيتهم ؟. وهم على هذا الحال من الانقسام والتشرذم، وفقدان الحد الأدنى من الثقة فيما بينهم، حتّى وصل بهم الأمر إلى التّشظّي وانعدام التوافق، وكان سببا قويا للإنقسام والتّناحر، وممارسة السياسة بالعند والتّشنج،،، وتلك أزمة حقيقية ومستفحلة.

و الثانية : هي البحث في المسألة الشخصية (العاطفية الخافية) التي ضاعت مع الأزمان، وبعثرت جمال ألوان صورتها أحداث سجنه واغترابه... ؟

كنا في تلك الجلسة وحدنا، وأحسب أن ارتياحا ما قد انبسطت به الأسارير، فقرّر ساعتها أن يجيبني ... أما عن الاستفسار الأول، فقد أجاب ببساطة وانسياب تام،،، مبتدئا التوضيح عن حيرة تدور بخلَده فيما يبدو، ومنذ فترة، فأحالها عليّ قائلا:

(بالفعل... يظل السؤال ضاغطا وحادّا، وبدون إجابة شافية وقاطعة،، وخاصة عند مقارنة حالي اليوم مع الآخرين ، إذ تشاهد أن من بين أبناء جيلك الذين كنت تلعب معهم، من لم يعرف المدرسة إطلاقا، أوالبعض ممن قد نال قسطا متواضعا أو بسيطا من التعليم، ولكنهم يعيشون الآن جميعا سعداء، وفي سعةٍ ورغد من العيش.

فتسأل نفسك أين أنت اليوم من هؤلاء....؟

إذ لم يدر بخلدي حينذاك على الإطلاق، بأن ستكون بانتظاري سنوات طويلة وحزينة ستضيع هباءً منثورا من عمري وراء القضبان... و أن زهرة شبابي ستذوي في غياهب السجون وظلام الزنازين،،، ثم تتلوها بعد ذلك مباشرة سنوات طويلة أخرى مُغتربا، ومتنقلا تحت خط الفقر والفاقة بين خيام اللاجئين وأقبية الغربة، وهي سنوات الكهولة اللاحقة من عمري الغارب، والتي حملتني معها زمنا طويلا في غمرة البحث عن لقمة العيش، والعمل في صفوف المعارضة في المنفى من أجل الوطن وحقوق الانسان ودولة المؤسسات والدستور والقانون وإقامة البديل الديمقراطي... حتى وجدت نفسي أخيرا، ودون أن أدري، وجها لوجه أمام شبح الشيخوخة المخيف...؟. وتواجهني الحقيقة المرة بأن النتائج المحققة من وراء كل ذلك العناء وتلك التضحيات لم تزد عن رقم (صفر) كبير.!

وحين حان موعد رجوعي إلى أرض الوطن بعد ثورة فبراير التي سُرقت أو اختُطفت، والتي أكلت أبناءها ونصّبت أمراء حربها، وصنعت طواغيتها، ووعّاظ سلاطينها، وتحولت إلى لعنة حقيقية وإلى كابوس مرعب يجثم على صدور شعب بأسره،،، فوجدتُ الوطن مجرد أشلاء يتشظّى إلى عصابات إرهابية ومليشيات مسلحة، ودويلات مدن وقبائل، ونهب للمال العام والخاص وسلب وخطف وسبي وقتل وذبح...

عدتُ في شيخوختي ونهاية عمري، وبعد عذابات السنين الطّوال إلى أرض الوطن وقد ضاع كل شيء .... الإنسان والوطن في آن معا،،، أجل، عدت في نهاية المطاف مجرد أشلاء وبقايا انسان، يقف ذاهلا وسط أشلاء وبقايا وطن في المشهد الليبي المأزوم الذي يدعو للحزن،،، وكان جديرا بمن يراه أن يتّخذه عبرة و مثالا لكي يتجنب مصيره.

و كم من مرة تساءلت بيني وبين نفسي: هل كان شقائي بسبب قرار والدتي الصائب بإدخالي المدرسة لكي أتعلم، لأني كنت الأصغر سنا.....؟ في حين حرم الاخوان الأكبر مني :

(عبد الحفيظ و عبد العزيز) من التعليم لكي يقوما بمساعدتها في كفاحها الشاق من أجل توفير لقمة العيش لجميع أفراد الأسرة،،،

لا جدال أن التعليم يقود إلى النور والمعرفة، ويفتح أمامك آفاقا رحبة من مناهل العلم ويزيد مداركك اتساعا، وعقلك رجاحة وحكمة،،، واكتشف علم النفس أن التعليم والثقافة والمعرفة تمنحك ذكاءً جديدا مكتسبا إضافة إلى ذكائك الفطري، ولكن محصّلة ذلك كله يتأثر سلبا بالبيئة الاجتماعية المحيطة،،، فإذا كنت تعيش وسط مجتمع بدائي الثقافة ومتخلف، وتتناقض أفكاره القديمة البالية مع المستنير والمعاصر، المتقدم والمتطور، حتى وإن ركب أفراده أفخر السيارات وسافر بالطائرات، ويقطن المساكن الفارهة بسبب توفر المال، بينما تقبع المشكلة الحقيقية في عمق العقلية والذهنية ذاتها، كما في المجتمع الليبي بشخصية منفطرة مع ذاتها ومتناقضة كليا مع الواقع الذي تعيشه علميا وماديا وحضاريا، ومحصلة كل هذا وتأثيراتها على الصعيد الشخصي، هو الإحساس بغربة ثقافية قاسية أعيشها الآن...

وإذا ما عرفنا أنني عشت أكثر من ربع قرن من الزمان في المنفى باليونان خلال فترة المعارضة، وهو بلد أوروبي صغير يبذل قصارى جهده على كافة الصّعُد من أجل اللحاق بركب التقدم والحضارة، وشاهدت الفرق الكبير بنفسي بين يوم دخولي إليه ويوم خروجي منه... إنني أتذكر ذلك جيدا، وأنا أعيش الآن ببلادي وسط بقايا وأنقاض وركام دولة فاشلة، مع انهيار الآمال والطموحات خلال سنوات المعارضة الوطنية في إقامة البديل الديمقراطي،، وبالتالي، شعرت بعد رجوعي لبلدي بأن غربتي ازدادت قسوة و قتامة...؟

وقادني هذا النوع من التحليل إلى السؤال الصعب على الإطلاق،، وقد أتحدث فيه طويلا في محاولة للإجابة عنه، بدون القدرة على توصيل الفكرة التي أود أن ينجلي مفهومها، ولن تُفهم كما ينبغي... إذ لا أستطيع اليوم أن أقدّر قيمة ما أعطيت،، وهل أوصلت رسالتي كما يجب...؟ فهذه وبدون شك لا تخضع لتقييمي،،

ومن خلال القراءات والتجارب وشتى المواقف فإن مواصلة المرحلة من عدمها، و قيمة جدواها، وثمرة نتيجتها قد طرحها تصوير درامي روائي لأحد المناضلين، وفيه يعتبر أن المناضل لابد أن يقدم على إخراج قلبه من صدره ليجعل منه شعلة تضيء الطريق لكي تصل بلاده إلى المرحلة التي تجتاز بها ما يعيق الوصول إلى ما يتمناه لها ،، ولكن ليس أمامه إلا أن يحترق كي يحقق الهدف.

ولكن السؤال الخاص بي اليوم هو، إلى أين وصلت بلادي.. ؟ فالمأساة في حالتي أنني - و بعد نصف قرن - قد وجدتها أسوأ مما كانت عليه في البداية.... و حين ذاك ظهر السؤال الصعب الحائر إليّ بصيغة أكثر إحراجا وهي: ماذا قدمت لبلادك بعد كل هذا ؟. وماذا استفادت منك.؟ وماهي النتيجة...؟

وكما نعرف، فإن رموزا في تاريخنا كان عطاؤهم مشهودا، وسأضرب لك مثلا باثنين من رموزنا الوطنية لأولئك المناضلين على سبيل المثال : فأنا لم أكن أعرف من قبل حقيقة « الملك إدريس » كرمز من رموزنا الوطنية كما كان يجب ، ولكنني صرت أعرفه الآن جيدا، وأبصرت كيف استطاع أن يبنى الدولة من عدم، ولكن وفي المقابل، أنظر إلى الجحود الذي قوبل به، وكيف كانت نهايته كما رأينا،،، وبماذا كوفئ...؟!

كما أعتقد أن «عمر المختار» كان محظوظا عندما أعدمه الاستعمار، فاختتام نضاله بالتضحية بحياته، توّجت تاريخ نضاله بالشهادة، وذلك في تقديري خير له مما لو بقي حيا، وشاهد ما لم يتوقعه من أمة جاهد ولاقى في سبيلها ما لاقي.

فالمناضل المحظوظ هو من يناضل الاستعمار الدخيل، ليحرر بلاده من عدو أجنبي، لا أن يكون نضاله ضد حكم داخل بلاده، فإن فاجأته سلبيات النتائج كما أجدها اليوم أمامي ، فماذا يفعل... ؟؟ نعم هذا السؤال صار يخصني الآن؛ ماذا أفعل ..؟

هل أبدأ من جديد ....؟؟! وحتي إن قدر لي ذلك، فإن أخطر ما في الأمر أنني لن أستطيع تغيير أي شيء... لأن الدّاء يكمن في الذات وليس دخيلا عليها، ويتحول الأمر إلى ما يشبه النّمو السرطاني الذي يطوره الجسم ذاته نتيجة النّمو الفوضوي للخلايا بداخله.

استخلاص تجربتي فيما مررت به، أشبهها بقصة شعبية مفادها، أن أعرابيا وجد في الصحراء شخصا تائها وعطِشا ومُتعَبا فسقاه وحمله على دابته، وفي منتصف الطريق، قابل ذاك الرجل إحسان الأول بالغدر ، وسلبه من كل شيء واستحوذ على الزّاد والشراب و الدّابة وتركه مرميا في الصحراء، وكان يهدده بالقتل كلما حاول أن يلاحقه... وعندما ينس المغدور من أية ذرّة إنسانية لدى الغادر، قال له:

ما أرجوه منك، هو ألا تحكي قصتي معك لأحد، لكي لا تنقطع الرحمة بين الناس.....

لكنني ورغم كل هذا، أتجنّب أن أقول للشباب لا تعمل من أجل وطنك،،، فلا أبغي أن يكون في مأساتي مبرر تحجم به الأجيال القادمة عن النضال..

فالخلاصة ،،، أنني قد وجدت اليوم أنّ :

- العمل الوطني قد أوصلني إلى سراب.
- أجد الآن وفي مرحلة شيخوختي، أن بلدي عبارة عن دمار...فأسأل نفسي: هل ساهمت تجربتي من حيث لا أدري - على الصعيد الشخصي أو الصعيد العام - إلى إيصال بلدي إلى هذا الحال ؟
- أجزم بمنتهى الصدق أنني أعجز تماما عن تفسير ما حصل.

ورغم كل ذلك، فإن سنوات الاغتراب الطويلة، قد علمتني كيف أتعايش مع نفسي دون أن أشعر بالقلق،، وكيف أمارس فضيلة التفكير والتّأمل لساعات طويلة منعزلا دون أن أحسّ بالوحدة.... فالإنسان في زحمة الحياة وضجيجها وسط الناس من الصباح وحتى المساء لا يجد وقتا للتّأمل أو التفكير، إلى أن يستلقي مُرهقا على سريره ولا يلبث أن يغرق سريعا في النوم ،،، ولهذا ينبغي على المرء من حين لآخر أن يوفّر وقتا معقولا يناسبه لكي يفكر ويتأمّل في أخطائه كي يُقلع عنها، وأن يستمر على منهاج صوابه، وهذا ما يعرف بمراجعة النفس أو النّقد الذاتي، لأن العقل البشري - في تصوري - يمكن شحذه وتنميته عن طريق التفكير الدائم، والتّأمل من حين لآخر، لكي لا يصيبه الخمول والتّبلد، ويصبح مجرد تابع أو مقلد للآخرين كما لو كان فردا في قطيع من السوائم ...؟

ومع ذلك،،، فما من شيء عظيم ورائع بالمجّان.... وهذا ما قاله المتنبي قبل أكثر من ألف عام :

ذو العقل يشقى في النّعيم بعقله وأخو الجهالة في الشّقاوة ينعمُ .

(و لابدّ دون الشّهد من إبر النحـــل.)

وفي النهاية، أجد أن حديثي تلخصه (قذّارة) أخرى من تراثنا الشعبي تقول:

(لو كـان فالْعَقابْ ايروقْ الغمَــرْ ما علينـا فاوّلهْ)....!!

فالماضي قد ولّى، ولكن ما نراه اليوم من عبث وفوضى في الوطن وفي مقدراته، هو مبعث القلق وعدم الارتياح .

المشكلة في بلادنا هي ثقافة "عدم الانتماء " لدى الكبار والصغار، فالطفل عادة يكف عن أي عمل عندما تنهاه الأم، أما عندنا فإنه يباشر التخريب لما يجد، ولا ينته إلا بالضرب،، فلماذا إذا ينتهج الفوضى ؟.. لأنه يرى الآخر يعيش بالفوضى، ويقوم بالتخريب، فأصبح الجيل عاصيا وبدون ولاء، وأضحت الثقافة لديه هي تخريب وتدمير أي شيء ليس له، حتى وإن كان الطريق العام،، والسبب هو عدم الولاء للوطن والمجتمع، أو تقدير المصلحة العامة، (يقول ابن رشد: إن مقياس كل الأعمال هي المصلحة العامة).

وعلى سبيل المثال، فإن الذين ترشحوا للمؤتمر الوطني، أو للهيئة التأسيسية للدستور، لم يقم أحدهم بالاجتماع بالناس ومناقشتهم، أو حدّد لهم برنامجه الانتخابي، فالأمر لم يزد عن توزيع وإلصاق صور لأشخاص علقت هنا وهناك مذيلة باسمه واسم قبيلته، وللأسف فإن الناس شرعوا في انتخاب أشخاص وأسماء ترجمةً لولاءات خاصة، ولم يصوتوا لبرامج أو لسياسات، وهذه أسوأ ترجمة لعدم الولاء للوطن وأولوياته، وإساءة بالغة لأساس قدسية المواطنة في الضمير العام عند الناس).

و إلى هنا انتهي كلامه بالإجابة عن الاستفسار الأول، وقد كان جليا و واضحا، وقد استخلصت من إجمالي ما طرحه، أن تلك المسيرة بكل تفاصيلها كانت محددة في تزامنها ونتائجها في أربعة أطر:-

1- اندفاع الشباب في البداية برومانسية المراهقة السياسية التي قادته إلى العقوق لدولته، و إلى إنكار دور الملك ورجاله الأوائل في إقامتها من العدم.

2- الاصطدام بالواقع، عند محاولة تصحيح المسار عندما مال نحو الاعوجاج بعد انقلاب سبتمبر 1969، و المجابهة ببشاعة رد فعل النظام وقسوة زبانيته، وسلبية المجتمع المطلقة نحو ما كان يجري بالبلاد، وبحق أولئك المحصورين في قبضة السلطة، والأبشع من ذلك أن النظام لم يترك البلاد بعد اثنتين وأربعين سنة ،إلا وقد أصبحت خواءً من مؤسسات تقوم عليها الدولة، وجرداء من التعليم والثقافة، وقد زرع في المجتمع جذور سلبيات ضاربة في العمق من الفوضى والإسفاف وعدم الانتماء للوطن.

3- الانتكاسة المفجعة لثورة 17 فبراير، وتبخر الأماني العذاب إثر استرخاص الشباب لأرواحهم في سبيل الوطن، وإذا بالأمر يدور دورة عكسية ليدخل في حلقة البغض والأنانية ، فتخرج نبتة السوء في وطننا بإراقة الدماء واستباحة المحرمات، وكأن الوطن قد استنبت رؤوسا عديدة من الطواغيت الجديدة...

4- تأخر ظهور نتائج تجربته، ومعرفته للحقيقة المجرّدة إلى ما بعد الولوج في سنّ الشيخوخة.

ولما كانت الأيام دولاً بين الناس كما يقولون، فإن الشبيه تماما لهذا الموقف هو ما لقيه الشاعر «محمود سامي البارودي» في قضية وطنه مع بدايات القرن العشرين فيقول:

(قامت به من رجال السوء طائفةٌ أدهى على النّفس من بؤسٍ على ثُكَلِ)

وهذا تماما هو حال البلاد بعد ثورة فبراير،، فأضحت كالثّكلى التي زادتها الأيام بؤسا...

وهكذا، عدنا إلى استخلاص «سبارتاكوس» منذ القدم الذي قرّر فيه بأنّ :

(وراء كل قيصر يموت،، قيصر جديد...).

وأما عن الاستفسار الثاني، (المسألة الشخصية أو العاطفية الخافية)، فقد عقدت العزم على أن أحاول بكل جهدي أن أستكشف الجانب الذي أخفاه تماما، والذي لم يُشر إليه بحرف واحد في كلّ ما كتب، ولم يتناوله في أي حديث مع أحد،، إنه الجانب العاطفي الذي أحكم حوله أقفالا مؤصدة...

ورغم كل تحفظاته،، فقد طابت لي مراوغته في تلك الجلسة، لأستبين عمق الدّفين...ولم أبرح مكاني، ولم أكفّ عن المراوغة حتى طفح الرّاسب، وبانت زبدة المخيض،، فكان فيضه من الجوانح مُترجَماً من إحدى مخزونات ثقافته عن مُسامَرةٍ كانت قد جرت في عهد الخليفة الأموي (عبدالملك بن مروان) حول بيت شعري من قصيدة قديمة للشاعر : (نُصيب بن رباح) عن محبوبته (دَعْد) يقول فيه:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمُت فياويحَ دعدٍ من يهيمُ بها بعدي

وتقول الرواية، أن الجالسين تناولوا البيت الشعري بالنقد، وأدلى كلّ منهم بدلوه فيما يجب أن تكون عليه صيغة الشطر الثاني من ذاك البيت الشعري، وحاول كل منهم أن يجد لها صياغة مغايرة ،، إلى أن احتكموا لدى الخليفة عبدالملك الذي آثر أن يكون النّصّ كالآتي:

أهيمُ بدعدٍ ما حييت فإن أمت فلا صَلُحتْ دعدٌ لِذي خِلّةٍ بعدي.

وبعد استكمال « عبد الونيس » لهذه الرواية، علّق بنفسه على هذا التخريج قائلا: (هذا الذي جاء به الخليفة، هو ما يطابق الطبيعة الإنسانية التي لا تسمح بتصور استحواذ الغير على المحبوب حتى بعد الممات.....!)

و أخيـــرا ،،،! هاهو قد بيّن اليوم... فأفصح، و بوضوح تام... !!

و أيقنتُ حينها ، أنه قد احترم سؤالي وقدّره فصرّح وأسرّ لى بما حجبه عن الآخرين طيلة كل ماضيه.

ومن جانبي،،، لم أعلّق على ما تجلّى لي بوضوح بعد سماع ومعرفة فحوى الرواية، وما ترجمه اختيار ذلك القول والمضمون لما في مكنونه من مشاعرٍ لا يعرفها الآخرون، كانت بوجدانه قد نمَت ، وبداخله وُئِدت في صمت ...

و كتمتُ جاهداً ما دار بداخلي من تأثّر حيال ما استنتجت مما قال ،،، طأطأت رأسي واجماً، ولمحتُ في عينيه نظرةً معبّرة،، وقد عجزت كلماتي عن الرّد عليها...

فانسحبت نظراتي أمامها كسيرةً، ومليئة بالإشفاق إلى أقصى الحدود ،،

وهرعتُ إلى أوراقي لأكتب ...

في تلك الليلة،،، تراءى لي أن ثمة أحلام لا نطيقها حين تخطر ببالنا فنهرب منها، وأحلام أخرى تموت على قارعة الطريق قبل أن نصلها، وثمة نوع آخر من الأحلام يرافقنا طيفها مدى الحياة وتأبى أن تموت... وأيقنتُ أن العشق يفتح آفاقا لجمالٍ لا نهائي، وتخلد بصماته بهيجة في كل حين لتبقى في بهاء شبابها كيوم سكناها في الفؤاد أول مرة، ومهما كانت الظروف والعوائق، ومهما توالت السنون، فإن من خلق للإنسان قلبا أبدع ـ سبحانه ـ حين جعله لا يشيخ ...!!

وخطر لي ساعتها شيئا من أشعار المتنبي:

أبلغ عزيزا؛ في ثنايا القلب منزله إني وأن كنت لا ألقـاه، ألقـــاه

إن غاب عني، فإن الروح مسكنه من يسكن الروح كيف القلب ينساه

وبين سرد الماضي في هذا الكتاب لكل المراحل والمواقف حسب ما رأينا في تلك التفاصيل المدهشة، وبين ما أتناوله في هذا الجانب (العاطفي)، ما قد يبدو للبعض غريبا، ولكن الإحساس في الانسان جِبلّة خلقت معه بالفطرة (كرها أو حبا)، وإذا كنا نلاقي في الحياة سوءات كثيرة تؤذي مشاعرنا، وتمحق البهجة من أيامنا، فإن المقابل كامنٌ في سمو العواطف الانسانية، متجلية بأرقى معارج النّبل حينما نحب.

فالبياض لا ينصع إلا إذا اشتد من حوله السواد..!.

تفاعلتُ ساعتها من الأعماق مع صورة المشهد عند تكامل تصوّره، ولا أدري كيف طواني الزمان لأرجع في سن الشباب أيضا إلى تلك الآونة، في مشاهدِ كنت في الحقيقة غائبا عنها، ولم أشارك (الإثنين : دعداً و صاحبها) فيها، لكن الوجد قفز بي راجعا عبر عشرات السنين الماضية لأتقاسم معهما شيئا من التّوجّع، مشاركة في أسقامٍ استولدت في خاطري كلّ الأنين.. فذاك الذي حُسب في عداد الأموات، واستُبدل الشوق إليه بالصبر و الاحتساب عند اليأس، رجع من سراديب العدم العميقة المظلمة فجأة إلى الحياة من جديد، و نُكِئت الجراح، التي لم يعد لها حيننذ، ولا في المستقبل أيّ بلسم يشفيها...!

وفي هذا الشأن، فقد كان لزاما عليه أن يزدرد المواجع بصمت...؟! فلا المقام ولا الزمان يسمحان بحديث مباشر، أو حتى بالإيماء إلى مثل هكذا موضوع... فالأحداث في وقائع سيرته، وفي نموذج شخصيته التي يعرفها الناس، كلاهما مُصنّفين في مدارٍ آخر، لا مجال فيهما لانشغالٍ سوى بأعباء النضال، ومكابدة هموم الرسالة... وكأن القدر لم يكتف بأن يخسر«عبد الونيس» كل ما أراد،،، لا.. بل كان عليه أيضا ألا يذكر شيئا مما خسر ...!!.

وعندذاك فقط ، عرفت السبب في عدم تصريحه فيما كتب أوتحدث به من قبل إلى أية إشارة في هذا الشأن .... فقد يزيد الحجاب المحجوبَ جمالا في بعض الأحيان...!

يقول جلال الدين الرومي : (ما لمس الحبّ شيئا إلا وجعله مقدّسا) .

وانجرّ قلمي ساعتها ليسطّر رسالة - دون استئذان - لمن يعنيها الأمر رغم أنني لا أعرفها، ولا أعرف مكان وجودها على الكرة الأرضية، ، ولتكون رسالتي بمثابة ترجمة تنقل ما وجدته في وجدان الرجل،،، وقد آثرتُ أن أستعير نفس الاسم ؛ (دعد) كرمزية لها .... فخاطبتها قائلا:

وميضُ الصَّبِّ من عهد الصِّبا

يلوح يا (دعدُ) ...

لتلك المُنى،،

الوجدُ تَــرادفَ بعد ما،

اغتيلتْ أمانينا ،

طواها الجــوى...

فضاءات الحُلم

يعبرها جنــاحٌ ،

طالتــه بغدرٍ سِهــامُ العِــدى

يتساءل فؤادي :

في كلّ حيــن...

أما في حياتي رِيّ لِظمــا ...؟!

وأسأل نفسي طوال السنين ،،

لماذا الدهر ناصبنا العدا ..؟

سيكــون.. في الأخرى،

هنــاء الخلود ؛

إن عزّ في الدنيا يا (دعد) اللقا...!.

يقول جبران خليل جبران :

(إذا المحبّة أومت لكم فاتبعوها، وإن كانت مسالكها صعبة متحدّرة.

وإذا ضمّتكم بجناحيها فأطيعوها، وإن جرحكم السّيف المستور بين ريشها.

وإذا المحبّة خاطبتكم فصدّقوها، وإن عطّل صوتها أحلامكم وبدّدها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفاً).

لقد حاصرني و تزاحم من حولي كل هذا الزّخم، ولشيء من الوقت ـ بعد جلستنا ـ طرأ على وجداني تهيّج انفعالي لم أتبيّن على وجه التحديد مصدره، فهل لاح لي من أفق الشباب البعيد شيئ ...؟ أم تسلل التّصابي من بين سنين العمر لمُعتّقٍ مثلي....؟!

وأيا كان من أمر، فإن العقل لم يسمح للنفس أن تنجرف فيما لا مبرّر لها فيه...!، و كان لزاما أن أستنكف راجعا لأهدأ،،، وأن أتحرّى التركيز في حدود مهمتي كي لا أحيد عن أساس الموضوع الذي أكتب فيه .... فغادرتُ كهف سرّه الذي لم يُفاتِح فيه أحداً سواي،، وتركته طاويا لمحتوى خصوصياته كما كان ،،، ومنذ أمد بعيد.

وعند ذاك ،،،

استيقنتُ تماما بأن الإنسانية ستظل ـ وكما هي منذ القدم ـ تتوقُ و تبحث عن عالم متجرّد من الكراهية والأنانيّة، و استغوال الشّح، وحيوانيّة الاستعلاء بالقوة والطغيان، لتتجسّد الحياة بمعناها الأصيل الجميل، و بصورتها النّقية من شوائب النّواقص، فتسمو عن حيوانية الآدمي في التطرّف وفي ضيق الأفق، إلى آفاق القِيم الإنسانية الرّفيعة .

عالم افتراضيّ ... أقلّ توتّرا، و شقاءاً، و عبثيّة

****

رجع المهاجر إلى وطنه...!
«عبد الونيس محمود » وعن يساره المؤلف ..
حيث تجدد اللقاء بمنزل العائلة في (علوة أم حنية) بعد ستّ وعشرين سنة تفصلهما عن اللقاء الأول في نفس المكان ...!!.

و بعد ،،،

فإن في ختام السّرد، ما قد يفسر للقارئ معنى ما قدّمنا به هذا الكتاب في ديباجة عنوانه،،، بأن « عبد الونيس» لم تُقبل عليه الدنيا بشيء من متاعها ، ولكنها عمّدته إنسانيا بأغنى تجاربها.... في ابتداء اليُتم منذ الطفولة،، إلى كمال اليُتم في الشيخوخة.!

هناك أموات خرجوا للحياة من أفواه غيلان السّجون الرهيبة، وانبثقوا فجأة أمام بيوت أهاليهم العتيقة بعد يأس طويل ،، في امتداد عمرٍ لم يكن له في عقل الآدمي حسبانا.

لكن المفارقة ،،، أنهم نجوا من ميتة الدكتاتورية، ليذوقوا طعم عيشٍ تافه ينتظرهم في موعودات الحياة الديمقراطية ...

لقد ابتهج في مهجره البائس عندما سمع باندلاع ثورة 17 فبراير 2011، وانتعشت الأماني في صدره المفعم بأثقال ما كان في العمر من مآس احتواها جسد أنهكه الزمن، واستوطنته الأوصاب،، راجيا أن يُنصَف الوطنُ والجيلُ، و يشرق الغد الأفضل للأجيال الأخرى.

ولكـن ... ؛؛؛

عندما انقشع الظلام لم يستطع أحدٌ أن يتبيّن نور النهار، وإنما سَديم الغبش يغشى الأبصار في رمادية داكنة، فمهما حدّقت العين وركّزت النّظر، ومهما حاولت توسيع دائرة إبصارها فلا يُستبان للرؤيا وضوح... وتلك بيئة مثالية لظهور و حياة المارقين ،،،

وقد كانت للأسف...؟!.

ويعجز المرء عن التفسير، عندما تَستنبتُ عقول الناس بداخلها مجرما غامضا من الغيّ ، يحثّهم على الاستجابة لنداء الإثم، فيطيعونه بشكل أو بآخر باستهواءٍ أو بعماء،، فيستمدّ من ذلك أسباب بقائه فيهم ليُشقيهم ، أولعله مَساق المقادير الذي يشكّل المصائر في تحوّلات حاسمة، فيما يشبه إذعان القطيع للسّوْق، وصولا إلى نهايات مفجعة لم يتوقعها أو يحسب حسابها أحد..

وهذا التخريج في نظري هو زبدة المخيض في سيرة هذا الرجل، وأظن أن ما وجد عليه الوطن يوم وطأت رجلاه أرض ترابه راجعا في تاريخ 2014/2/24، اسوأ بكثير جدا مما كان عليه الحال يوم إلقاء القبض عليه في 12/7/ 1969...!!.

وتلك هي قمة مأساته،،، فالزمن بين التاريخين (أربع وأربعون سنة و نيّف) بكل الأهوال التي رآها من أجل ذات الوطن، وما قاساه خلالها في سبيله،،، فكل ذلك الأمد وما كان فيه، قد اختزله مشهد الحال حين رجوعه ،، وكأن الرّهان قد انتهى إلى اللاّشيء....!.

لقد كان تعبير المرحوم الأستاذ عبدالحميد البكوش في زمن ماضٍ دقيقا في تصويره للواقع الذي نعيشه اليوم،عندما قال:

(لقد كنت أحزن كثيرا وأنا أرى الليبي هائما في وطنه بلا شخصية).

ويقول الكاتب المرموق « خيري منصور» :

(في التاريخ متّسع لكل النقائض، فهو ليس خيرا خالصا أوشرا خالصا، ففيه حرب وسلام، وبناء وهدم، وانتصارات وهزائم، و قِيم نبيلة ودسائس).

لقد طوى ملف المناضل « عبد الونيس محمود » مجمل أيام العمر في تحبير لغة الوفاء للوطن وليس لسواه، و لقد ترسّم الرجل السّبل الوعرة في ممشاه، يعشق الرّحيق ذاته... ولم يثنِه عن عزمه شيئ، ولم يُغرِه أيّ بريق،، في ندرة مميزة وإخلاص منقطع النظير، وامتازت مناعته بديمومة لم يجارها من الأقران مثلٌ يوازيها ...

لقد حذف البعد النّفعي فيما بينه وبين الوطن، ليثبت أن غابة دنيانا التي تعجّ بالضواري والجوارح لازالت تغني بها العصافير ، وتزينها ألوان أجنحة الفراشات، وأن عمق المغزى يسجل الخلود للتّسامي،،، لنكرر عبارة «شكسبير » الشهيرة :

(سيبقى هناك على الدّوام بقيةٌ من الرّحيق) .....!! .

******

لقد كتبتُ هذه القصة للإنســـان... الإنسان ذي القيمــة،،، أينمـا كـــان...؟!

ذلك الجوهر المُمَيَّز،،، وذاك الذي يعرف كيف يُميِّز،،، بماهيّة تكوين الخالق الفُضلى ، من ذرأه البارئ في أحسن تقويم، وأمر الملائكة بالسجود له.

الإنسان الذى نطق بالحقّ وعرف الفضيلة مذ سمع : ألست بربكم ..؟

وبمفهوم المُنتهى اليقيني على لسان « سحرة فرعون»،،، عندما جابهوه بالحق قائلين: (فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) ... (سورة طه)

والذي تسامى بنصيحة « أسماء بنت أبي بكر » لابنها عبدالله بن الزبير: (إن الشاة لا يعيرها سلخها بعد ذبحها يا بنيّ) .

والذى استبرأتْ بلسانه امرأة فرعون من عمل زوجها وقومه، وهي في عزّ صولجان و نِعَم عرشه فقالت: (ربي نجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين). كما جاء في... (سورة التحريم)

و الناطق بلسان عمر المختار للإيطالي « جراسياني » قبل إعدامه ،

«لا تقل للناس بعد موتي أنني قد استجديتك في هذه الغرفة وحدنا، وطلبت منك العفو عني ». (حسب ما جاء في ترجمة الأستاذ ابراهيم بن عامر لكتاب « جراسياني ؛ برقة الهادئة ») .

الإنسان الذي أراد بناءه المهاتما غاندي فقال : (لا نجذب الأتباع عن طريق الكلام والكتابة، وإنما من خلال حياتنا ، فلنجعل حياتنا كتبا مفتوحة يدرس فيها الجميع).

يقول الفيلسوف الصيني « كونفوشيوس» : (إن الشيء الذي يبحث عنه الإنسان الفاضل موجود في ذاته، أما ما يبحث عنه الإنسان العادي فهو موجود لدى الآخرين).

لقد كتبتُ هذا الكتاب لذلك الإنسان المِثال ،،، وهو موجود في كلٍّ منا بالنشأة،،، وإنما نحن الذين نُشعل السّراج أو نُطفئه ...! .

فقط ... ذلك الإنسان، هو المعني دون غيره بأن يتلقىّ رسالة تضحيات المناضل «عبد الونيس محمود» وأترابه، وتضحيات السابقين لهم واللاحقين من بعدهم، وعلى امتداد خطى الإنسان على هذا الكوكب.

حين تنعقد الألسنة من الخوف، ويهمس الإنسان بالحق، وتنطفئ الحروف المتوهّجة في أقلام المبدعين، وتذوي أزاهير الفنّ الفوّاحة بالعبير في انكسار ووجوم، وتتوقف السّنابل السّخيّة عن العطاء من سنوات القحط الجاف... وتَنصب المشانق الوحشيّة للواعدين بالمطر والبيادر والمدن الدّافئة ، وتَضرم المحارق الهمجيّة للكلمات المبهجة في بطون الكتب، وتهاجر النّوارس النّاصعة البياض من قسوة الصّقيع، وتموت القبرات المدهشة من شدّة القيظ ، وتجفّ الجداول الخضراء في غياب مواسم الهطول، وتتلاشى أماني الأطفال المجنّحة في سيل الدموع... ويختفي عشّاق الشمس والضوء في أقبية الجحيم، ويضيع الحبّ في طوفان الأحقاد ... ويتساوى الحزن والفرح في النفوس المعذبة، وتنكسف الشمس،، وينمحق القمر،، ويزحف الليل ،، وينصاع الجميع لأمر السلطان ... إذ ذاك بالضبط يصبح الوطن مجرّد منفى، ويغدو الإنسان فيه غريبا إلى حدّ فاجع ...!.

عبدالونيس محمود.